بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبعد...:

فبين يدي السورة أقول وبالله التوفيق إن هذه السورة المباركة –وكتاب الله ﷻ كله مبارك– سورةٌ مكية، والشأن فيها – في غالب موضوعها– شأن السور المكية تحمل تذكيرًا بوحدانية الله ﷻ وأمرًا بعبادته وحده لا شريك له وتحذيرًا من الشرك وطرائقه، وتذكيرًا بالجنة والنار والثواب والعقاب ومشاهد القيامة، وكذا تذكيرًا بأركان الإيمان والإسلام، وتذكيرًا بالملائكة والكتب والرسل واليوم والآخر والقدر خيره وشره، وضرب الأمثال لتقرير التوحيد وبيان عاقبة المطيعين، وكذا بيان حال الظالمين الحائدين عن طريق الله ﷻ ولا تخلو من بعض الإرشادات لجميل المعاملات وصحيح العبادات، وكريم الأخلاق، وها هي إشارات سريعة مجملة عابرة لما تضمنته هذه السورة المباركة، فأقول، وبالله التوفيق:

۞ من ذلك– وهو أصل الأصول على الإطلاق تقرير وحدانية الله ﷻ والأمر بعبادته وحده لا شريك له، والتذكير بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقد ورد في هذه السورة المباركة من ذلك شيء كثير، فتقرير ربوبية الله ﷻ ووحدانيته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **[الأعراف: ٥٤]**.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ وكذا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ **[الأعراف: ١٥٨]**.

وفي قول موسى عليه السلام: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ **[الأعراف: ١٤٠]**.

والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه يقولون لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ **[الأعراف: ٥٩]**.

۞ وكذا بيان عبودية الخلق لله ﷻ، ومنهم وأشرفهم الملائكة وقد قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

۞ وبيان أن الأمر كله لله ﷻ: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ [يونس: ٤٩]، وكذا الهداية: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

۞ ومن ثَمَّ الأمر بذكره ﷻ ودعائه ﷻ قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وكذا قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ﴾ [غافر: ٦٥].

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

۞ ثم بيان واسع رحمة الله ﷻ إذ قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، وكذا واسع علمه كما في قول شعيب عليه السلام ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ ﴾.

۞ والتذكير بأن الخير كلَّ الخير في طاعة الله ﷻ وتوحيده، وأن الشر كل الشر في الشرك بالله ﷻ ومخالفة أمره.

وقد توالت النصوص المحذرة من الشرك والمنفرة منه كما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

وكذا قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾.

۞ وتوالت النصوص الآمرة بتوحيد الله ﷻ المُذكِّرة بأسمائه وصفاته والمحذرة من الشرك والتكذيب بآيات الله ﷻ، كما في قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ
عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ).

۞ وكذا تضمَّنت السورة الكريمة طائفة من الآيات (المعجزات) الدالة على قدرة الله ﷻ والمظهرة لشيءٍ من عظمته ، وتجلَّى ذلك في عدة مواطن من هذه السورة المباركة.

۞ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾.

۞ وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

۞ وكما ورد في الناقة التي أيدّ الله بها نبيه صالحًا عليه السلام وهي ناقة عظيمة هائلة يكفي لبنها القوم بأكملهم.

۞ وكالوارد في شأن عصا موسى عليه السلام التي ألقاها فإذا هي حية تسعى تلقف ما يأفكون، ولما ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وكما ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشر عينًا، وتظليل الغمام على بني إسرائيل وإنزال المنِّ والسلوى عليهم إلى غير ذلك من الآيات التي تضمنتها هذه السورة المباركة.

۞ وتضمنت هذه السورة المباركة تحذيرًا شديدًا من التقول على الله بغير علم ومن الكذب على الله ﷻ، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾.

۞ كما تضمنت السورة المباركة تذكيرًا مُجملًا بالملائكة الكرام عليهم السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾.

وكذا عبادتهم لله ﷻ وطاعتهم وامتثالهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾.

۞ والتذكير بالكتب المنزلة من عند الله وحث الأمم على اتباعها، ثم يُؤمَر الجميع باتباع هذا الكتاب العزيز المنزل من عند الله ﷻ.

۞ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

۞قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

۞ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ووصف القرآن الكريم بجميل الأوصاف ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

۞ وكذا التذكير بالتوراة والإنجيل وشيء مما فيها من وصف هذا النبي الكريم محمد ﷺ وبيان ما جاء به كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الآية.

۞ والتذكير بالألواح التي أنزلت على موسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾.

۞ ثم بيان أجر المستمسكين بالكتاب العزيز وفضلهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾.

۞ وكذا الأدب مع هذا الكتاب العزيز عند تلاوته كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، وذلك مع الأمر باتباعه كما سلف في قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

۞ ومن ذلك التذكير بالمرسلين والحث على اتباعهم والتحذير من عصيانهم والتمرد عليهم ومخالفتهم، وذكر شيءٍ من قصصهم وعقوبة من خالفهم، والتذكير بأن الجميع مسئولون يوم القيامة، فمن الوارد في ذلك كله ما يلي:

۞ وقال تعالى حثًّا على الإيمان بالرسل وتصديقهم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

۞ وبيان أن الرسل ستُسأل وكذا من أرسلوا إليهم سيُسألون: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

۞ وإقرار المكذبين يوم القيامة بصدق الرسل وما جاءوا به كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

۞ والتذكير ببعض الرسل وما كان منهم مع أقوامهم وما كان من أقوامهم معهم وأن العاقبة دومًا للتقوى وللمتقين، فقد ذُكر في ثنايا هذه السورة المباركة شيءٌ من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم جميعًا وعلى نبينا محمد صلوات الله وسلامه.

وإن كان هناك قدرٌ كبيرٌ قد ذُكر من قصة موسى عليه السلام، وذلك لأن سيرته هي أكثر السير شبهًا بسيرة رسول الله محمد ﷺ كما قد أوضحنا ذلك في سورة القصص.

۞ ثم في ثنايا هذه السورة المباركة الحث على اتباع رسولنا محمد ﷺ، وبيان عموم رسالته كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

والإيمان به والأمر بتوقيره وتعظيمه صلوات الله وسلامه عليه وبيان صفته وما جاء به كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

وكما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

۞ وكذا تضمنت هذه السورة المباركة تذكيرًا باليوم الآخر وبالبعث ومشاهد يوم القيامة واستأثر بأصحاب الأعراف وأحوالهم، وهو شيء لم يرد في سورة من الكتاب العزيز إلا في هذه السورة أعني شأن أصحاب الأعراف لم يرد في موطنٍ آخر غير هذه السورة.

وهنالك أيضًا بيانٌ عظيم لأحوال أهل الجنة وأهل النار والنداءات التي ينادي بها كلٌّ الآخر.

وكذا حوار أهل الاعراف معهم وكذا التذكير بالميزان وغيره من مشاهد القيامة.

۞ وكذا تضمنت كثيرًا من الآيات الدالة على أن الأمور مقدرة، وأن كل شيء بيد الله ﷻ، كقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾ وكقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾.

وكقول أهل الإيمان: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ ﴾.

۞ كما تضمنت هذه السورة المباركة تذكيرًا بقصة آدم عليه السلام وكذا زوجه حواء عليها السلام، وما كان من أمرهما مع الشيطان، وما تسبب الشيطان لهما فيه من إخراجهما من الجنة وكشف سوءاتهما، ثم إن الله ﷻ تاب عليهما بعد ذلك، وكذا ما كان من شأنهما لما دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحًا لنكونن من الشاكرين.

۞ ويعقُب هذا التحذير من الشيطان ومكائده وشروره وطرائفه.

۞ وكذا تضمنت هذه السورة قصصًا وأمثالًا للاتعاظ والاعتبار كقصة أصحاب السبت (أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر).

۞ وكذا الذي أتاه الله الآيات فانسلخ منها.

۞ وكذا شيئًا كثيرًا من قصص الأنبياء عليهم السلام.

۞ وكذا من الأمثال كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾.

۞ أيضًا قد تضمنت السورة المباركة تذكيرًا بشيء هام ألا وهو أن الطاعات من أعظم أسباب النعم وازديادها، وكذا الإيمان والتُّقى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وأن المعاصي من أعظم أسباب زوال النعم وحلول النقم، وهذا ظاهر جليٌّ فيما حدث للأمم المكذبة وما مر

بها.

۞ وكذا تضمنت السورة الكريمة بعض الإشارات إلى مسائل فقهية وأخلاقية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ والحث على ستر العورات.

۞ وكذا إشارة إلى الاقتصاد في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وكذا: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعٗا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

۞ وكذا تضمنت السورة الكريمة تحذيرات من العهود والمواثيق وتبكيت من نقضها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٖۖ﴾.

وكالذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها.

وكالوارد في قوله تعالى: (دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ).

۞ والإشارة إلى أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر وكيف أنهم لم يفوا بعهدٍ ولا التزام ولا ميثاق.

۞ وفي ثنايا السورة المباركة أمور متعددة أُخر كطرائق التعامل مع شياطين الإنس ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وطرائق التعامل مع شياطين الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٞ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ﴾.

۞ والتذكير بالابتلاءات بالحسنات والسيئات والحكمة من هذه الابتلاءات والتذكير بالميثاق الأول المأخوذ على بني آدم.

إلى غير ذلك مما تضمنته هذه السورة المباركة.

وحقيقةً إن الكلم ليعجز وكذا اللسان والجنان وسائر الأركان عن بيان الفوائد التي تضمنتها هذه السورة المباركة، فصدق الله ﷻ إذ وصف كتابه بأنه مبارك، فكل آية من آيات هذا الكتاب العزيز فيها نفع وبركة وخيرٌ لا يعلمه إلا الله، ولكن الموفق من وفقه الله.

فجدير بنا أن نُقبل على هذا الكتاب العزيز تالين له متدبرين لآياته عاملين به موقنين بوعده ووعيده، وبكل ما فيه!، وكيف لا؟! وهو كتاب الله أنزله بعمله، وهذا أعلم بخلقه ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟!!

فعذرًا أعتذر به لله ﷻ عن القصور في بيان فضائل هذا القرآن وما فيه من جميل بيان وحسن نظام وقصص ترق لها القلوب وتقشعر لها الأبدان وصدق الله إذ يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

وها هو تفسير سورة الأعراف في سؤال وجواب.

وما كان فيه من صواب فمن الله ﷻ فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن وما كان من زللٍ وخطأ فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه من كل شيء لا يرضيه.

هذا، وإلى التفسير في سؤال وجواب والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصل اللهم على نبينا محمد وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه
أبو عبد الله
مصطفى بن العدوي
٧ من صفر ١٤٣٠هـ
منية سمنود- أجا- دقهلية

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى: (الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ
وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ وَكَم مِّن
قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ
دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥
فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ
عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن
ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩
وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا
تَشۡكُرُونَ ١٠) [الأعراف: ١-١٠].

الكلمة	معناها
﴿الٓمٓصٓ﴾	أحرف لا يعلم معناها إلا الله.
﴿حَرَجٌ﴾	ضِيق – شك.
﴿وَذِكْرَى﴾	تذكيرٌ.
﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾	قليلٌ منكم من يتذكر – تذكركم قليلٌ – قليلٌ من يتعظ – انتفاعكم بالذكرى قليل.

الكلمة	معناها
﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ﴾	كثيرٌ من القرى.
﴿بَأۡسُنَا﴾	عذابُنا- عقوبتنا.
﴿بَيَٰتًا﴾	ليلًا قبل أن يصبحوا.
﴿قَآئِلُونَ﴾	نهارًا وقت القيلولة.
﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾	دعاؤهم.
﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم﴾	فلنخبرنهم بما عملوا.
﴿بِعِلۡمٍ﴾	بيقين – عن علم.
﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾	لم نكن غائبين عنهم لما صنعوا الذي صنعوه، بل كنا شهودًا عليهم نراهم ونطلع على عملهم كما قال تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾.
﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾	وزن الأعمال.
﴿ٱلۡحَقُّ﴾	بالحق (لا تظلم نفسٌ ولا تُظلم).
﴿ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾	ثقلت موازين حسناته، رجحت حسناته على سيئاته.
﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾	الفائزون بالمطلوب (وهو: رضوان الله عليهم والفوز بجنته والناجون من المرهوب (وأعظمه سخط الله عليهم ودخولهم النار).
﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾	باعوها بثمن بخسٍ- أضاعوها.
﴿مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾	جعلناكم ممُكنين فيها- جعلناها قرارًا لكم تفعلون عليها ما شئتم- هيأنا لكم المعيشة فيها بما جعلناه فيها من أسباب المعيشة- سخرناها لكم.
﴿مَعَٰيِشَ﴾	ما تتعيشون به من الطعام والشراب، وما يحيا به الأشخاص أيام حياتهم.
﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾	قليلٌ منكم من يشكر – شكركم قليل.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنها احرف افتتحت بها تلك السورة المباركة كما افتُتِحت سور أُخر بأحرف أُخر، وهذه وتلك لا يعلم معناها إلا الله، وقد سيقت للتحدي والإعجاز، فكأنه قيل لهم: هذه الأحرف أحرفٌ تعرفونها تقرؤنها وتكتبونها، ولكن لا تستطيعون أن تأتوا منها آية ولا بحديث كهذا القرآن.

الثاني: أن معناها أنا الله أفضل.

الثالث: أن فيها إشارة إلى اسم الله المصور.

الرابع: أنها أحرف فيها اسم الله الأعظم.

هذا، وثمَّ أقوالٌ أُخر قد أشرنا إلى بعضها في سورة البقرة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، هذا القرآن كتابٌ أنزل إليك يا رسول الله من عند الله ﷻ.

س: في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ إشارة إلى أن الله ﷻ في السماء، وضح ذلك؟

ج: نعم إشارةٌ إلى ذلك فالإنزال يكون من أعلى إلى أسفل كما هو معلوم من معاني الإنزال قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾، وهكذا كل الآيات التي فيها ذِكر الإنزال يستدل بها على مسألة العلو، وقد قال تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾.

س: هل كان في صدر رسول الله ﷺ حرجٌ حتى قيل له: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ وما هذا الحرج؟

ج: أولًا: قد ذكر بعض العلماء معنى الحرج في هذا الموطن وأن المراد به الضيق، ولكن ضيق من ماذا؟

فقالوا: إن الضيق من عدم إيمانهم، وعلى هذا فنقول.

ثانيًا: قد كان النبي ﷺ متألمًا حزينًا من عدم إيمان قومه ومت تكذيبهم له، ومن

قبل كان مترقبًا قتلهم له، ومن ثمَّ قيل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى هاهنا: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]، وذلك لأن الذي عليك إنما هو البلاغ، وإنما أنت منذر، وكذا فلست عليهم بمسيطر، وكذا فلست عليهم بجبار أي لست لهم بمجيرٍ على الهداية والإيمان إنما أنزلنا إليك الكتاب لتنذر به وذكرى للمؤمنين فمن ثم لا تتحرج ولا تتخوف هذا، وقد ورد في حديث عياض ابن حمار الأشجعي، ذلكم الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم(١) في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ».

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، واذكر بعض أقوال العلماء فيها؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، هذا القرآن كتابٌ أنزله الله إليك لتحذر به العُصاة والتحذر به المشركين والغواة، ولتذكِّر به أهل الإيمان وتخوفهم من العقوبة التي تحل بمن خالف أمر ربِّه ﷻ، والتي تحل بمن أشرك، وجعل مع الله إلهًا آخر، والتي تحل بمن أنكر البعث والحساب وسائر ما أُمر بالإيمان به، فلا تتحرج ولا تتضايق من التكاليف التي أمرت بإبلاغها فإنما أنت مُذكر وما وراء ذلك من الأمور فموكولة إلى الله ﷻ.

۞ وأيضًا لا تشك في كون هذا الكتاب من عند الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(١) مسلم (حديث ٢٨٦٥).

يعني بذلك تعالى ذكره: هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، لتنذر به من أمرتك بإنذاره، ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، وهو من المؤخر الذي معناه التقديم، ومعناه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ)، و﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، و﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

وإذا كان ذلك معناه، كان موضع قوله: ﴿وَذِكۡرَىٰ ﴾ نصبًا، بمعنى: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتنذر به، وتذكر به المؤمنين.

ولو قيل معنى ذلك: هذا كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه، أن تنذر به، وتذكّر به المؤمنين، كان قولًا غير مدفوعة صحته.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فلا يضيق صدرك، يا محمد، من الإنذار به من أرسلتك لإنذاره به، وإبلاغه من أمرتك بإبلاغه إياه، ولا تشك في أنه من عندي، واصبر للمضيّ لأمر الله واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النبوة كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن الله معك.

و«الحرج»، هو الضيّق في كلام العرب.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

س: اذكر بعض صور الإنذار في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾.

ج: أعظم ذلك الإنذار بالنار قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴾.

۞ والإنذار بالصواعق قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٣].

وثم إنذارٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

وإنذار بالعذاب عند الاحتضار والموت، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ

فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ) [الأنعام: ٩٣].

س: أليس هذا القرآن ذكرى للبشر؟ فإذا كان كذلك ذِكرى للبشر فلماذا إذن قيل ها هنا ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فخص الذكرى بالمؤمنين؟

ج: جواب ذلك، والله تعالى أعلم، أن المؤمنين لما كانوا هم المنتفعين بالذكرى فمن ثمَّ كانت الذكرى لهم دون غيرهم، إذ هم الذين قبلوها وشكروها وانتفعوا بها، والله أعلم.

وذلك، والله أعلم كقول القائل خذ فلان هذا البيت، فيرفضه وتقول يا فلان خذ هذا البيت فيرفضه ثم يقبله زيدٌ مثلًا فنقول: هذا البيت لزيدٍ لكونه الذي قبله وانتفع به. والله أعلم.

س: في الآية الكريمة: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ دليل على ترك اتباع الآراء المخالفة للنصوص، وضح ذلك؟

ج: إيضاحه أن الله ع أمر باتباع الوحي قائلًا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ونهى عن اتباع ما سواه بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

س: اذكر بعض الآيات الآمرة باتباع هذا القرآن والناهية عن اتباع الأهواء وأصحابها؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) [الأعراف: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢].

س: ما الذي أُنزل إلينا من ربنا؟

ج: أُنزل إلينا من ربنا القرآن قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر: ٢]، وكذلك فالسنّةُ وحيٌ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

ج: هذا الخطاب للناس كافة وأمرٌ لهم أن يتبعوا الكتاب والسنة وأن يقتفوا أثر الكتاب والسُّنة وأن يمتثلوا ما فيهما، وأن يُعرضوا عما سواهما وعما خالفهما.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) يَعْنِي الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟) [الحشر: ٧].

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا أَمْرٌ يَعُمُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأُمَّتَهُ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَمْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ دُونَهُ.

أَيِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنَ، وَأَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَامْتَثِلُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى تَرْكِ اتِّبَاعِ الْآرَاءِ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ)، (مِن دُونِهِۦ) مِنْ غَيْرِهِ.

وَالْهَاءُ تَعُودُ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَالْمَعْنَى: لَا تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا مَنْ عَدَلَ عَنْ دِينِ اللهِ وَلِيًّا، وكل من رضي مذهبًا فأهل ذلك المذهب أولياؤه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْعَالَم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أَي: اقْتَفُوا آثَارَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أَيْ: لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ.

قلت (مصطفى): هكذا ذهب القرطبي وابن كثير رحمهما الله تعالى وغيرهما من العلماء إلى أن الخطاب للناس كافة في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وهذا القول فيما يبدو لي، والله أعلم هو الصواب، أما الطبري خ فحاصل كلامه أن هذا الخطاب موجهٌ لأهل الشرك إذ قد قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك الذين يعبدون الأوثان والأصنام: اتبعوا، أيها الناس، ما جاءكم من عند ربكم بالبينات والهدى، واعملوا بما أمركم به ربكم، ولا تتبعوا شيئًا من دونه يعني: شيئًا غير ما أنزل إليكم ربكم.

يقول: لا تتبعوا أمر أوليائكم الذين يأمرونكم بالشرك بالله وعبادة الأوثان، فإنهم يضلونكم ولا يهدونكم.

والذي يبدو، والله أعلم: أن القول بعموم الخطاب أوْلى، ويكون خطابًا للمؤمنين كي يَثْبُتُوا على ما هم عليه من إيمانٍ وحُسن اتباع للكتاب والسُّنة، وخطابًا للكافرين بحثِّهم على الرجوع عما هم فيه من الباطل، واتباع ما أنزل إليهم من ربهم عَزَّوَجَلَّ، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ج: المعنى، و الله تعالى أعلم، قليلًا ما تعتبرون وتتعظون وترجعون للحق.

أي إن اتعاظكم قليلٌ واعتباركم قليلٌ، وانتفاعكم قليل.

ووجه آخر أن المعنى: قليلٌ منكم من يتعظ، وقليلٌ منكم من يعتبر، وقليل منكم من يؤمن.

قال الحافظ ابن كثير خ: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ

حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

س: قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا ﴾ كيف يُفهم والإهلاك إنما يكون بعد مجيء البأس؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن الإهلاك يكون بخذلان أهلها عن الطاعات وعدم توفيقهم لها، وامتناع أهلها عن اتباع ما أُنزل إليها من البينات والهدى، كما قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] أن بعض العلماء في تفسير الآية الكريمة أن الشخص يُذنب الذنب فيقول لن يغفر لي فيلقى حينئذٍ- وبعد تسرب اليأس إليه- بيديه إلى التهلكة، فحينئذٍ، وبعد إهلاك القرية على النحو المذكور يأتي أهلها العذاب.

الثاني: أن الإهلاك هو البأس بعينه فيكون المعنى أهلكناها بمجيء بأسنا إليها.

الثالث: أن الفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا ﴾ بمعنى الواو ثم إن الواو لا تفيد ترتيبًا فيكون المعنى وكم من قرية أهلكناها وجاءها بأسنا بياتًا.

الرابع: أن المعنى، وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا.

وذلك كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ ﴾ أي إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولًا بذل الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠]، وكقوله: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ

مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

وقيل هي مجرد الاستراحة في ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم، وخص الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة فمجيء العذاب فيهما أشد وأفظع وأزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة. والمعنى جاءها عذابنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون وقت الظهيرة أي جاءهم البأس على غير تقدم أمارة لهم على وقت نزوله، وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة فإن عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، لقد كانت هناك قرىً كثيرة أهلكها الله ﷻ بإغراقها في الذنوب والمعاصي فلما غرقت في ذنوبها ومعاصيها جاءها عذاب الله ﷻ، منها قرى أتاها عذاب الله ﷻ وهم قبل أن يصبحوا، وقرىً أُخر أهلكها الله ﷻ نهارًا وقت قيلولتهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلًا ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو؛ كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وقال ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.
[النحل: ٤٥-٤٧]

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

ج: المعنى، والله أعلم فما كان قول هؤلاء المعذبين أهل القرى التي أهلكها الله- لما رأوا بأس الله وعذابه إلا أن اعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظلمةً يستحقون ما حلَّ بهم من العذاب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَامِدِينَ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلم يكن دعوى أهل القرية التي أهلكناها، إذ جاءهم بأسنا وسطوتُنا بياتًا أو هم قائلون، إلا اعترافهم على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مسيئين، وبربهم آثمين، ولأمره ونهيه مخالفين.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»:

بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن تلك القرى الكثيرة التي أهلكها في حال البيات، أو في حال القيلولة، لم يكن لهم من الدعوى إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين.

وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

س: كيف تمكنوا من قول: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وقد جاءهم العذاب؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم قالوا ذلك لما رأوا مقدمات العذاب.

الثاني: أنهم قالوا ذلك لما رأوا أن بعضهم قد هلك أمامهم، والهلاك والدمار في طريقه إليهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

وكيف أمكنتهم الدعوى بذلك، وقد جاءهم بأس الله بالهلاك؟ أقالوا ذلك قبل الهلاك؟ فإن كانوا قالوه قبل الهلاك، فإنهم قالوا قبل مجيء البأس، والله يخبر عنهم أنهم قالوه حين جاءهم، لا قبل ذلك؟ أو قالوه بعد ما جاءهم، فتلك حالة قد هلكوا فيها، فكيف يجوز وصفهم بقيل ذلك إذا عاينوا بأس الله، وحقيقة ما كانت الرسل تَعِدهم من سطوة الله؟.

قيل: ليس كل الأمم كان هلاكها في لحظة ليس بين أوّله وآخره مَهَلٌ، بل كان منهم من غرق بالطوفان. فكان بين أوّل ظهور السبب الذي علموا أنهم به هالكون، وبين آخره الذي عمَّ جميعهم هلاكُه، المدة التي لا خفاء بها على ذي عقل. ومنهم من مُتِّع بالحياة بعد ظهور علامة الهلاك لأعينهم أيامًا ثلاثة، كقوم صالح وأشباههم. فحينئذ لما عاينوا أوائل بأس الله الذي كانت رسل الله تتوعدهم به، وأيقنوا حقيقة نزول سطوة الله بهم، دعوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾، فلم يك ينفعهم إيمانهم مع مجيء وعيد الله وحلول نقمته بساحتهم. فحذّر ربنا جل ثناؤه الذين أرسل إليهم نبيه محمدًا ﷺ من سطوته وعقابه على كفرهم به وتكذيبهم رسوله، ما حلَّ بمن كان قبلهم من الأمم إذ عصوا رُسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

س: عن أي شيء يُسأل المرسلون، وعن أيِّ شيءٍ يُسأل الذين أُرسل إليهم؟

ج: يُسأل المرسلون عن إجابة أقوامهم لهم، ويُسألون أيضًا هل بلَّغوا ما أُمروا بتبليغه أم لا؟

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وفي الحديث: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) [البقرة: ١٤٣] [١].

أما الأمم الذين أُرسلت إليهم فيُسألون عن جملةٍ من الأمور، منها أنهم يُسألون عما أجابوا به المرسلَين قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥] فهذا إجمالًا.

وبشيءٍ من التفصيل: فأهل الشرك يُسألون، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٧٤] وثمت أسئلةٌ أُخر. وأهل الإيمان يُسألون كذلك، قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٨].

وثمت أسئلة أُخر كما في الحديث: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٢].

س: كيف يسأل الله ﷻ الرسل، وهو أعلم بما كان وما هو كائن وما سيكون؟

ج: أما سؤال الأمم المكذبة فلتوبيخها وتقريرها وإهانتها ولتعذيبها وفضيحتها.

أما سؤال الأمم المصدقة المؤمنه فلإكرامها وللإنعام عليها.

أما سؤال الأنبياء عليهم السلام فلإشهادهم على أممهم ولإكرامهم كذلك، وكذلك لسؤالهم عن البلاغ كما في الحديث: «يُقَالُ لِنُوحٍ عليه السلام هل بلغت؟......»، وذلك المذكور كله؛ لأنه معلوم بداهة لدى أي مسلم، أن الله ﷻ يعلم ما في السموات وما في الأرض ويعلم ما مضى وما هو كائن وما سيكون، لا يشك في ذلك مسلم.

هذا، وقد طرح الطبري نحو هذا السؤال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ فقال: فإن قال قائل: وكيف يسأل الرسل، والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يقصّ عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟

قيل: إن ذلك منه تعالى ذكره ليس بمسألة استرشاد، ولا مسألة تعرّف منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: «أَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ فَأَسأْتَ؟»، و«أَلَمْ أَصِلْكَ فَقَطَعْتَ؟».

---

(١) البخاري (٣٣٣٩).
(٢) البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩).

فكذلك مسألة الله المرسل إليهم، بأن يقول لهم: « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي بِالْبَيِّنَاتِ؟ أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكُمُ النُّذُرَ فَتُنْذِرَكُمْ عَذَابِي وَعِقَابِي فِي هَذَا الْيَوْمِ مَنْ كَفَرَ بِي وَعَبَدَ غَيْرِي؟ كَمَا أَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّهُ قَائِلٌ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١] . وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي ظَاهِرُهُ ظَاهِرُ مَسْأَلَةٍ، وَمَعْنَاهُ الْخَبَرُ وَالْقَصَصُ وَهُوَ بَعْدُ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيرٌ.

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الرُّسُلِ الَّذِي هُوَ قَصَصٌ وَخَبَرٌ، فَإِنَّ الْأُمَمَ الْمُشْرِكَةَ لَمَّا سُئِلَتْ فِي الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهَا: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٧١] ؟ أَنْكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَقَالُوا: ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٩].

فَقِيلَ لِلرُّسُلِ: هَلْ بَلَّغْتُمْ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ؟ أَوْ قِيلَ لَهُمْ: أَلَمْ تُبَلِّغُوا إِلَى هَؤُلَاءِ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ؟ كَمَا جَاءَ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِأُمَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ مَسْأَلَةٌ لِلرُّسُلِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِشْهَادِ لَهُمْ عَلَى مَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأُمَمِ وَلِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِمَعْنَى الْقَصَصِ وَالْخَبَرِ.

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ عَنِ اللهِ مَنْفِيٌّ مِنْ مَسْأَلَتِهِ خَلْقَهُ، فَالْمَسْأَلَةُ الَّتِي هِيَ مَسْأَلَةُ اسْتِرْشَادٍ وَاسْتِثْبَاتٍ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ السَّائِلُ عَنْهَا وَيَعْلَمُهُ الْمَسْئُولُ، لِيَعْلَمَ السَّائِلُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِهِ. فَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِهِ، لِأَنَّهُ الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا وَفِي حَالِ كَوْنِهَا وَبَعْدَ كَوْنِهَا، وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي نَفَاهَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨]، يَعْنِي: لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ أَحَدًا مِنْهُمْ عِلْمَ مُسْتَثْبِتٍ، لِيَعْلَمَ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ مَنْ سَأَلَ مِنْهُ، لِأَنَّهُ الْعَالِمُ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِكُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِ.

قال القرطبي خ:

وَسُؤَالُهُمْ تَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ وَإِفْضَاحٌ. وَسُؤَالُ الرُّسُلِ سُؤَالُ اسْتِشْهَادٍ بِهِمْ

وَإِفْصَاحٍ، أَيْ عَنْ جَوَابِ الْقَوْمِ لَهُمْ.

وَهُوَ مَعْنَى قوله:(لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ) [الأحزاب: ٨] عَلَى مَا يَأْتِي.

وَقِيلَ: المعنى (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ) أي: الأنبياء (وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ) أَيِ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ. وَاللَّامُ في (فَلَنَسْـَٔلَنَّ) لام القسم وحقيقتها التوكيد.

|

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وبين قوله تعالى: (وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ).

ج: أجاب بعض أهل العلم على ذلك بأن مواقف القيامة تتعدد فهنالك مواقف ليس فيها تساؤلات، بل الكل سكوت صامتون، ومواطن فيها أسئلة، ولس هذا ببعيد فيوم كألف سنةٍ مما نَعدُّ لا يمتنع أن يحدث فيه هذا وذاك. والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ يُحَاسَبُونَ.

وَفِي التَّنْزِيلِ: (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم) [الغاشية: ٢٦].

وفي سورة القصص: (وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ) [القصص: ٧٨] يَعْنِي إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي الْعَذَابِ.

وَالْآخِرَةُ مَوَاطِنُ: مَوْطِنٌ يُسْأَلُونَ فِيهِ لِلْحِسَابِ.

وَمَوْطِنٌ لَا يُسْأَلُونَ فِيهِ.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

وهنا إشكال معروف: وهو أنه تعالى قال هنا: (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ)، وقال أيضا: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ) [الصافات: ٢٤]، وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة، مع أنه قال: (وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ) [القصص: ٧٨]، وقال: (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ) [الرحمن: ٣٩].

وقد بينا وجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن

آيات الكتاب) وسنزيده إيضاحا هنا إن شاء الله تعالى.

اعلم أولًا: أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة، أخص من السؤال المثبت فيها؛ لأن السؤال المنفي فيها مقيد بكونه سؤالا عن ذنوب خاصة، فإنه قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فخصه بكونه عن الذنوب، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ فخصه بذلك أيضا.

فيتضح من ذلك أن سؤال الرسل والموءودة مثلا ليس عن ذنب فعلوه فلا مانع من وقوعه؛ لأن المنفي خصوص السؤال عن ذنب، ويزيد ذلك إيضاحا قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ الآية، وقوله بعد سؤاله لعيسى المذكور في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] الآية، والسؤال عن الذنوب المنفي في الآيات: المراد به سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأنه جل وعلا محيط علمه بكل شيء، ولا ينافي نفي هذا النوع من السؤال ثبوت نوع آخر منه هو سؤال التوبيخ والتقريع؛ لأنه نوع من أنواع العذاب، ويدل لهذا أن سؤال الله للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]. إلى غير ذلك من الآيات وباقي أوجه الجمع مبين في كتابنا المذكور، والعلم عند الله تعالى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

ج: في ذلك لأهل العلم أقوال، منها ما يلي:

الأول: أن الله يخبر العباد يوم القيامة بما صدر منهم في دنياهم كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ فيه(١): قال رجلٌ لابنِ عُمَرَ: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقولُ في النحوي؟ قال: سمعتُهُ يقول: «يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ

---

(١) البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨).

وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ».

الثاني: أن كتاب الأعمال ينطق على العباد بأعمالهم التي عملوها أو أنهم يقرأون كتاب أعمالهم، وفيه قد أُثْبِتَتْ أعمالهم

|

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وما كنا غائبين عن العباد وهم يعملون أعمالهم التي عملوها، بل كنا مشاهدين لها ولهم وهم يعملونها، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وكما قال تعالى: (وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ) [الأنبياء: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات كقوله تعالى: (وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ) [الأنعام: ٥٩]. والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير:

(وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ) يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى يُخْبِرُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمِلُوا، مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، وَجَلِيلٍ وحَقِيرٍ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْعَالِمُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، (وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ) [الأَنْعَامِ: ٥٩] .

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾، وبيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرهم بأنه جل وعلا لم يكن غائبا عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا، بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير، وجليل وحقير، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا

هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]. وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١]

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ووزن الأعمال يوم القيامة يوم يُسأل المرسلون ويُسأل المرسل إليهم يكون بالحق ليس فيه ظُلمٌ ولا بخسٌ، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠].

س: اذكر بعض الآيات الواردة في الميزان، وكذا بعض الأحاديث؟

ج: أما الآيات فمنها ما يلي:

قوله تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ).

وقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ) [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ) [المؤمنون: ١٠١-١٠٤] الآيات.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٦-١١]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

أما الأحاديث فمنها:

قول رسول الله ﷺ حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(١): قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ».

وعند الإمام أحمد والترمذي وغيرهما بسندٍ حسن(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللهَ عز وجل يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ»، قَالَ: «فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

وعند البخاري ومسلم(٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» ثُمَّ قَالَ: «اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

وعند أحمد من حديث علي رضي الله عنه أن ابن مسعود رضي الله عنه صعد شجرة يجتني الكباث، فجعل الناس يعجبون من دقة ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

---

(١) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٣٦٩).

(٣) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

هُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»[(١)].

س: ما الذي يُوزن؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن الذي يوزن هو العمل.

الثاني: أن الذي يوزن صاحب العمل.

الثالث: أن الذي يوزن هو العمل وصاحبه.

الرابع: أن الذي يوزن كتاب الأعمال.

وقد دلَّت على كلٍ من المذكورات أدلة تقدمت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ بِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحًا، فَتَارَةً تُوزَنُ الْأَعْمَالُ وَتَارَةً تُوزَنُ محالها وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم فمن ثقلت موازين حسناته أي أن حسناته قد كثرت،وأعمال البر قد ازدادت فأولئك هم المفلحون الذين فازوا بالمطلوب وهو الجنة ونجوا وسَلِموا من المرهوب، وهو النار، ومن خفت موازن حسناته وازدادت سيئاته وكثرت الشرور منه فأولئك الذين خسروا أنفسهم، فبخسوها حقها وأودوها الجحيم والعياذ بالله.

س: ما الحكمة من وزن الأعمال، وقد علم الله كل صغير وكبير؟

ج: قال بعض العلماء: ذلك والله أعلم- كي تُقام الحجج على الخلق فيرون سيئاتهم وحسناتهم، ويرون السيئات قد طغت وازدادت فيقرون بأن الله عَزَّ وَجَلَّ حكم عدل، ويرى أهل الإيمان أن الحسنات قد ازدادت فيقرون لله بأنه صاحب الفضل وأنه سبحانه ضاعف لهم الحسنات ووهبهم ثوابها أضعافًا مضاعفة.

---

(١) أحمد: (١/ ٤٢٠).

ومن أمثلة هذه الحجج التي تقام على الخلق استنطاق الأعضاء كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه، وِجْهَته، وقال: أوَ بالله حاجة إلى وزن الأشياء، وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده، وفي كل حال؟ = أو قال: وكيف توزن الأعمال، والأعمال ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة، وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة، والكثرة والقلة؟

قيل له في قوله: «وما وجه وزن الله الأعمالَ، وهو العالم بمقاديرها قبل كونها»: وزن ذلك، نظيرُ إثباته إياه في أمِّ الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب، من غير حاجة به إليه، ومن غير خوف من نسيانه، وهو العالم بكل ذلك في كل حال ووقت قبل كونه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجة على خلقه، كما قال جل ثناؤه في تنزيله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [سورة الجاثية: ٢٨-٢٩] الآية. فكذلك وزنه تعالى أعمال خلقه بالميزان، حجة عليهم ولهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، ومن خفت موازين حسناته وذلك لعدم توحيده وإيمانه، وقلة ما عمل من خيرٍ وصلاح فأولئك الذين غبنوا أنفسهم وأنقصوها حقوقها وضيعوها وذلك بجحودهم آيات الله المنزلة على رسول الله ﷺ وتكذيبهم لها.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، ولقد جعلناكم مُمكنين في الأرض تسكنونها وتتخذون

منها أماكن لمعيشتكم وتستقرون فيها وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة من طعام وشراب ومسكن وملبس ومع ذلك كله فشكركم قليل، وقليل منكم من يشكر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عَبِيدِهِ فِيمَا مَكَّنَ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَبُيُوتًا، وَأَبَاحَ مَنَافِعَهَا، وَسَخَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَايِشَ، أَيْ: مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَتَّجِرُونَ فِيهَا، وَيَتَسَبَّبُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْبَابِ، وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ) [إِبْرَاهِيمَ: ٣٤].

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ ﴾ الآية، لم يبين هنا كيفية هذه المعايش التي جعل لنا في الأرض، ولكنه بين ذلك في مواضع أُخر كقوله: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٧]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤]، وذكر كثيرًا من ذلك في سورة النحل كقوله: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥] إلى غير ذلك من الآيات.

(٣٥) أحمر
أسود

قَالَ تَعَالَىٰ:

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ
فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا
تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن
طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ
١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ
لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ
خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ
١٧ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ
فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ
عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ
ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠
وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا
ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا
مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا
ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا
ظَلَمۡنَآ

أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣
قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ
وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا
تُخۡرَجُونَ ٢٥

الكلمة	معناها

﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾	الأذلاء– المُهانين.
﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾	أخرني- أمهلني– أجِّلني– لا تقبض روحي إلى يوم البعث – اتركني حيًّا.
﴿ٱلۡمُنظَرِينَ﴾	المُؤجلين– المؤخرين.
﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾	أضللتني– أهلكتني.
﴿لَأٓتِيَنَّهُم﴾	أجيئنهم– أحضر إليهم– أُوَسْوِسُ لهم.
﴿شَٰكِرِينَ﴾	مُوحدين– مُطيعين– حامدين– مُظهرين للشكر.
﴿مَذۡءُومًا﴾	مذمومًا– معيبًا– مطرودًا.
﴿مَّدۡحُورًا﴾	منفيًّا– مطرودًا– مُبعدًا– مُقْصًى.
﴿لِيُبۡدِيَ﴾	ليُظهر.
﴿مَا وُۥرِيَ﴾	ما غُطِّي– ما سُتِرَ.
﴿سَوۡءَٰتِهِمَا﴾	عورتيهما.
﴿مَلَكَيۡنِ﴾	من الملائكة.
﴿ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾	الذين لا يموتون– الماكثين فيها أبدًا.
﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾	حَلَفَ لهما.

الكلمة	معناها
﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾	فأوقعهما في الهلاك بزخرفٍ من القول وبباطل منه – جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة.
﴿بَدَتۡ﴾	ظهرت.
﴿وَطَفِقَا﴾	بدأ (في الفعل).
﴿يَخۡصِفَانِ﴾	يقطعان الورق ويُلزقانه ويضمانه بعضًا إلى بعض.
﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾	قرار تستقرون عليها– وقيل: القبور.

شيءٌ من قصة آدم عليه السلام مع إبليس

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أولها وأشهرها: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: ولقد خلقنا أباكم آدم عليه السلام، فخلق الوالد يُعتبر خلقًا للولد، كما قال تعالى في شأن بني إسرائيل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وهذا خطاب لبني إسرائيل الموجودين في زمن رسول الله ﷺ، ولم يؤخذ عليهم الميثاق، وإنما أُخذ على أجدادهم وكذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وإنما الذين أنجاهم الله هم الآباء.

أما قوله: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فالمراد على هذا القول تصوير آدم عليه السلام أيضًا، وذلك حتى يستقيم المعنى والترتيب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فيكون الترتيب مستقيمًا.

القول الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ المراد به آدم عليه السلام وقوله: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ المراد به ذريته حيث صورهم الله عز وجل وهم في صلبه، أو في ظهره.

القول الثالث: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: ذريته في أرحام النساء.

القول الرابع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ في أصلاب آبائكم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في بطون أمهاتكم. والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ)، ولقد خلقنا آدم (ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ)، بتصويرنا آدم، كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجلَ بالأفعال تضيفها إليه، والمعنيُّ في ذلك سلفه، وكما قال جل ثناؤه لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ) [البقرة: ٦٣] .

(٣٨) أحمر
أسود

وما أشبه ذلك من الخطاب الموجَّه إلى الحيّ الموجود، والمراد به السلف المعدوم، فكذلك ذلك في قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ)، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صوَّرناه.

وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن الذي يتلو ذلك قوله: (قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ)، ومعلوم أن الله ع قد أمر الملائكة بالسجود لآدم، قبل أن يصوِّر ذريته في بطون أمهاتهم، بل قبل أن يخلُق أمهاتهم.

و«ثم» في كلام العرب لا تأتي إلا بإيذان انقطاع ما بعدها عما قبلها، وذلك كقول القائل: «قمت ثم قعدت»، لا يكون «القعود» إذ عطف به بـ«ثم» على قوله: «قمت» إلا بعد القيام، وكذلك ذلك في جميع الكلام. ولو كان العطف في ذلك بالواو، جاز أن يكون الذي بعدها قد كان قبل الذي قبلها، وذلك كقول القائل: «قمت وقعدت»، فجائز أن يكون «القعود» في هذا الكلام قد كان قبل «القيام»، لأن الواو تدخل في الكلام إذا كانت عطفًا، لتوجب للذي بعدها من المعنى ما وجب للذي قبلها، من غير دلالة منها بنفسها على أن ذلك كان في وقت واحد أو وقتين مختلفين، أو إن كانا في وقتين، أيهما المتقدم وأيهما المتأخر.

فلما وصفنا قلنا إنّ قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ)، لا يصح تأويله إلا على ما ذكرنا. فإن ظن ظانّ أن العربَ، إذ كانت ربما نطقت بـ«ثم» في موضع «الواو» في ضرورة شعره، كما قال بعضهم:

سَأَلْتُ رَبِيعَةَ: مَنْ خَيْرُهَا   أَبًا ثُمَّ أُمًّا؟ فَقَالَتْ: لِمَهْ!

بمعنى: أبًا وأمًّا، فإن ذلك جائز أن يكون نظيره= فإن ذلك بخلاف ما ظن. وذلك أن كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذّ من لغاتها، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهومٌ ووجه معروف.

وقد وجَّه بعض من ضعفت معرفته بكلام العرب ذلك إلى أنه من المؤخر الذي معناه التقديم، وزعم أن معنى ذلك: ولقد خلقناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، ثم صورناكم. وذلك غير جائز في كلام العرب، لأنها لا تدخل «ثم» في الكلام وهي مرادٌ بها التقديم على ما قبلها من الخبر، وإن كانوا قد يقدِّمونها في الكلام، إذا كان فيه

دليل على أن معناها التأخير، وذلك كقولهم:«قام ثم عبد الله عمرو»، فأما إذا قيل:«قام عبد الله ثم قعد عمرو»، فغير جائز أن يكون قعود عمرو كان إلا بعد قيام عبد الله، إذا كان الخبر صدقًا.

فقول الله ع: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا)، نظير قول القائل:«قام عبد الله ثم قعد عمرو»، في أنه غير جائز أن يكون أمرُ الله الملائكةَ بالسجود لآدم كان إلا بعد الخلق والتصوير، لما وصفنا قبل.

س: هل إبليس من الملائكة أم من الجن؟

ج: نصُّ الكتاب العزيز أنه من الجن، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

۞ ثم من المعلوم أن الملائكة عليهم السلام خُلقوا من نور، وأن الجان خلق من مارج من نار.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] (١).

وقال النبي ﷺ: «وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ» (٢).

وقال إبليس عن نفسه ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾.

س: إذن، وما دام إبليس لم يكن من الملائكة فلماذا وجِّه إليه اللوم لما امتنع من السجود؟

ج: جواب ذلك، والله أعلم، أنه وإن لم يكن منهم إلا أن الأمر توجَّه إليه معهم، وذلك لقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فدلَّ ذلك على أنه أُمِرَ مع من أُمروا والله تعالى أعلم.

س: ما المانع الإبليس من السجود لآدم؟

ج: المانع له أمور:

---

(١) ولمزيد انظر تفسيرنا لسورة البقرة.

(٢) مسلم (٢٩٩٦).

أولها: الكبر والتعالي واعتقاد أنه أفضل، ولقد صرح بذلك في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾

الثاني: حسده لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثالث: قياسه الفاسد وذلك أنه اعتقد أن النار أفضل من الطين ومن ثَمَّ اعتقد في نفسه أنه خير من آدم وأخطأ في ذلك من وجوه، منها أن هذا قياس يُصادم النص، فقد أمره الله بالسجود فلا يقابل أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالأقيسة، فلا قياس مع النص.

ومنها: أنه اعتقد أن النار أفضل من الطين، وهذا ليس بمسلِّم له، بل قد ذهب عددٌ من أهل العلم إلى أن الطين أفضل من النار ومنها، وهب أن النار أفضل من الطين فماذا يغني الأصل الصالح عن الفرع الفاسد؟!

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: (أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ)، فإنه خبرٌ من الله جل ثناؤه عن جواب إبليس إياه إذ سأله: ما الذي منعه من السجود لآدم، فأحوجه إلى أن لا يسجد له، واضطره إلى خلافه أمرَه به، وتركه طاعته = أنّ المانعَ كان له من السجود، والداعيَ له إلى خلافه أمر ربه في ذلك: أنه أشد منه أيْدًا، وأقوى منه قوة، وأفضل منه فضلا لفضل الجنس الذي منه خلق، وهو النارُ، على الذي خلق منه آدم، وهو الطين. فجهل عدوّ الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب. إذ كان معلومًا أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حملَ الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق، على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطبَ والهلاكَ. وكان معلومًا أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبُّت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق، إلى التوبة من خطيئته، ومسألته ربَّه العفوَ عنه والمغفرة. ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان:«أول مَنْ قاسَ إبليس»، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله، وبعده من إصابة الحق، في الفضل الذي خص الله به آدم على سائر خلقه: من خلقه إياه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماء كلِّ شيء، مع سائر ما خصه به من كرامته. فضرب عن ذلك كلِّه الجاهلُ

صفحًا، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خُلق من نار وخلق آدم من طين!! وهو في ذلك أيضًا له غير كفء، لو لم يكن لآدم من الله جل ذكره تكرمة شيء غيره، فكيف والذي خصّ به من كرامته يكثر تعداده، ويملّ إحصاؤه؟.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَإِنَّ الطِّينَ أَفْضَلُ مِنَ النَّارِ مِنْ وُجُوهٍ أَرْبَعَةٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مِنْ جَوْهَرِ الطِّينِ الرَّزَانَةَ وَالسُّكُونَ، وَالْوَقَارَ وَالْأَنَاةَ، وَالْحِلْمَ، وَالْحَيَاءَ، وَالصَّبْرَ.

وَذَلِكَ هُوَ الدَّاعِي لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ السَّعَادَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالتَّوَاضُعِ وَالتَّضَرُّعِ، فَأَوْرَثَهُ الْمَغْفِرَةَ وَالِاجْتِبَاءَ وَالْهِدَايَةَ.

وَمِنْ جَوْهَرِ النَّارِ الْخِفَّةُ، وَالطَّيْشُ، وَالْحِدَّةُ، وَالِارْتِفَاعُ، وَالِاضْطِرَابُ.

وَذَلِكَ هُوَ الدَّاعِي لِإِبْلِيسَ بَعْدَ الشَّقَاوَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إِلَى الِاسْتِكْبَارِ وَالْإِصْرَارِ، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء، قال الْقَفَّالُ.

الثَّانِي: أَنَّ الْخَبَرَ نَاطِقٌ بِأَنَّ تُرَابَ الْجَنَّةِ مِسْكٌ أَذْفَرُ، وَلَمْ يَنْطِقِ الْخَبَرُ بِأَنَّ فِي الْجَنَّةِ نَارًا وَأَنَّ فِي النَّارِ تُرَابًا.

الثَّالِثُ: أَنَّ النَّارَ سَبَبُ الْعَذَابِ، وَهِيَ عَذَابُ اللهِ لِأَعْدَائِهِ، وَلَيْسَ التُّرَابُ سَبَبًا لِلْعَذَابِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ الطِّينَ مُسْتَغْنٍ عَنِ النَّارِ، وَالنَّارَ مُحْتَاجَةٌ إلى المكان ومكانها التراب.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾

ج: المعنى، والله أعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ طرد إبليس من الجنة قائلًا له فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، أي أن الجنة لا يسكنها مستكبرٌ عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، إنما يسكنها المتواضعون الممتثلون أمر الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم إن الله عَزَّ وَجَلَّ أهانه بقوله، وقد طرده شر طردةٍ فاخرج منها فإنك من الصاغرين أي من الأذلاء الحقيرين.

بعض عواقب الكبر

س: اذكر بعض العواقب السيئة للكِبر؟

ج: أوردها موجزة فيما ذكره الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان» إذ قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك؛ وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

وبين في مواضع أخر كثيرًا من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر - أعاذنا الله والمسلمين منه - فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله، والاهتداء بها كما في قوله تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]

ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى كما في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به ولا يستعاذ إلا مما هو شر، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] إلى غير ذلك من نتائجه السيئة، وعواقبه الوخيمة، ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله جل وعلا يرفعه الله.

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخر كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»، وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه إلى صفحات الجو وهو وضيع

وقال أبو الطيب المتنبي:

ولـو لـم يعـل إلا ذو محـل تعـال الجـيش وانحـط القتـام

المعاصي سبب لزوال النعم

س: المعاصي سبب لزوال النعم اذكر من الآية دليلًا عل ذلك مع ذكر بعض الأدلة الأخرى؟

ج: وجه ذلك أن الله ﷻ طرد إبليس من الجنة بسبب عصيانه وامتناعه عن طاعة الله ﷻ إذ أمره بالسجود لآدم.

ومن الاستدلالات أيضًا على أن المعاصي سبب لزوال النعم إخراج آدم عليه السلام من الجنة بسبب أكلهما من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها.

ومنها ما حل بقوم نوح وبقوم هود بقوم صالح وبقوم سبأٍ، وكذلك بفرعون وهامان وقارون وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغير هؤلاء الكثير.

س: من قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ما يُفيد أن الجزاء من جنس العمل، و ضح ذلك؟

ج: إيضاحه أن إبليس لما استكبر وتعالى عن السجود لآدم جعله الله من الصاغرين والأذلاء الحقيرين.

فلما أراد الكِبر عوقب بنقيض مراده فجعل من الصاغرين. والله أعلم.

س: من الذين عناهم إبليس بقوله: ﴿يُبْعَثُونَ﴾.

ج: قيل المراد آدم وزوجته وذريته، وقيل عموم الخلائق.

س: أي وقت أُنظر إبليس؟

ج: فُسِّر ذلك بما في آية سورة الحجر إذ الله قال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨٠، ٨١].

س: هل هناك من أُنظر غير إبليس؟ ومن هم؟

ج: نعم هناك من أُنظر غير إبليس، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾، وهم الذين تقوم عليهم الساعة والله أعلم.

هذا، وقد طرح الطبري مثل هذا السؤال على نفسه وأجاب عليه فقال: فإن قال قائل: فهل أحَدٌ مُنْظَرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له:«إنك منهم»؟

قيل: نعم، مَنْ لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بآجالهم إليه. ولذلك قيل لإبليس: (إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ)، بمعنى: إنك ممن لا يميته الله إلا ذلك اليوم.

س: وضح معنى قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾.

ج: قيل فيه ما يلي:

- كما أضللتني وأهلكتني، أي كما أهلكتني لأهلكنهم.
- فبإضلالك لي وإهلاكك لي.
- قيل الباء بمعنى اللام فيكون المعنى فلإغوائك إياي.

س: في قول إبليس لعنه الله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ ردٌّ على القدرية وضح ذلك؟

ج: إيضاحه أن القدرية يقولون ما حاصله إن الإنسان هو الذي يُغوي نفسه، ويهدي نفسه، وليس لربِّه تدخل في شئونه.

وهذا خطأ بلا شكٍ فإننا في كل صلاة نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، ولو كانت هدايتنا بأيدينا فِلم نسأل ربنا الهداية؟!

وقول إبليس ها هنا: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ يُفيد أنه علم أن الغويَّ من أغواه الله ﷻ.

قال القرطبي في تفسيره:

مذهب أهل السنة أي أن الله تعالى أضلّه وخلق فيه الكفر؛ ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى، وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى.

وَخَالَفَ الْإِمَامِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا شَيْخَهُمْ إِبْلِيسَ الَّذِي طَاوَعُوهُ فِي كُلِّ مَا زَيَّنَهُ

لَهُمْ، وَلَمْ يُطَاوِعُوهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَيَقُولُونَ: أَخْطَأَ إِبْلِيسُ، وَهُوَ أَهْلٌ لِلْخَطَأِ حَيْثُ نَسَبَ الْغَوَايَةَ إِلَى رَبِّهِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: وَإِبْلِيسُ وَإِنْ كَانَ أَهْلًا لِلْخَطَأِ فَمَا تَصْنَعُونَ فِي نَبِيٍّ مُكَرَّمٍ مَعْصُومٍ، وهو ونوح عليه السلام حَيْثُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ طَاوُسًا جَاءَهُ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَكَانَ مُتَّهَمًا بِالْقَدَرِ، وَكَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْكِبَارِ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ طَاوُس: تَقُومُ أَوْ تُقَامُ؟ فَقِيلَ لِطَاوُس: تَقُولُ هَذَا لِرَجُلٍ فَقِيهٍ! فَقَالَ: إِبْلِيسُ أَفْقَهُ مِنْهُ، يَقُولُ إِبْلِيس: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي. وَيَقُولُ هَذَا: أَنَا أَغْوِي نَفْسِي.

س: وضح معنى قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، لأقعدن للعُبَّاد على طريق الحق والاستقامة والإسلام أصرفهم عنها وأزهدهم فيها وفي سلوكها وأصدهم عنها، وأزين لهم الباطل حتى يهلكوا كما هلكت ويضلوا كما ضللت، ويخيبوا كما خبتُ.

وفي هذا الصدد ورد حديث عن رسول الله ﷺ الإسناد، ومنه [(١)] من حديث سبرة بن أبي فاكه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**».

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٦/٢١-٢٢).

س: وضح المراد بقوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ).

ج: أما قوله ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: أن قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني به أُشككهم فيما هم مقبلون عليه من أمر البعث والجزاء والثواب والعقاب، فلأشككنهم في ذلك، وأوسوس إليهم بأن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار.

۞ وقوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أشككهم في الأخبار التي نقلت لهم عن سلفهم من الأمم الماضية التي أهلكتها أو أكرمتها ولأحلمنهم على تكذيب تلك الأخبار.

الثاني: أن قوله: (مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ) يعني به الدنيا أحببهم فيها وأرغبهم في طلبها، (وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ) يعني الآخرة أشككهم فيها وأصرفهم عن العمل لها.

أما قوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ ففيه أيضًا أقوال:

أحدها: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ يعني: من قِبل الحق أُلبسه عليهم وأزهدهم فيه وأُنفرهم عنه. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ يعني: من قبل الباطل أزينه لهم وأحببهم فيه وأرغبهم في عمله وسلوكه.

الثاني: أن ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ يعني: من قبل الحسنات أحملهم على تركها وأشغلهم عنها. (وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ) يعني المعاصي أزينها لهم.

الثالث: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي من ناحية دينهم أُلبس عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أزين لهم المعاصي.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: ثم لآتينهم من جميع وجوه الحقّ والباطل، فأصدّهم عن الحق، وأحسِّن لهم الباطل.

وذلك أن ذلك عَقِيب قوله: (لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ)، فاخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرَهم الله أن يسلكوه، وهو ما وصفنا من دين الله دينِ الحق، فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، من الوجه الذي أمرهم الله به، فيصدّهم عنه، وذلك (مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ) ومن الوجه الذي نهاهم الله عنه، فيزيّنه لهم ويدعوهم إليه، وذلك (وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ).

وقيل: ولم يقل: «من فوقهم»، لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم.
وهذا الذي قاله ابن جرير حسنٌ، ولذا فقد وردت الاستعاذة من الشيطان وتسلطه من الجهات المذكورة وغيرها ففي الحديث: «اللهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي».

س: وضح معنى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.
ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:
وأما قوله: (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ). فإنه يقول: ولا تجد، ربِّ، أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتَك التي أنعمت عليهم، كتكرمتك أباهم آدم بما أكرمته به، من إسجادك له ملائكتك، وتفضيلك إياه عليَّ = و«شكرهم إياه»، طاعتهم له بالإقرار بتوحيده، واتّباع أمره ونهيه.

س: اذكر بعض الأدلة على قلة أهل الإيمان وقلة الشاكرين؟
ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:
قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].
قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].
قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ﴾ [ص: ٢٤].
قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠] مع قول إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾.
وثَمَّ آيات وأحاديث أُخر تأتي في محلها إن شاء الله.

س: قال إبليس ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ وذلك ظنًّا منه وتوهمًا فهل تحقق ظنه هذا في بني آدم؟
ج: يبدو ذلك، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ج: قال الطبري خ:

وهذا قسم من الله جل ثناؤه. أقسم أن مَنْ اتبع من بني آدم عدوَّ الله إبليس وأطاعه وصَدَّق ظنه عليه، أن يملأ من جميعهم = يعني: من كفرة بني آدم تُبّاع إبليس، ومن إبليس وذريته = جهنم.

فرحم الله امرأً كذّب ظن عدوِّ الله في نفسه، وخيَّب فيها أمله وأمنيته، ولم يمكّن من طمعَ طمعٍ فيها عدوَّه، واستغشَّه ولم يستنصحه، فإن الله تعالى ذكره إنما نبّه بهذه الآيات عباده على قِدَم عداوة عدوِّه وعدوهم إبليس لهم، وسالف ما سلف من حسده لأبيهم، وبغيه عليه وعليهم، وعرّفهم مواقع نعمه عليهم قديمًا في أنفسهم ووالدهم ليدّبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب، فينزجروا عن طاعة عدوه وعدوهم إلى طاعته ويُنيبوا إليها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥]

س: لماذا لم يقل: (وزوجتك) بدلًا من قوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾.

ج: ذلك، والله أعلم؛ لأن الأفصح (زوجك)، ومن ثَمَّ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وإن كانت كلمة الزوجة (بإثبات التاء) ليست بمدفوعة عن الصحة، ولكن الأولى أفصح، والله أعلم.

أما عن اسم زوجته، فزوجته هو حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ.

س: ما الشجرة التي نهى آدم وزوجه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عن الأكل منها؟

ج: لم يذكر اسمها في كتاب ﷻ ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولم ينعقد إجماعٌ

على تسميتها فمن ثَمَّ فلا نقطع في اسمها بشيء، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ثم إن الجهل باسمها غير ضارٍّ، ولو كان في تسميتها نفعٌ لبيَّنه الله ﷻ لنا والله أعلم.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

ج: معنى ذلك، والله تعالى أعلم، أن الله ﷻ بعد أن أنعم على آدم عليه السلام بأن خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه وعلَّمه أسماء كل شيءٍ، وأكرمه بسجود الملائكة له، تفضَّل عليه وعلى زوجته أيضًا بأن أسكنهما جنته يتنعمان فيها كيف شاءا، ويأكلان من حيث أرادا، وكما قال أيضًا: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، ولكنه سبحانه اختبرهما وابتلاهما بشجرةٍ معينة، ونهاهما عن الاقتراب منها والأكل منها، وحذرهما من إبليس اللعين بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

وفي هذه الآية الكريمة يقول تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فأسكنهما الله ﷻ الجنة، وأباح لهما الأكل منها بقوله: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ونهاهما عن شجرة بعينها فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ وحذرهما من مغبة ذلك إذا هما أكلا من الشجرة بقوله: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: من الذين بخسوا أنفسهم حقوقها وذلك بعصيانها أمر ربها، ومن ثَمَّ إحلال العقوبة بها.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقال الله لآدم: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ فأسكن جل ثناؤه آدم وزوجته الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه منها، وأباح لهما أن يأكلا من ثمارها من أيِّ مكان شاءا منها، ونهاهما أن يقربا ثمر شجرة بعينها.

س: بماذا كانت هذه الوسوسة التي وسوس الشيطان بها إلى آدم وزوجته؟

ج: تلك الوسوسة وضحت في الآية الكريمة ألا وهي قوله: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ

هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- أن إبليس ألقى في نفس آدم وحواء عليهما السلام القول بأن الله ﷻ ما نهاهما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لحجبهما عن أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين وأقسم لهما على ذلك، ومن ثَمَّ شجعهما عن الأكل منها كي يكشف عنهما الستر الذي سترهما الله به، وستر به عورتيهما.

۞ أي أنه وسوس لهما كي يعصيان، ومن ثم يعاقبان بكشف الستر الذي سترهما الله به.

أما هذا الستر الذي سترهما الله به فمن العلماء من قال كان عليهما نُور لا تُرى سوءاتهما معه.

س: وضح معنى قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم أن الشيطان غرَّر بآدم وحواء قائلًا ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لئلا تكونا ملكين من الملائكة أو من الخالدين الذين لا يموتون أبدًا بل يحيون على الدوام.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَمَ عليه السلام وَلِزَوْجَتِهِ حَوَّاءَ الْجَنَّةَ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيعِ ثِمَارِهَا إِلَّا شَجَرَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة، ليسلبهما مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاللِّبَاسِ الْحَسَنِ (وَقَالَ) كَذِبًا وَافْتِرَاءً (مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ) أَيْ لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ خَالِدَيْنِ ها هنا، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلَ لَكُمَا ذَلِكُمَا، كَقَوْلِهِ (قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ) [طه: ١٢٠].

س: قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾ بمعنى: إلا أن لا تكونا ملكين، وأسقطت اللام لدلالة السياق عليها، فهل لذلك من شواهد أُخر من كتاب الله ﷻ؟

ج: نعم هنالك شواهد أُخر، منها:

قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦].

قال عدد من العلماء: معناها يبين الله لكم لئلا تضلوا.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥] فالمعنى (لئلا تميد بكم).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم أن إبليس أقسم بالله عزَّ وجل لآدم وحواء إنه لناصح لهما؛ وكما هو معلوم فإن إبليس أكذب الكاذبين.

هذا وقد قال الطبري رحمه الله:

وقوله:(إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ) أي: لممن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي نهيتما عن أكل ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إن أكلتماه كنتما ملكين أو كنتما من الخالدين، وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أُرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خُدِعْنا».

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– أن الشيطان قرَّب آدم وحواء عليهما السلام من المعصية بباطلة وكلامه المزخرف المُزين، وما زال يُقربهما من المعصية ويُمنيهما بالمُلك الذي لا يبلى، إلى أن أوقعهما في المعصية فأكلا من الشجرة فحينئذ انكشف ما كان

على السوءات من الستر الذي يسترها وظهرت لهما عورتهما فشرع آدم وحواء عليهما السلام يأخذان أوراقًا من أوراق الجنة ويضمان بعضها إلى بعضس كي يسترا العورات التي كَشفت.

ولقد قيل إنهما تسترا بورقٍ من شجرة التين، ولم يرد في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ.

قال الطبري رحمه الله:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، فخدعهما بغرور.

يقال منه: «ما زال فلان يدلّي فلانًا بغرور»، بمعنى: ما زال يخدعه بغرور، ويكلمه بزخرف من القول باطل.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، يقول: فلما ذاق آدم وحواء ثمر الشجرة، يقول: طعماه ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، يقول: انكشفت لهما سوءاتهما، لأن الله أعراهما من الكسوة التي كان كساهما قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطآ والمعصية التي ركبا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، يقول: أقبلا وجعلا يشدَّان عليهما من ورق الجنة، ليواريا سوءاتهما.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أنه، وبعد أن أكل آدم وزوجته حواء من الشجرة، وذلك بإغواء إبليس اللعين لهما بالأكل منها ناداهما ربهما ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشجرة وأخبرتكما وأعلمتكما أن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة قد أبان عن عدواته لكما، وذلك بترك السجود لآدم وحسده لآدم؟!!

س: وضح معنى قول آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية؟

ج: قال الطبري في معناها:

ومعنى قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، قال آدم وحواء لربهما: يا ربنا، فعلنا

بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك، وبطاعتنا عدوَّنا وعدوَّك فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه، من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها، ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا﴾، يقول: وإن لم تستر علينا ذنبنا فتغطية علينا، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه، ﴿وَتَرۡحَمۡنَا﴾، بتعطفك علينا، وتركك أخذنا به، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، يعني: لنكونن من الهالكين.

س: لمن وجِّه الخطاب في قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾.

ج: ظاهر الخطاب أنه موجهٌ لآدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وكذا مُوجه لإبليس؟

إلا أن كثيرًا من أهل العلم قال والحيَّةُ كذلك قالوا، وذلك لأن الشيطان كان قد دخل فيها وتسلل إلى الجنة، وكانت من أحسن الدواب فمسخت وأصبحت على منظرها الموجود الآن.

قلت (مصطفى): ولم أقف لذلك على خبرٍ صحيح عن رسول الله ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبرَ آدم وحواءَ وإبليس والحية، إذ أهبطوا إلى الأرض: أنهم عدوٌّ بعضهم لبعض، وأن لهم فيها مستقرًّا يستقرون فيه، ولم يخصصها بأن لهم فيها مستقرًّا في حال حياتهم دون حال موتهم، بل عمَّ الخبرَ عنها بأن لهم فيها مستقرًّا، فذلك على عمومه، كما عمّ خبرُ الله، ولهم فيها مستقر في حياتهم على ظهرها، وبعد وفاتهم في بطنها، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ آدَمُ، وَحَوَّاءُ، وَإِبْلِيسُ، وَالْحَيَّةُ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرِ الْحَيَّةَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالْعُمْدَةُ فِي الْعَدَاوَةِ آدَمُ وَإِبْلِيسُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ «طه» قَالَ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ الآية، وَحَوَّاءُ تَبَعٌ لِآدَمَ. وَالْحَيَّةُ -إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا- فَهِيَ تَبَعٌ لِإِبْلِيسَ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ الْأَمَاكِنَ الَّتِي هَبَطَ فِيهَا كُلٌّ مِنْهُمْ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ إِلَى الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا. وَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الْبِقَاعِ فَائِدَةٌ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ، أَوْ دُنْيَاهُمْ، لَذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَوْ رَسُولُهُ ﷺ في سننه.

قلت (مصطفى): وقد قال النبي ﷺ في شأن الحيات ما سالمناهن منذ حاربناهن، وذلك في حديث أبي داود[(١)] بسندس حسن.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، يا بني آدم، ويا من أهبطتم من الجنة لكم في الأرض قرارٌ تستقرون فيه، ومتاعٌ تستمتعون به إلى وقت معلوم،وهو انقضاء دنياكم فالمستقر هو المكان الذي يُستقر فيه وهو الأرض، وقيل القبر، والحين المراد به الوقت، ولكنه وقت معلوم، وهو -هنا- انقضاء الحياة الدنيا.

س: قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ في ماذا؟ وضح معنى الآية الكريمة؟

ج: المراد والله أعلم، في الأرض تعيشون.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلُهُ: (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَجْعَلُ الْأَرْضَ دَارًا لِبَنِي آدَمَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِيهَا مَحْيَاهُمْ وَفِيهَا مَمَاتُهُمْ وَقُبُورُهُمْ، وَمِنْهَا نُشُورُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: قال الله للذين أهبطهم من سمواته إلى أرضه: (فِيهَا تَحْيَوْنَ)، يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونون فيها أيام حياتكم (وَفِيهَا تَمُوتُونَ)، يقول في الأرض تكون وفاتكم، (وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)، يقول: ومن الأرض يخرجكم ربكم

---

(١) أبو داود (٥٢٤٨).

(٥٥) أحمر
أسود

ويحشركم إليه لبعث القيامة أحياء.

قال تعالى:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ
وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ
٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ
ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ
وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا
وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى
ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ
عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ
تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ
ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم
مُّهۡتَدُونَ ٣٠

الكلمة	معناها
﴿يُوَٰرِي﴾	يُغطي.
﴿سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾	عوراتكم (سميت العورة سوأة؛ لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده).
﴿وَرِيشٗا﴾	ما يُتجمل به من الثياب ما يُتريش به من المال والمتاع.
﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾	ما يكتسى به من الإيمان والحياء والعمل الصالح والسمت الصالح وخشية الله.
﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾	لا يصرفنكم (عن الطاعة إلى المعصية)- لا يختبرنكم.

الكلمة	معناها

﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾	نسلُهُ – جُنوده (الجن والشياطين).
﴿أَوْلِيَآءَ﴾	أنصارًا – أصدقاء.
﴿فَٰحِشَةً﴾	قبيحة من القبائح.
﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾	القبائح.
﴿بِٱلْقِسْطِ﴾	العدل.
﴿وَٱدْعُوهُ﴾	اعبدوه – اسألوه.
﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾	مخلصين له العمل (تعملون لوجهه سبحانه وتعالى).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾.

ج: يمتنُّ الله ﷻ على عباده فيقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ تلبسونه فـ ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ أي يغطي عوراتكم ويسترها عن أعين الآخرين من النظر إليها وكذلك أنزلنا إليكم ريشًا تتجملون به، والريش هو الثياب الظاهرة التي يتجمل بها، وقيل الريش المال ورفاهية العيش، فاشكروا نعمة الله عليكم واستروا عوراتكم وتمتعوا بنعم الله عليكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرَّون للطواف، اتباعًا منهم أمرَ الشيطان، وتركًا منهم طاعةَ الله، فعرفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر الله الذي أنعمَ به عليهم، حتى أبدى سوءاتهم وأظهرها من بعضهم لبعض، مع تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلاهما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سوءاتهما فعرّاهما منه: (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا)، يعني بإنزاله عليهم ذلك، خلقَه لهم، ورزقه إياهم = و«اللباس» ما يلبسون من الثياب (يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ)، يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم وكنى بـ«السوءات»، عن العورات.

(والسوءات) واحدتها«سوءة»، وهي«فعلة» من«السوء»، وإنما سميت«سوءة»،

لأنه يسوء صاحبها انكشافُها من جسده، كما قال الشاعر:

خَرَقُــــوا جَيْـــــبَ فَتَــــاتِهِمُ   لَــمْ يُبَــالُوا سَـــوْءَةَ الرَّجُلَــهْ

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَمْتَنُّ ع عَلَى عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللباس والريش فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات -وهي السوآت وَالرِّيَاشُ وَالرِّيشُ: هُوَ مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ ظَاهِرًا، فَالْأَوَّلُ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ، وَالرِّيشُ مِنَ التَّكَمُّلَاتِ وَالزِّيَادَاتِ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ قال كثير من العلماء: هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة؛ لأنه قال: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾.

وقال قوم إنه ليس فيها دليل على ما ذكروه، بل فيها دلالة على الإنعام فقط.

قلت: القول الأوّل أصح.

وَمِنْ جُمْلَةِ الْإِنْعَامِ سَتْرُ الْعَوْرَةِ، فَبَيَّنَ أَنَّهُ (▌) جَعَلَ لِذُرِّيَّتِهِ مَا يَسْتُرُونَ بِهِ عَوْرَاتِهِمْ، وَدَلَّ عَلَى الْأَمْرِ بِالسَّتْرِ.

وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي وُجُوبِ سَتْرِ الْعَوْرَةِ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ.

وَاخْتَلَفُوا فِي الْعَوْرَةِ مَا هِيَ؟ فَقَالَ ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ: هِيَ مِنَ الرَّجُلِ الْفَرْجُ نَفْسُهُ، الْقُبُلُ وَالدُّبُرُ دُونَ غَيْرِهِمَا.

وَهُوَ قَوْلُ دَاوُدَ وَأَهْلِ الظَّاهِرِ وَابْنِ أَبِي عَبْلَةَ وَالطَّبَرِيِّ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ)، (بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا) [الأعراف: ٢٢]، (لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ) [الأعراف: ٢٧].

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ: «فَأَجْرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي زُقَاقِ خَيْبَرَ- وَفِيهِ- ثُمَّ حَسَرَ الْإِزَارُ عَنْ فَخِذِهِ حَتَّى إِنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ فَخِذِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ».

وَقَالَ مَالِكٌ: السُّرَّةُ لَيْسَتْ بِعَوْرَةٍ، وَأَكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَكْشِفَ فَخِذَهُ بِحَضْرَةِ زَوْجَتِهِ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الرُّكْبَةُ عَوْرَةٌ. وَهُوَ قَوْلُ عَطَاءٍ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَيْسَتِ السُّرَّةُ وَلَا الرُّكْبَتَانِ مِنَ الْعَوْرَةِ عَلَى الصَّحِيحِ.

وَحَكَى أَبُو حَامِدٍ التِّرْمِذِيُّ أَنَّ لِلشَّافِعِيِّ فِي السُّرَّةِ قَوْلَيْنِ.

وَحُجَّةُ مَالِكٍ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِجَرْهَدٍ: (غَطِّ فَخِذَكَ فَإِنَّ الْفَخِذَ عَوْرَةٌ). خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ

تَعْلِيقًا وَقَالَ: حَدِيثُ أَنَسٍ أَسْنَدُ، وَحَدِيثُ جَرْهَدٍ أَحْوَطُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ اخْتِلافِهِم.
وحديث جرهد هذا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ.

وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَبَّلَ سُرَّةَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَقَالَ: أُقَبِّلُ مِنْكَ مَا كَانَ رسول الله صلى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ مِنْكَ.

فَلَوْ كَانَتِ السُّرَّةُ عَوْرَةً مَا قَبَّلَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَا مَكَّنَهُ الْحَسَنُ مِنْهَا. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ فَعَوْرَةٌ كُلُّهَا إِلَّا الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ. عَلَى هَذَا أَكْثَرُ أَهْلِ العلم.

س: كيف كان هذا الإنزال المذكور في قوله تعالى ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا) يَعْنِي الْمَطَرَ الَّذِي يُنْبِتُ الْقُطْنَ وَالْكَتَّانَ، وَيُقِيمُ الْبَهَائِمَ الَّذِي مِنْهَا الْأَصْوَافُ وَالْأَوْبَارُ وَالْأَشْعَارُ، فَهُوَ مَجَازٌ مِثْلُ: (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ) [الزمر: ٦].

وَقِيلَ: هَذَا الْإِنْزَالُ إنزال شي اللِّبَاسِ مَعَ آدَمَ وَحَوَّاءَ، لِيَكُونَ مِثَالًا لِغَيْرِهِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: (أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ) خَلَقْنَا لَكُمْ، كَقَوْلِهِ: (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ) أَيْ خَلَقَ. عَلَى مَا يَأْتِي.

وَقِيلَ: أَلْهَمْنَاكُمْ كَيْفِيَّةَ صَنْعَتِهِ.

س: في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قراءتان وضِّحهما.

ج: القراءة الأولى في قوله تعالى: (ولباس) بالضم، ضم السين (لباسُ) والثانية بفتحها (ولباسَ).

المُراد بلباس التقوى

س: ما المراد بلباس التقوى؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: المراد بلباس التقوى: الإيمان. الثاني: أنه الحياء.

الثالث: أنه خشية الله ﷻ. الرابع: أنه العمل الصالح.

الخامس: أنه السمت الحسن. السادس: أنه ستر العورة.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

ج: المراد –الله تعالى أعلم– على قراءة من قرأ برفع لباس– وهناك يا بني آدم لباسُ التقوى الذي علمتوه فاكتسوا به وكونوا أتقياء فلباس التقوى خيرٌ لكم من لباس الدنيا وخيرٌ الريش الذي تتزينون به!

أي أن لزوم قلوبكم لتقوى الله ﷻ وخشيتكم من الله ﷻ وحياؤكم منه وأعمالكم الصالحة التي منشؤها تقوى الله خيرٌ لكم من مجرد الكسوة الظاهرية والزينة الظاهرة هذا، وليُعلم أن من تقوى الله ﷻ ومن خشيته ومن الحياء منه ستر العورات، فإن ستر العورات من العمل الصالح بلا شكٍ وبلا ريب.

۞ وعلى هذا التأويل تكون في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى ما قد تكرر مرارًا في كتاب الله ﷻ من التذكير بالآخرة والعمل لها، فكثيرًا ما تُذكر المباحات في الدنيا ثم تُعقَّب بذكر زاد الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ أي: يا أيها الحجيج لأسفاركم ولحجكم ثم أُشير إلى زاد الآخرة بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي تزودوا أيضًا بخير زادٍ لآخرتكم، وهو زاد التقوى.

۞ وكما قال الله ع: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩]

أي وكما خلقنا الخيل والبغال والحمير لتركبوها وتتزينوا بركوبها وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس، فكما أننا يسرنا لكم ذلك وذللنا لكم تلك، فكذلك علينا بيان الطرق الموصلة إلى جنة الله ﷻ وإلى مرضاته، فثمَّ سُبلٌ جائزةٌ

حائدة لا توصل إلى جنة الله ولا إلى مرضاته[(١)].

۞ هذا، وثمَّ أمثلةٌ كثيرة في هذا الصدد.

أما عن بعض أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة (على قراءة الرفع لباسُ).

فقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتأويل الكلام = إذا رفع «لباس التقوى» =: ولباس التقوى ذلك الذي قد علمتموه، خير لكم يا بني آدم، من لباس الثياب التي تواري سوءاتكم، ومن الرياش التي أنزلناها إليكم، هكذا فالبَسوه.

أما تأويل الآية على قراءة من قرأ بالنصب، نصب (لباس) فهو والله أعلم قد أنزلنا لباس التقوى، وبيناه وعلمناكم إياه فالزموه أيضًا واكتسوا به.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما تأويل مَنْ قرأه نصبًا، فإنه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، هذا الذي أنزلنا عليكم من اللباس الذي يواري سوءاتكم، والريش، ولباس التقوى خير لكم من التعرِّي والتجرد من الثياب في طوافكم بالبيت، فاتقوا الله والبسوا ما رزقكم الله من الرياش، ولا تطيعوا الشيطان بالتجرد والتعرِّي من الثياب، فإن ذلك سخرية منه بكم وخدعة، كما فعل بأبويكم آدم وحواء، فخدعهما حتى جرّدهما من لباس الله الذي كان ألبسهما بطاعتهما له، في أكل ما كان الله نهاهما عن أكله من ثمر الشجرة التي عصَياه بأكلها.

قال أبو جعفر: وهذه القراءة أولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، أعني نصب قوله: (وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ)، لصحة معناه في التأويل على ما بيّنت، وأن الله إنما ابتدأ الخبر عن إنزاله اللباس الذي يواري سوءاتنا والرياش، توبيخًا للمشركين الذين كانوا يتجرّدون في حال طوافهم بالبيت، ويأمرهم بأخذ ثيابهم والاستتار بها في كل حال، مع الإيمان به واتباع طاعته = ويعلمهم أن كلّ ذلك خير من كلّ ما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله، وتعرِّيهم، لا أنه أعلمهم أن بعض ما أنزل إليهم خيرٌ من بعض.

وما يدل على صحة ما قلنا في ذلك، الآيات التي بعد هذه الآية، وذلك قوله: (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا

(١) وسيأتي لذلك مزيدٌ إن شاء الله تعالى في تفسير سورة النحل.

﴿سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ وما بعد ذلك من الآيات إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فإنه جل ثناؤه يأمر في كل ذلك بأخذ الزينة من الثياب، واستعمال اللباس وترك التجرّد والتعرّي، وبالإيمان به، واتباع أمره والعمل بطاعته، وينهى عن الشرك به واتباع أمر الشيطان، مؤكدًا في كل ذلك ما قد أجمله في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، استشعار النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمتَ الحسن، لأن مَنْ اتقى الله كان به مؤمنًا، وبما أمره به عاملا ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومن أن يُرَى عند ما يكرهه من عباده مستحييًا. ومَنْ كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سَمْته وهَدْيه، ورُئِيَتْ عليه بهجة الإيمان ونوره.

وإنما قلنا: عنى بـ«لباس التقوى»، استشعارَ النفس والقلب ذلك = لأن «اللباس»، إنما هو ادِّراع ما يلبس، واجتياب ما يكتسى، أو تغطية بدنه أو بعضه به. فكل من ادَّرع شيئًا واجتابهُ حتى يُرَى عَيْنه أو أثرُه عليه، فهو له«لابس». ولذلك جعل جل ثناؤه الرجال للنساء لباسًا، وهن لهم لباسًا، وجعل الليل لعباده لباسًا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ذلك الإنعام الذي أنعمنا به عليكم من آيات الله ﷻ الدالة على أنه الخالق، لا خالق سواه، وكذا فإنها من حجج الله ﷻ على خلقه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ذلك الذي ذكرت لكم أنّي أنزلته إليكم، أيها الناس، من اللباس والرياش، من حجج الله وأدلته التي يعلم بها مَنْ كفر صحة توحيد الله، وخطأ ما هم عليه مقيمون من الضلالة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: جعلت ذلك لهم دليلا على ما وصفت، ليذكروا فيعتبروا وينيبوا إلى الحق وترك الباطل، رحمة مني بعبادي.

س: ما هذا اللباس الذي تسبب الشيطان في نزعه عن آدم وحواء عليهما السلام؟

ج: لم أقف على دليل يوضح ما هذا اللباس ومن أي شيءٍ كان لكنه كان لباسًا يواري السوءات ويستر العورات، ثمَّ إن من العلماء من قال كان هذا الثوب نورًا ستر العورات فلا ترى العورات منه.

وقال علماء آخرون كان أظفارًا (جمع أظفر كأظافرنا) قالوا وكانت تستر آدم وحواء فَنُزِعَتْ ولم يبق منها إلا هذا القدر الذي يغطي أطراف أصابعنا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى حذر عباده أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم آدم وحواء، وأن يجرِّدهم من لباس الله الذي أنزله إليهم، كما نزع عن أبويهم لباسهما.«اللباس» المطلق من الكلام بغير إضافة إلى شيء في متعارف الناس، وهو ما اجتابَ فيه اللابس من أنواع الكُسي، أو غطى بدنه أو بعضه.

وإذ كان ذلك كذلك، فالحق أن يقال: إن الذي أخبر الله عن آدم وحواء من لباسهما الذي نزعه عنهما الشيطان، هو بعض ما كانا يواريان به أبدانهما وعوْرَتهما.

وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفرًا= ويجوز أن يكون ذلك كان نورًا ويجوز أن يكون غير ذلك = ولا خبر عندنا بأيِّ ذلك تثبت به الحجة، فلا قول في ذلك أصوب من أن يقال كما قال جلّ ثناؤه:(يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا).

وأضاف جل ثناؤه إلى إبليس إخراجَ آدم وحواء من الجنة، ونزعَ ما كان عليهما من اللباس عنهما، وإن كان الله جل ثناؤه هو الفاعل ذلك بهما عقوبة على معصيتهما إياه، إذ كان الذي كان منهما في ذلك عن تسْنيةِ ذلك لهما بمكره وخداعه، فأضيف إليه أحيانًا بذلك المعنى، وإلى الله أحيانًا بفعله ذلك بهما.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾.

ج: المعنى الإجمالي، والله تعالى أعلم، يا بني آدم لا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ إلى معصيته فيؤول أمركم إلى أن تتبدل نعم الله عنكم وتتحول العافية

إلى كرب وبلاء كما قد حدث لأبيكم آدم ولأمكم حواء عليهما السلام فقد كانا مستورين في الجنة بجميل الستر وجميل اللباس فنزع إبليس عنهما ذلك بإغوائه لهما واختباره لهما، وصرفهما عن الطاعة إلى المعصية.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: يا بني آدم، لا يخدعنكم الشيطان فيبدي سوءاتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختباره لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء عند اختباره إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما، فأخرجهما بما سبَّب لهما من مكره وخدعه، من الجنة، ونزع عنهما ما كان ألبسهما من اللباس، ليريهما سوءاتهما بكشف عورتهما، وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترةً.

س: اذكر بعض الأدلة على وجوب ستر العورتن وقُبح كشفها؟

ج: من الأدلة على ذلك الآية الكريمة: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

وكذا قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾.

قال القرطبي رحمه الله:

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى قُبْحِ كَشْفِ الْعَوْرَةِ، وَأَنَّ اللهَ أَوْجَبَ عَلَيْهِمَا السَّتْرَ، وَلِذَلِكَ ابْتَدَرَا إِلَى سَتْرِهَا، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُؤْمَرَا بِذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا قِيلَ لَهُمَا: (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ). وَقَدْ حَكَى صَاحِبُ الْبَيَانِ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ لَزِمَهُ أَنْ يَسْتَتِرَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ سُتْرَةٌ ظَاهِرَةٌ يُمْكِنُهُ التَّسَتُّرُ بِهَا، كَمَا فَعَلَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم إن الشيطان وجنده وجماعته من الجن والشياطين يرونكم من حيث لا ترونهم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: (مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)، يقول: من حيث لا ترون أنتم، أيها الناس،

الشيطان وقبيله، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، يقول: جعلنا الشياطين نُصراء الكفار الذين لا يوحِّدون الله ولا يصدقون رسله.

س: هل يمكن أن يرى الإنسيُّ جنًّا[1]؟

ج: هناك من الأدلة ما يجوِّز ذلك، فمن ذلك ما يلي:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكلَّه رسول الله ﷺ بحفظ زكاة الفطر، وقد أخرجه البخاري معلقًا وفيه:

وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**مَا هِيَ**»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ

(١) البخاري (من الفتح: ٤/٤٨٧).

عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ».

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة(١) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: (رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ)، قَالَ رَوْحٌ: «فَرَدَّهُ خَاسِئًا».

وأخرج مسلم(٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ» ثُمَّ قَالَ «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ» ثَلاَثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلاَةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ، قَالَ: «إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ، جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله عز وجل، وزيادة منه في عقوبة الكافرين ونقمة منه عليهم سلَّط عليهم الشياطين تزيدهم ضلالًا وإغواءًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وكما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

س: ما المراد بالفاحشة المذكورة في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وضح معنى الآية الكريمة؟

ج: الفاحشة ها هنا هي طوافهم بالبيت عراةً، وهذا قول أكثر أهل العلم.

---

(١) البخاري (٤٦١) ومسلم.
(٢) مسلم (حديث ٥٤٢).

ومن العلماء من قال الفاحشة هي كفرهم بالله وشركهم به.

۞ أما عن معنى الآية، والله أعلم، فحاصله أن أهل الشرك كانوا يحتجون لتعريهم وطوافهم بالبيت عراةً بأنهم قد وجدوا آباءهم على هذا، ثم يكذبون على الله فيقولون والله أمرنا بهذا، أي بالطواف بالبيت عراة.

قال تعالى: (قل) لهؤلاء الكذبة على الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، إنما يأمر بكل معروف وجميل، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي أتنسبون إلى الله ﷻ ما لم يقله، وما ليس لكم به علم؟!!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام إذًا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء، قبيحًا من الفعل، وهو «الفاحشة»، وذلك تعرِّيهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعُذِلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستنّ بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه».

يقول الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: (قُلۡ)، يا محمد، لهم: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ)، يقول: لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساويها (أَتَقُولُونَ)، أيها الناس، (عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ)، يقول: أتروون على الله أنه أمركم بالتعرِّي والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟!

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قُلْتُ: كَانَتِ الْعَرَبُ -مَا عَدَا قُرَيْشًا- لَا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لَبِسُوهَا، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابٍ عَصَوُا اللهَ فِيهَا، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ -وَهُمُ الحُمْس- يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ، وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ فِيهِ، وَمِنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ثُمَّ يُلْقِيهِ فَلَا يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا، طَافَ عُرْيَانًا. وَرُبَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ فَتَطُوفُ عُرْيَانَةً، فَتَجْعَلُ عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا يَسْتُرُهُ بَعْضَ الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كله ... وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أحلّهُ

وَأَكْثَرُ مَا كَانَ النِّسَاءُ يَطُفْنَ عُرَاةً بِاللَّيْلِ، وَكَانَ هَذَا شَيْئًا قَدِ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، وَاتَّبَعُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِعْلَ آبَائِهِمْ مُسْتَنِدٌ إِلَى أَمْرٍ مِنَ اللهِ وَشَرْعٍ، فَأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ﴾ أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمَنِ ادَّعَى ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ فَاحِشَةٌ مُنْكَرَةٌ، وَاللهُ لَا يَأْمُرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أَيْ: أَتُسْنِدُونَ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَا تَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: واتجهوا بوجوهكم في صلاتكم في أي مسجدٍ كان إلى الكعبة.

الثاني: وأخلصوا في صلاتكم وعبادتكم لله عز وجل في أي مسجدٍ كنتم.

الثالث: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجدٍ فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أُصلي في مسجدي.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية، ما قاله الربيع: وهو أن القوم أُمِروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم، لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصًا، لا مُكاءً ولا تصدية.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأن الله إنما خاطب بهذه الآية قومًا من مشركي العرب، لم يكونوا أهل كنائس وبيع، وإنما كانت الكنائس والبِيَع لأهل الكتابين. فغير معقول أن يقال لمن لا يصلي في كنيسة ولا بيعة: «وجِّه وجهك إلى الكعبة في كنيسة أو بيعةٍ».

وأما قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، فإنه يقول: واعملوا لربكم مخلصين له الدين والطاعة، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيء مما تعملون له شريكًا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقولـه تعـالى: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ أي: بالعـدل والاسـتقامة ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ: أَمَـرَكُمْ بِالِاسْـتِقَامَةِ فِـي عِبَادَتِهِ فِي مَحَالِّهَا، وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجِزَاتِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَمَا جَاءُوا بِهِ عَنْهُ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَبِالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَقَبَّلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ: أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الشِّرْكِ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، واعبدوه مخلصين في عبادتكم لـه وفي عملكـم لـه وفي دعائكم له، ووحِّدوه لا تشركوا به شيئًا.

وقيل المراد بالعبادة الدعاء.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

﴿وَٱدۡعُوهُ ﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنه العبادة. والثاني: الدعاء.

وفي قوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ ﴾ قولان.

أحدهما: مُفْردين له العبادة. والثاني: موحِّدين غير مشركين.

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدهما: كما بدأكم تعودون أشقياء أو سعداء فقد كُتبت الشقاوة على بعضكم، وكُتبت السعادة على آخرين، فمن كانت الشقاوة كتبت عليه فسيعود إليها شقيًّا عياذًا بالله.

ومن كتبت له السعادة ختم له بها وبُعث عليها كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ ﴾.

وكما في الحديث: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»(١).

وفي رواية: «يَبْعَثُ كُلَّ عَبدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»(٢).

وقد صح عن مجاهد أنه قال: يبعث المسلم مُسلمًا والكافر كافرًا.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري(٣) من حديث علي ﵁ قال: كنا في جنازة فِي بَقِيع الْغَرْقَد فَأَتَانَا النَّبِي ﷺ فقعدَ وقعدنا حوله وَمَعَهُ مخصرة فنكس فَجعل ينكت بمخصرته ثمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُم من أحد مَا من نفس منفوسة إِلَّا كتب مَكَانهَا من الْجنَّة وَالنَّار وَإِلَّا قد كتب شقية أَو سعيدة**» فَقَالَ رجل: يَا رَسُولَ اللهِ أَفلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابنَا وَنَدع الْعَمَل فَمن كَانَ منا من أهل السَّعَادَة فسيصير إِلَى عمل أهل السَّعَادَة وَأما من كَانَ منا من أهل الشقاوة فسيصير إِلَى عمل أهل الشقاوة قَالَ: «**أما أهل السَّعَادَة فييسرون لعمل السَّعَادَة وَأما أهل الشقاوة فييسرون لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾» الْآيَة.

ويتأيد هذا القول بالآية التي بعدها ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي كما بدأكم ومنكم الشقي والسعيد فكذلك تعودون إلى مصائر المهتدين السعداء، والضُّلَّال الأشقياء، من جنةٍ أو نار.

قال الحافظ ابن كثير ؒ:

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «**فَوَاللهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ - أَوْ: الرَّجُلَ - يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**»(٤).

---

(١) هذه رواية ابن جرير الطبري وسندها على شرط مسلم.
(٢) مسلم (٢٨٧٨) من حديث جابر مرفوعًا.
(٣) البخاري (٤٩٤٨)، ومسلم (٢٦٤٧). تلك رواية مسلم في صحيحه.
(٤) البخاري (٦٥٩٤).

واستدل له أيضًا بحديث سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**»(١).

القول الثاني: كما خلقكم ولم تكونوا شيئًا، فكذلك يردكم أحياء بعد موتكم وفنائكم. أي كما بدأكم ولم تكونوا شيئًا فأحياكم كذلك يُميتكم ثم يُحييكم يوم القيامة.

وقد اختار الطبري هذا القول وانتصر له فقال: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، القولُ الذي قاله من قال: معناه: كما بدأكم الله خلقًا بعد أن لم تكونوا شيئًا، تعودون بعد فنائكم خلقًا مثله، يحشركم إلى يوم القيامة = لأن الله تعالى ذكره: أمر نبيه ﷺ أن يُعْلم بما في هذه الآية قومًا مشركين أهلَ جاهلية، لا يؤمنون بالمعاد، ولا يصدِّقون بالقيامة. فأمره أن يدعوهم إلى الإقرار بأن الله باعثهم يوم القيامة، ومثيبُ مَنْ أطاعه، ومعاقبُ مَنْ عصاه. فقال له: قل لهم: أمرَ ربي بالقسط، وأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وأن ادعوه مخلصين له الدين، وأن أقرُّوا بأنْ كما بدأكم تعودون = فترك ذكر «وأن أقروا بأن». كما ترك ذكر «أن» مع «أقيموا»، إذ كان فيما ذكر دلالة على ما حذف منه.

وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لأن يؤمر بدعاء مَنْ كان جاحدًا النشورَ بعد الممات، إلى الإقرار بالصفة التي عليها ينشر مَنْ نُشِر، وإنما يؤمر بالدعاء إلى ذلك مَنْ كان بالبعث مصدّقًا، فأما مَنْ كان له جاحدًا، فإنما يدعى إلى الإقرار به، ثم يعرَّف كيف شرائط البعث.

وانتصر الطبري لهذا الرأي بحديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُم تُحْشَرُونَ إِلَى الله حُفَاةً غُرْلًا: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾»(٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ:

قُلْتُ: وَلَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ -إِنْ كَانَ هُوَ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ- وَبَيْنَ قَوْلِهِ

---

(١) البخاري (٦٦٠٧)، ومسلم (١١٢).
(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٦٠)، والبخاري (٦٥٢٥).

تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه**»(١) وفي صحيح مسلم(٢)، عن عياض ابن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاء، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دينهم**» الحديث.

ووجه الْجَمْع عَلَى هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فِي ثَانِي الْحَالِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فطرَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا أَخذَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الْمِيثَاقَ، وَجَعَلَهُ فِي غَرَائِزِهِمْ وَفِطَرِهِمْ، وَمَعَ هَذَا قَدَّرَ أَنَّ مِنْهُمْ شَقِيًّا وَمِنْهُمْ سَعِيدًا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾.

وَفِي الْحَدِيثِ(٣): «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقها**».

وَقَدَرُ اللهِ نَافِذٌ فِي بَرِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣] و ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»(٤)؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

هذا، ومن العلماء من فسَّر قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

الأول: أن معنى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي كما سبق لكم في علم الله من سعادة أو شقاوة، فإنكم تصيرون إليه، فمن سبق له العلم بأنه سعيد صار إلى السعادة، ومن سبق له العلم بأنه شقي صار إلى الشقاوة، ويدل لهذا الوجه قوله بعده: ﴿فَرِيقًا هَدَى

---

(١) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٢) مسلم (حديث ٢٨٦٥).
(٣) كلاهما صحيح وقد تقدما.
(٤) صحيح: تقدم تخريجه.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، وهو ظاهر كما ترى، ومن الآيات الدالة عليه أيضا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أي ولذلك الاختلاف إلى شقي، وسعيد خلقهم.

الوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أي كما خلقكم أولا، ولم تكونوا شيئا، فإنه يعيدكم مرة أخرى.

ويبعثكم من قبوركم أحياء بعد أن متم وصرتم عظاما رميما، والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جدا، كقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الآية.

وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه قد يكون في الآية وجهان، وكل واحد منهما حق، ويشهد له القرآن، فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق، والعلم عند الله تعالى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– أن هؤلاء الذين حقت عليهم الضلالة ضلوا لكونهم اتخذوا الشياطين أولياء– أنصارًا وأعوانًا وقادةً من دون الله، ويحسبون بهذا أنهم على هداية وبصيرة، فضلوا بسبب اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجارُوا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نُصراء من دون الله، وظُهراء، جهلا منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ

(٧٤) أحمر
أسود

أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ
وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ
سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ
ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ
وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦

الكلمة	معناها
﴿خَالِصَةً﴾	خاصة بهم.
﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾	القبائح.
﴿مَا ظَهَرَ﴾	ما كان مُعلنًا ظاهرًا.
﴿وَمَا بَطَنَ﴾	ما كان سِرًّا في خفاء.
﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾	المعاصي.
﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾	التطاول على العباد.

الكلمة	معناها
﴿تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾	تجعلوا مع الله شريكًا له تدعونه وتعبدونه كما يُدعى الرحمن وكما يُعبد.
﴿سُلۡطَٰنٗا﴾	حجة - برهانًا.
﴿أُمَّةٍ﴾	جماعة - جيل - قرن.
﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾	أنكروها وأنكرتها قلوبهم (أنكرت قلوبهم أدلتنا وآياتنا وجحدوها).
﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾	تركوا العمل بها وترفعوا عنها.

س: اذكر سبب نزول قول تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

ج: سبب النزول أورده مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يُعيرني تِطوافًا؛ تجعله على فرجها وتقول:

اليَــومُ يَبْــدُو بَعْضُــهُ أو كُلُّــهُ   فَمَــا بَــدَا مِنْــهُ فَــلاَ أُحِلُّــهُ

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

س: ما المراد بالزينة في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

ج: قال بعض أهل العلم: ذلك ما يواري العورة من الثياب (على أقل تقدير).

وقال بعض العلماء: تلك الثياب التي كانوا يطرحونها عند البيت ويتعرون.

وثمَّ قول ثالث: وهو أن المراد بالزينة المُشط أي الامتشاط.

س: هل يستحب التزين عند الذهاب إلى المسجد؟

ج: نعم يستحب ذلك؛ لعموم الآية الكريمة ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

س: ما المراد بالإسراف في قوله: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾.

ج: أصح الأقوال في ذلك: والله أعلم أن المراد بالإسراف: الإسراف في الطعام والشراب.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَالْبَسُوا، فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ**»(١).

وقد أخرج الطبري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا ومخيلة**»(٢).

قلت (مصطفى): والمراد -على هذا- ألا نتجاوز الحد في الأكل والشرب، فكونوا مقتصدين في طعامكم وشرابكم.

(١) صحيح لشواهده: وأخرجه أحمد (٢/١٨٢).
(٢) الطبري (١٤٥٣٥).

القول الثاني: في المراد بالإسراف في الطعام أنه أكل المحرمات من الأطعمة.

القول الثالث: أن المراد التحليل والتحريم أي لا تحرموا ما أحله الله لكم من الطعام والشراب ولا تحلوا ما حرَّمه الله عليكم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

س: هل يجوز الأكل حتى الشبع؟

ج: نعم يجوز ذلك أحيانًا.

أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: يَقُولُ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَعِيفًا، أَعْرِفُ فِيهِ الجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي وَلَاثَتْنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ، وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ**» فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**بِطَعَامٍ**» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ مَعَهُ: «**قُومُوا**» فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ؟ فَقَالَتْ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا عِنْدَكِ**» فَأَتَتْ بِذَلِكَ الخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**» فَأَكَلَ القَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا»(١).

وأخرج أيضًا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلاثِينَ وَمِائَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ؟**»، فَإِذَا مَعَ رَجُلٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ

(١) البخاري (٥٣٨١).

أَوْ نَحْوُهُ، فَعُجِنَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ، مُشْعَانٌّ طَوِيلٌ، بِغَنَمٍ يَسُوقُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَيْعًا أَمْ عَطِيَّةً، أَوْ قَالَ: أَمْ هِبَةً؟**»، قَالَ: لَا بَلْ بَيْعٌ، فَاشْتَرَى مِنْهُ شَاةً، فَصُنِعَتْ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَوَادِ البَطْنِ أَنْ يُشْوَى، وَايْمُ اللهِ، مَا فِي الثَّلَاثِينَ وَالمِائَةِ إِلَّا قَدْ حَزَّ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ حُزَّةً مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا، إِنْ كَانَ شَاهِدًا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَإِنْ كَانَ غَائِبًا خَبَأَ لَهُ، فَجَعَلَ مِنْهَا قَصْعَتَيْنِ، فَأَكَلُوا أَجْمَعُونَ وَشَبِعْنَا، فَفَضَلَتِ القَصْعَتَانِ، فَحَمَلْنَاهُ عَلَى البَعِيرِ، أَوْ كَمَا قَالَ»(١).

وأخرج البخاري أيضًا من حديث عائشة ﭬ قالت: توفي النبي ﷺ حين شبعنا من الأسودين التمر والماء(٢).

وأخرج مسلم(٣) في «صحيحه» من حديث أبي هريرة ﵁ قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ**»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**».

س: الآية أصل في الاقتصاد، وضح ذلك؛ مع مزيد من الاستدلالات لهذا الأصل؟

ج: نعم هي أصلٌ في الاقتصاد، فقد أباح الله ﻷ الأكل والشرب ونهى عن الإسراف فيه.

---

(١) البخاري (٥٣٨٢).
(٢) البخاري (حديث ٥٣٨٣)
(٣) مسلم (٢٠٣٨).

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال بعض السلف: جمع الله الطب كلَّه في نصف آيةٍ ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾.

س: وضح معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم إن الله لا يحب من تجاوز الحد في طعامه وشرابه فأكل ما يَضُّر به أو شرب ما يضُّر به.

وكذلك لا يحب من تجاوز الحد فأحل ما حرّمه الله أو حرَّم ما أحلَّه الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ)، يقول: إن الله لا يحب المتعدِّين حدَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلّ الله أو حرم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحبّ أن يحلَّل ما أحل ويحرَّم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ) قَالَ ابْنُ عَبَّاس: أَحَلَّ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا أَوْ مَخِيلَةً «٤». فَأَمَّا مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَا سَدَّ الْجَوْعَةَ وَسَكَّنَ الظَّمَأَ، فَمَنْدُوبٌ إِلَيْهِ عَقْلًا وَشَرْعًا، لِمَا فِيهِ مِنْ حِفْظِ النَّفْسِ وَحِرَاسَةِ الْحَوَاسِّ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ الشَّرْعُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْوِصَالِ، لِأَنَّهُ يُضْعِفُ الْجَسَدَ وَيُمِيتُ النَّفْسَ، وَيُضْعِفُ عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع وتدفعه الْعَقْلُ. وَلَيْسَ لِمَنْ مَنَعَ نَفْسَهُ قَدْرَ الْحَاجَةِ حَظٌّ مِنْ بِرٍّ وَلَا نَصِيبٍ مِنْ زُهْدٍ، لِأَنَّ مَا حَرَمَهَا مِنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ بِالْعَجْزِ وَالضَّعْفِ أَكْثَرُ ثَوَابًا وَأَعْظَمُ أَجْرًا. وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي الزَّائِدِ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ: فَقِيلَ حَرَامٌ، وَقِيلَ مَكْرُوهٌ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهُوَ الصَّحِيحُ، فَإِنَّ قَدْرَ الشِّبَعِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ البلدان والأزمان وَالْأَسْنَانِ وَالطُّعْمَانِ. ثُمَّ قِيلَ: فِي قِلَّةِ الْأَكْلِ مَنَافِعُ

كَثِيرَةٌ، مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أَصَحَّ جِسْمًا وَأَجْوَدَ حِفْظًا وَأَزْكَى فَهْمًا وَأَقَلَّ نَوْمًا وَأَخَفَّ نَفْسًا. وَفِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ كَظُّ الْمَعِدَةِ وَنَتَنُ التُّخْمَةِ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ الْأَمْرَاضُ الْمُخْتَلِفَةُ، فَيَحْتَاجُ مِنَ الْعِلَاجِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْقَلِيلُ الْأَكْلِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَكْبَرُ الدَّوَاءِ تَقْدِيرُ الْغِذَاءِ. وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْمَعْنَى بَيَانًا شَافِيًا يُغْنِي عَنْ كَلَامِ الْأَطِبَّاءِ فَقَالَ: «**مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**». خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ.

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ:

رَوَى مُسْلِمٌ[١] عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ وَالْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ**». وَهَذَا مِنْهُ ﷺ حَضٌّ عَلَى التَّقْلِيلِ مِنَ الدُّنْيَا وَالزُّهْدِ فِيهَا وَالْقَنَاعَةِ بِالْبُلْغَةِ. وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَمْتَدِحُ بِقِلَّةِ الْأَكْلِ وَتَذُمُّ بِكَثْرَتِهِ. كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

تَكْفِيهِ فِلْذَةُ كَبِدٍ إِنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّوَاءِ وَيُرْوِي شُرْبَهُ الْغُمَرُ

وَقَالَتْ أُمُّ زَرْعٍ فِي ابْنِ أَبِي زَرْعٍ: وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ. وَقَالَ حَاتِمٌ الطَّائِيُّ يَذُمُّ بِكَثْرَةِ الْأَكْلِ:

فَإِنَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وَفَرْجَكَ نَالَا مُنْتَهَى الذَّمِّ أجمعا

وقال الخطاب: مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ**» أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ دُونَ شِبَعِهِ، وَيُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ وَيُبْقِي مِنْ زَادِهِ لِغَيْرِهِ، فَيُقْنِعُهُ مَا أَكَلَ. وَالتَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**» لَيْسَ عَلَى عُمُومِهِ، لِأَنَّ الْمُشَاهَدَةَ تَدْفَعُهُ، فَإِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ كَافِرٌ أَقَلَّ أَكْلًا مِنْ مُؤْمِنٍ، وَيُسْلِمُ الْكَافِرُ فَلَا يَقِلُّ أَكْلُهُ وَلَا يَزِيدُ. وَقِيلَ: هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى مُعَيَّنٍ. ضَافَ النَّبِيَّ ﷺ ضَيْفٌ كَافِرٌ يُقَالُ: إِنَّهُ الْجَهْجَاهُ الْغِفَارِيُّ. وَقِيلَ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ. وَقِيلَ: نَضْلَةُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ. وَقِيلَ: بَصْرَةُ بْنُ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيُّ. فَشَرِبَ حِلَابَ سَبْعِ شِيَاهٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَصْبَحَ فَأَسْلَمَ فَشَرِبَ حِلَابَ شَاةٍ فَلَمْ يَسْتَتِمَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ. فَكَأَنَّهُ قَالَ: هَذَا الْكَافِرُ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقِيلَ: إِنَّ الْقَلْبَ لَمَّا

---

(١) مسلم (٢٠٦٠) والبخاري (٥٣٩٣) و(٥٣٩٤).

تَنَوَّرَ بِنُورِ التَّوْحِيدِ نَظَرَ إِلَى الطَّعَامِ بِعَيْنِ التَّقَوِّي عَلَى الطَّاعَةِ، فَأَخَذَ مِنْهُ قَدْرَ الْحَاجَةِ، وَحِينَ كَانَ مُظْلِمًا بِالْكُفْرِ كَانَ أَكْلُهُ كَالْبَهِيمَةِ تَرْتَعُ حَتَّى تَثْلِطَ. وَاخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الْأَمْعَاءِ، هَلْ هِيَ حَقِيقَةٌ أم لا؟ فقيل حَقِيقَةٌ، وَلَهَا أَسْمَاءٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالطِّبِّ وَالتَّشْرِيحِ. وَقِيلَ: هِيَ كِنَايَاتٌ عَنْ أَسْبَابٍ سَبْعَةٍ يَأْكُلُ بِهَا النَّهِمُ: يَأْكُلُ لِلْحَاجَةِ وَالْخَبَرِ وَالشَّمِّ وَالنَّظَرِ وَاللَّمْسِ وَالذَّوْقِ وَيَزِيدُ اسْتِغْنَامًا. وَقِيلَ: الْمَعْنَى أَنْ يَأْكُلَ أَكْلَ مَنْ لَهُ سَبْعَةُ أَمْعَاءٍ. وَالْمُؤْمِنُ بِخِفَّةِ أَكْلِهِ يَأْكُلُ أَكْلَ مَنْ ليس له إلا معى واحد، فَيُشَارِكُ الْكَافِرَ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ أَكْلِهِ، وَيَزِيدُ الْكَافِرُ عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَمْثَالٍ. وَالْمِعَى فِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْمَعِدَةُ.

وقال القرطبي كذلك:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ) أَيْ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ، وَعَنْهُ يَكُونُ كَثْرَةُ الشُّرْبِ، وَذَلِكَ يُثْقِلُ الْمَعِدَةَ، وَيُثَبِّطُ الْإِنْسَانَ عَنْ خِدْمَةِ رَبِّهِ، وَالْأَخْذِ بِحَظِّهِ مِنْ نَوَافِلِ الْخَيْرِ. فَإِنْ تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى مَا فَوْقَهُ مِمَّا يَمْنَعُهُ الْقِيَامَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ حَرُمَ عَلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ أَسْرَفَ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ. رَوَى أَسَدُ بْنُ مُوسَى مِنْ حَدِيثِ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَكَلْتُ ثَرِيدًا بِلَحْمٍ سَمِينٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَتَجَشَّى، فَقَالَ: «**اكْفُفْ عَلَيْكَ مِنْ جُشَائِكَ أَبَا جُحَيْفَةَ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فَمَا أَكَلَ أَبُو جُحَيْفَةَ بِمِلْءِ بَطْنِهِ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا، وَكَانَ إِذَا تَغَدَّى لَا يَتَعَشَّى، وَإِذَا تَعَشَّى لا يتغدى.

قلت: وقد يكون هذا معنى قوله عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ» أي التام الإيمان؛ لان من حسن إسلامه وكمل إيمانه كأبي جحيفة تفكر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته. والله أعلم.

وقال ابن زيد: معنى: «وَلاَ تُسْرِفُوا» لا تأكلوا حرامًا.

س: ما المراد بزينة الله المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾.

ج: قال عددٌ من أهل العلم: إن المراد الزينة التي تستر العورات والتي يتجملون بها ويتزينون بها.

س: هل كان المشركون يحرمون الطيبات من الرزق، وما هذه الطيبات التي كانوا يحرمونها؟

ج: نعم قد كانوا يحرمون بعض الطيبات من الرزق.

ومن العلماء من قال: إنهم كانوا يحرمون على أنفسهم اللحم أثناء حجهم أو عمرتهم.

وقال آخرون من أهل العلم: إنهم كانوا يحرمون على أنفسهم البَحِيرةِ والسائبة والوصيلة والحام(١).

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل لهؤلاء الكفرة الضُّلال الذين يرحمون ما أحل الله لهم، ويكشفون العورات ولا يسترونها، ويحرمون على أنفسهم ما أحلَّ الله لهم، قل لهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعرّون عند طوافهم بالبيت، ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: من حرَّم، أيها القوم، عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزيَّنوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رزق خلقه لمطاعمهم ومشاربهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ الْمَآكِلِ أَوِ الْمَشَارِبِ، وَالْمَلَابِسِ، مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَابْتِدَاعِهِمْ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الْآيَةَ، أَيْ: هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَعَبَدَهُ فِي

---

(١) وقد تقدم بيان ذلك في سورة المائدة.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِنْ شَرَكَهُمْ فِيهَا الْكُفَّارُ حِسًّا فِي الدُّنْيَا، فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَشْرَكهم فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل لهؤلاء الذين يحرمون ما أحل الله لهم: إن هذه الزينة والرزق الحلال الطيب، ليست بحرام بل هي حلال وأهل الإيمان يتمتعون بها في الحياة الدنيا ويشاركون فيها غيرهم من الكفار واليهود والنصارى، ذلك في الدنيا، ولكنها في الآخرة خاصة بأهل الإيمان فقط لا يشاركهم فيها غيرهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد = لهؤلاء الذين أمرتك أن تقول لهم: (مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ)، إذ عيُّوا بالجواب، فلم يدروا ما يجيبونك =: زينة الله التي أخرج لعباده، وطيبات رزقه، للذين صدّقوا الله ورسوله، واتبعوا ما أنزل إليك من ربك، في الدنيا، وقد شركهم في ذلك فيها من كفر بالله ورسوله وخالف أمر ربه، وهي للذين آمنوا بالله ورسوله خالصة يوم القيامة، لا يشركهم في ذلك يومئذ أحدٌ كفر بالله ورسوله وخالف أمر ربه.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قال ابن الأنباري (خالصة) نصب على الحال من لام مضمرة تقديرها هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة وهي لهم في الآخرة خالصة فحذفت اللام لوضوح معناها.

وقال أيضًا: قال المفسرون: إن المشركين شاركوا المؤمنين في الطيبات فأكلوا ولبسوا ونكحوا ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين، وليس للمشركين فيها شيءٌ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: كما بينت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة، والحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها، وميزت بين ذلك لكم، أيها الناس، كذلك أبيِّن جميع أدلتي وحججي، وأعلامَ حلالي وحرامي وأحكامي، لقوم يعلمون ما يُبَيَّن لهم، ويفقهون ما يُمَيَّز لهم.

تحريم الفواحش

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين الذين تجردوا من ثيابهم وطافوا بالبيت عراةً، وفعلوا الفواحش وزعموا أن الله أمرهم بها وأحلها لهم، وحرَّموا على أنفسهم التستر وحرَّموا على أنفسهم الطيبات من الرزق فحرموا الحلال وحللَّوا الحرام، قل لهؤلاء إن الذي حرَّمه ربي ﷻ إنما هي الفواحش، تلك القبائح المنكرة الظاهرة المعلنة كنكاح الأمهات وامرأة الأب والطواف عريانًا أو المستترة الخفية كالزنا ونحوه فالفواحش كلها حرام، وكذا حرَّم ربي المعاصي كلها ومنها الخمر وحرَّم البغي الذي هو التطاول على الناس وأذاهم، وكذا حرَّم الشرك به أشد التحريم، وهو أن تجعلوا الله ﷻ شريكًا تدعونه كما يُدعى الرحمن، وتعبدونه كما يعبد الرحمن، وترجونه وتخشونه، وكذا وأن تجعلوا له شريكًا بأية صورةٍ من صور الشرك ظاهرًا كان الشرك أم خفيًا، وكذا حرَّم ربي ﷻ التقوُّل عليه بغير علم ونسبة ما لم يقله إليه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يتجرّدون من ثيابهم للطواف بالبيت، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه: أيها القوم، إن الله لم يحرم ما تحرمونه، بل أحل ذلك لعباده المؤمنين وطيَّبه لهم، وإنما حرم ربِّي القبائح من الأشياء وهي ﴿ الْفَوَاحِشَ ﴾، ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾، فكان علانية ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾، منها فكان سرًّا في خفاء.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: إنما حرم ربي الفواحش والشرك به، أن تعبدوا مع الله إلهًا غيره (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا)، يقول: حرم ربكم عليكم أن تجعلوا معه في عبادته شِرْكًا لشيء لم يجعل لكم في إشراككم إياه في عبادته حجة ولا برهانًا، وهو «السلطان» (وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، يقول: وأن تقولوا إن الله أمركم بالتعرِّي والتجرُّد للطواف بالبيت، وحرم عليكم أكل هذه الأنعام التي حرمتموها وسيَّبتموها وجعلتموها وصائل وحوامي، وغير ذلك مما لا تعلمون أن الله حرّمه، أو أمر به، أو أباحه، فتضيفوا إلى الله تحريمه وحَظْره والأمر به، فإن ذلك هو الذي حرمه الله عليكم دون ما تزعمون أن الله حرمه، أو تقولون إن الله أمركم به، جهلا منكم بحقيقة ما تقولون وتضيفونه إلى الله.

أما السعدي فقال في تفسيره «تيسير الكريم المنان»:

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكِبرِ، وَالعُجْبِ والرياء، والنفاق، ونحو ذلك.

وقال السعدي أيضًا:

﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذنوب التي تؤثم، وتوجب العقوبة في حقوق الله. والبغي على الناس، في دمائهم، وأموالهم، و اعراضهم.

فدخل في هذا، الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

س: كيف فصل الفواحش عن الإثم، وفي كل الفواحش إثمٌ؟

ج: أجاب على ذلك ابن الجوزي في زاد المسير إذ قال: إن كل فاحشة إثم وليس كل إثم فاحشة فكان الإثم كل فعلٍ مذموم، والفاحشة العظيمة، والله أعلم.

س: اذكر حديثًا في تحريم الفواحش.

ج: أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ

مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ»(١).

س: اذكر آية في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ج: في معناها قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

تحريم التقوُّل على الله بغير علم

س: اذكر بعض الأدلة على تحريم التقوّل على الله بغير علم، وبعض صور ذلك.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) [النحل: ١١٦].

أما صور التقول على الله بغير علم فقد قال السعدي في «تفسيره»:

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، ولكل جيل من الأجيال، وفئةٍ من الناس عمرٌ وميقاتٌ قد

(١) البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠).

أُجِّلوا إليه فإذا جاء هذا الوقت الذي حُدِّد لآجالهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، أي فلا يتأخرون عن آجالهم ساعة، ولا يموتون قبلها ولو بساعةٍ هذا، ومن العلماء من نزَّل ما ذكر على المشركين العصاة، ولكنه بعمومه يشملهم ويشمل غيرهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره تهدُّدًا للمشركين الذين أخبر جل ثناؤه عنهم أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ووعيدًا منه لهم على كذبهم عليه، وعلى إصرارهم على الشرك به والمقام على كفرهم = ومذكرًا لهم ما أحلّ بأمثالهم من الأمم الذين كانوا قبلهم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، يقول: ولكل جماعة اجتمعت على تكذيب رُسل الله، وردِّ نصائحهم، والشرك بالله، مع متابعة ربهم حججه عليهم ﴿أَجَلٌ﴾، يعني: وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثُلات بهم على شركهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾، يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقّته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، يقول: لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يُمَتَّعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحين حلول أجل فنائهم، ساعة من ساعات الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، يقول: ولا يتقدّمون بذلك أيضًا عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتًا للهلاك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أَيْ وَقْتٌ مُؤَقَّتٌ. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أَيِ الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَرَأَ ابْنُ سِيرِينَ« جَاءَ آجَالُهُمْ» بِالْجَمْعِ ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا أَقَلَّ مِنْ سَاعَةٍ، إِلَّا أَنَّ السَّاعَةَ خُصَّتْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَقَلُّ أَسْمَاءِ الْأَوْقَاتِ، وَهِيَ ظَرْفُ زَمَانٍ.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فَدَلَّ بِهَذَا عَلَى أَنَّ الْمَقْتُولَ إِنَّمَا يُقْتَلُ بِأَجَلِهِ. وَأَجَلُ الْمَوْتِ هُوَ وَقْتُ الْمَوْتِ، كَمَا أَنَّ أَجَلَ الدَّيْنِ هو وقت حلوله. وكل شي وقت به شي فَهُوَ أَجَلٌ لَهُ. وَأَجَلُ الْإِنْسَانِ هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ يَمُوتُ الْحَيُّ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهُوَ وَقْتٌ لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ موته عنه، لأمن حَيْثُ إِنَّهُ لَيْسَ مَقْدُورًا تَأْخِيرُهُ. وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ إِلَّا مَنْ شَذَّ مِنْهُمْ: إِنَّ الْمَقْتُولَ مَاتَ بِغَيْرِ أَجَلِهِ الَّذِي ضُرِبَ لَهُ، وَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يُقْتَلْ لَحَيِيَ.

وَهَذَا غَلَطٌ، لِأَنَّ الْمَقْتُولَ لَمْ يَمُتْ مِنْ أَجْلِ قَتْلِ غَيْرِهِ لَهُ، بَلْ مِنْ أَجْلِ مَا فَعَلَهُ اللهُ مِنْ إِزْهَاقِ نَفْسِهِ عِنْدَ الضَّرْبِ لَهُ. فَإِنْ قِيلَ: فَإِنْ مَاتَ بِأَجَلِهِ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ضَارِبَهُ وَتَقْتَصُّونَ مِنْهُ؟. قِيلَ لَهُ: نَقْتُلُهُ لِتَعَدِّيهِ وَتَصَرُّفِهِ فِيمَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ، لَا لِمَوْتِهِ وَخُرُوجِ الرُّوحِ إِذْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ. وَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ وَالتَّعَدِّي مِنْ غَيْرِ قِصَاصٍ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْفَسَادِ وَدَمَارِ العباد. وهذا واضح.

وذكر ابن الجوزي في «زاد المسير»:

في معنى الأجل قولين: أحدهما: أجل العذاب، الثاني: أجل الحياه.

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقول النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبسطَ لهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١)؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بزيادة العمرة الذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيحلقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر، وقد ورد بهذا حديث ضعيف لا يصح.

الثاني: أن المراد الثناء الحسن بعد الموت.

الثالث: أن المراد البركة في العمر.

الرابع: أن هذا من باب الأسباب والمسببات، والشأن في ذلك هو الشأن في جميع الأمور المقدرة، فمثلًا كلنا نعلم أن الرزق مقدر، ولكننا نسعى في الأخذ بأسبابه فنضرب في الأرض ونتاجر ونعمل حتى نتحصل عليه، وكذا نعلم أن الآجال مقدرة ولكننا نتقي الغرق والحوادث والمرض قدر جهدنا.

الخامس: أن الطاعات وصلة الأرحام تزيد في الأعمار حقيقة.

السادس: أن الأجل أجلان فإذا عمل العبد طاعةً فله أجل وإذا لم يعملها فله أجل، والله أعلم بما سيختاره العبد وأعلم بما قضاه على العبد. والله أعلم.

---

(١) البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

ج: يُخبر الله ﷻ بني آدم بأنه سيرسل إليهم رسلًا من أنفسهم ويأمرهم ويحثهم على طاعة هؤلاء الرسل واتباعهم، فيقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ أي إن يأْتِكم رسلٌ منكم يا بني آدم، ليسوا من الجن يتلون عليكم آياتي ويُبينون لك حُججي فمن اتقى ربه وأصلح أعماله فلا خوفٌ عليهم مما هو آتٍ ولا يحزنون على ما قد فات لا يحزنون على أموالٍ ولا أولاد، ولا مناصب ولا وجاهات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره معرِّفًا خلقه ما أعدَّ لحزبه وأهل طاعته والإيمان به وبرسوله، وما أعدّ لحزب الشيطان وأوليائه والكافرين به وبرسله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾، يقول: إن يجئكم رسلي الذين أرسلهم إليكم بدعائكم إلى طاعتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي ﴿مِّنكُمۡ﴾، يعني: من أنفسكم، ومن عشائركم وقبائلكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، يقول: يتلون عليكم آيات كتابي، ويعرّفونكم أدلتي وأعلامي على صدق ما جاؤوكم به من عندي، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾، يقول: فمن آمن منكم بما أتاه به رُسلي مما قص عليه من آياتي وصدَّق، واتقى الله فخافه بالعمل بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه على لسان رسوله ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ يقول: وأصلح أعماله التي كان لها مفسدًا قبل ذلك من معاصي الله بالتحوُّب منها ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، يقول: فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله إذا وردوا عليه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها، وشهواتهم التي تجنَّبوها، اتباعًا منهم لنهي الله عنها، إذا عاينوا من كرامة الله ما عاينوا هنالك.

س: ما جواب قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾.

ج: قال بعض العلماء: جوابه مُضمر مفهوم من السياق وهو فاتبعوهم واطيعوهم، فيكون المعنى إذا جاءكم رسلٌ منكم فاتبعوهم وأطيعوهم.

وقال آخرون: بل جوابه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: ما جواب قوله: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك.

فقال بعضهم في ذلك: الجوابُ مضمرٌ، يدل عليه ما ظهر من الكلام، وذلك قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾، كأنه قال: فأطيعوهم.

وقال آخرون منهم: الجواب: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، لأن معناه: فمن اتقى منكم وأصلح. قال: ويدل على أنّ ذلك كذلك، تبعيضه الكلام، فكان في التبعيض اكتفاء من ذكر ﴿مِّنكُمْ﴾.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والذين كذبوا آياتنا بألسنتهم وأنكرتها قلوبهم، وترفعوا على العمل بها وتركوه أولئك أصحاب النار المخلدون فيها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: وأما من كذّب بإيتاء رسلي التي أرسلتها إليه، وجحد توحيدي، وكفر بما جاء به رسلي، واستكبر عن تصديق حُجَجي وأدلّتي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، يقول: هم في نار جهنم ماكثون، لا يخرجون منها أبدًا.

س: كثيرًا ما يُقرَنُ بين الترغيب والترهيب في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وضح ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].
- وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

۞ وقولـــــه تعـــــالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

[المائدة:٩٨]

(٩١) أحمر

أسود

قَالَ تَعَالَىٰ:

فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ
يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ
قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا
وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ
أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ
أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ
لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ
لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا
كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ
ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ
غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ
وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣

الكلمة	معناها

الكلمة	معناها
﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾	اختلق (من عند نفسه).
﴿كَذِبًا﴾	زورًا من القول.
﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾	ما كتب لهم في الكتاب (من العذاب)، والكتاب: اللوح المحفوظ، وكذا الأمر المقدر المكتوب.
﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾	يقبضون أرواحهم.
﴿تَدۡعُونَ﴾	تعبدون.
﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾	ضاعوا منا – ذهبوا عنا– تركونا فلم ينفعونا.
﴿أُمَمٍ﴾	جماعات.
﴿خَلَتۡ﴾	مضت– سلفت.
﴿ٱدَّارَكُواْ﴾	اجتمعوا.
﴿أُخۡرَىٰهُمۡ﴾	الذين أتوا من بعدهم– الذين أتوا في آخر الزمان.
﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾	الذين سلفوا ومضوا وشرعوا لهم ذلك الدين الذي لم يأذن به الله.
﴿أَضَلُّونَا﴾	صرفونا عن طريق الحق الموصل إلى مرضاة الله ﷻ.
﴿ضِعۡفًا﴾	الضعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات.
﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾	تكبروا عن التصديق بها ورفضوا اتباعها والانقياد لها.
﴿يَلِجَ﴾	يدخل.
﴿ٱلۡجَمَلُ﴾	ذَكَرُ الناقة (الجمل المعروف)، وقيل: الحبل الغليظ الذي تربط به السفن.
﴿سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾	ثقب الإبرة.
﴿مِهَادٞ﴾	فراش يُفترش كفراش الصبي.
﴿غَوَاشٖ﴾	جمع غاشية؛ وهو: ما يغشاهم ويتغطون به، ومنه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾.
﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	نثيب– نكافئ أهل الظلم أهل الشرك.

﴿وُسْعَهَآ﴾	طاقتها – قدرتها.
﴿وَنَزَعْنَا﴾	استخرجنا.
﴿غِلٍّ﴾	حقد – حسد – بُغض – عداوة – إحن.
﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾	وفقنا لهذا الإيمان.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، لا أحد أشد ظُلمًا لنفسه ولا أجهل ولا أشد خطأ من شخص كذب على الله ونسب إليه ما لم يقله كقول القائل الذي يفعل الفاحشة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وكذا، وفضلًا عن كونه يفتري على الله الكذب فإنه يكذب بآيات الله ﷻ التي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، فهؤلاء الذين هذه صفتهم سيلحقهم من أمر الله ﷻ ومن عقوبته ما قد أعده لهم مما قد سطر في اللوح المحفوظ من أنهم ملاقوه من العذاب والعقاب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فمن أخطأ فعلا وأجهلُ قولا وأبعد ذهابًا عن الحق والصواب ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، يقول: ممن اختلق على الله زُورًا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، يقول: أو كذب بأدلته وأعلامه الدّالة على وحدانيته ونبوّة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يقول: مَنْ فعل ذلك، فافترى على الله الكذب وكذب بآياته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يقول: يصل إليهم حظهم مما كتب الله لهم في اللوح المحفوظ.

س: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كيف الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ ونحوها من الآيات؟

ج: لأهل العلم في ذلك اتجاهان:

أحدهما: أن كل هؤلاء في الظلم سواء، وهم في الدرجة العظمي من الظلم.

الثاني: أن ينزل ذلك منزلة الاختصاص فيقال ليس من الكذابين أظلم ممن كذب على الله، وليس من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وليس من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبًا. والله أعلم(١).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أولئك الذين ظلموا وافتروا عل الله الكذب وكذبوا بآياته يدركهم ويلحقهم ويحلُّ بهم ما كتبه الله عليهم من العذاب، فقد سبق في علم الله ﷻ أنهم سيعذبون وسُجِّل ذلك في الكتاب، فالذين سُجِّل عليهم سيلحقهم لا محالة وسيحل بهم لِزامًا.

فعليه، فقوله: ﴿نَصِيبُهُم﴾ المراد به نصيبهم من العذاب الذي سيحل بهم نتيجة تكذيبهم.

القول الثاني: أن المراد بالنصيب من الكتاب، ما كُتب عليهم أنهم سيعملونه من خيرٍ وسعادة أو شرٍ وشقاوة.

الثالث: أن المراد بالنصيب من الكتاب الأعمار والأرزاق والأعمال فيُمتَّعوا بما كتب لهم ثم يؤخذون بالعذاب وهذه الأقوال كلها متقاربة ومتلازمة.

قال القرطبي رحمه الله:

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، مما كتب لهم من خير وشر في الدنيا، ورزق وعمل وأجل.

وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)فأبان بإتباعه ذلك قولَه: (أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ) أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضيًّا عليهم في الدنيا أن ينالهم، لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسلَه لتقبض أرواحهم. ولو كان ذلك نصيبهم من

(١) وقد قدمنا في ذلك مزيدًا في سورة البقرة فراجعه إن شئت.

الكتاب، أو مما قد أعدّ لهم في الآخرة، لم يكن محدودًا بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة، وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء، فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه. فبيِّنٌ بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

بعد أن أورد طائفةً من أقوال العلماء في أن المراد بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ العمل والرزق والعمر: وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ **[يونس: ٦٩، ٧٠]**، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ **[لقمان: ٢٣، ٢٤]**.

وأورد ابن الجوزي في «زاد المسير» أقوالًا في تفسير (الكتاب) ثم قال:

فإذن في الكتاب خمسة أقوال:

أحدها: أنه اللوح المحفوظ.

الثاني: كتب الله كلها.

الثالث: القرآن.

الرابع: كتاب أعمالهم.

الخامس: القضاء.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إن هؤلاء المكذبين بآيات الله المفترين على الله الكذب تمتعوا بما كتبه الله لهم في الدنيا حتى بلغوا الآجال التي كتبت لهم، فلما جاءتهم ملائكة الموت يتوفونهم، قالت لهم الملائكة أين ما كنتم تعبدون من دون الله

كي ينصرونكم، أو يدفعون عنكم العذاب قالوا ضلوا عنا أي ذهبوا عنا، وهربوا منا وحينئذٍ شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا من أهل الكفر والجحود والنكران.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني: جل ثناؤه بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾، إلى أن جاءتهم رسلنا.

يقول جل ثناؤه: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، أو كذبوا بآيات ربهم، ينالهم حظوظهم التي كتب الله لهم، وسبق في علمه لهم من رزق وعمل وأجل وخير وشر في الدنيا، إلى أن تأتيهم رسلنا لقبض أرواحهم. فإذا جاءتهم رسلنا، يعني ملك الموت وجنده (يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ)، يقول: يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة (قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ)، يقول: قالت الرسل: أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهلا يُغيثونكم من كرب ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟ فأجابهم الأشقياء فقالوا: ضَلَّ عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله. يعني بقوله:(ضَلُّواْ)، جاروا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا.

يقول الله جل ثناؤه: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا): يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَفَّتِ الْمُشْرِكِينَ تُفْزِعُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ إِلَى النَّارِ، يَقُولُونَ لَهُمْ أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مَنْ دُونِ اللهِ؟ ادْعُوهُمْ يُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. قَالُوا: (ضَلُّواْ عَنَّا) أَيْ: ذَهَبُوا عَنَّا فَلَا نَرْجُو نَفْعَهُمْ، وَلَا خَيْرَهُمْ.(وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ) أَيْ: أَقَرُّوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ).

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ فأفادت أن الذين يتوفون الناس إنما هم جماعةٌ رسلٌ من الملائكة، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، فأفادت أن الذي يتوفانا ملك الموت، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمر: ٤٢] فأفاد أن الله هو الذي يتوفى الأنفس؟

ج: جواب ذلك أن الله ﷻ يأمر ملك الموت بأن يتوفى الأنفس وملك الموت له أعوان يأمرهم بما أمره الله به، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآية.

ج: هذا القول موجهٌ لهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب والذين كذبوا بآيات الله، لما حضرتهم الوفاة وسألتهم الملائكة سؤال توبيخ عند الاحتضار قائلين لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَـٰفِرِينَ﴾ فيقول الله لهم: ادخلوا مع أمم كافرة وجماعات كافرة قد مضت من قبلكم وكان مصيرها إلى النار، ادخلوا معهم وألحقوا بهم، ألحقوا بجماعات الإنس والجن الكفرة الذي سبقوكم، وهنالك وفي النار كلما دخلت أمة لعنت سابقتها التي دخلت قبلها وكانت سببًا في إضلالها وإغوائها، والتي هي على شاكلتها وعلى ملتها إذا اداركوا فيها أي: اجتمعوا فيها كلهم أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم قالت آخراهم لأولاهم: يا ربنا هؤلاء الذين تسببوا في إغوائنا وإضلالنا وصرفنا عن الحق إلى الباطل وعن الإيمان إلى الكفر، فضاعف يا ربنا عليهم العذاب، فيقال لهم لكلٍّ ضعفٌ من العذاب، ولكن لا تعلمون قدر ما أعدَّه الله لكم من العذاب.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قيله لهؤلاء المفترين عليه، المكذبين آياته يوم القيامة. يقول تعالى ذكره: قال لهم حين وردوا عليه يوم القيامة، ادخلوا، أيها المفترون على ربكم، المكذبون رسله، في جماعات من ضُرَبائكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾، يقول: قد سلفت من قبلكم ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾، ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار، قد خلت من قبلكم من الجن والإنس = وإنما يعني بـ«الأمم»، الأحزابَ وأهلَ الملل الكافرة ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، يقول جل ثناؤه:

كلما دخلت النارَ جماعةٌ من أهل ملة ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، يقول: شتمت الجماعة الأخرى من أهل ملتها، تبريًا منها.

وإنما عنى بـ«الأخت»، الأخوة في الدين والملة، وقيل: ﴿أُخْتَهَا﴾، ولم يقل: «أخاها»، لأنه عنى بها ﴿أُمَّةٌ﴾ وجماعة أخرى، كأنه قيل: كلما دخلت أمة لعنت أمة أخرى من أهل ملتها ودينها.

وقال أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾:

يقول تعالى ذكره: حتى إذا تداركت الأمم في النار جميعًا، يعني اجتمعت فيها.

يقال: «قد ادَّاركوا»، و«تداركوا»، إذا اجتمعوا.

يقول: اجتمع فيها الأوَّلون من أهل الملل الكافرة والآخِرون منهم.

ثم قال في تفسيره قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن محاورة الأحزاب من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة. يقول الله تعالى ذكره: فإذا اجتمع أهل الملل الكافرة في النار فادّاركوا، قالت أخرى أهل كل ملة دخلت النار = الذين كانوا في الدنيا بعد أولى منهم تَقَدَّمتها وكانت لها سلفًا وإمامًا في الضلالة والكفر = لأولاها الذين كانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك، وزيَّنوا لنا طاعة الشيطان، فآتهم اليوم من عذابك الضعفَ على عذابنا.

وقال: وأما قوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، فإنه خبر من الله عن جوابه لهم، يقول: قال الله للذين يدعونه فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: لكلكم، أوَّلكم وآخركم، وتابعوكم ومُتَّبَعوكم، ﴿ضِعْفٌ﴾، يقول: مكرر عليه العذاب.

و«ضعف الشيء»، مثله مرة.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولكنكم، يا معشر أهل النار، لا تعلمون ما قدْرُ ما أعدَّ الله لكم من العذاب، فلذلك تسأل الضعف منه الأمةُ الكافرة الأخرى لأختها الأولى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ: (ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ) أَيْ: مِنْ أَشْكَالِكُمْ وَعَلَى صِفَاتِكُمْ، (قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم) أَيْ: مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ، (مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ) يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ أَيْ: مَعَ أُمَمٍ.

وَقَوْلُهُ: (كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ) كَمَا قَالَ الخليل، عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ) [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

وَقَوْلُهُ: (حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا) أَيِ: اجْتَمَعُوا فِيهَا كُلُّهُمْ، (قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ) أَيْ: أُخْرَاهُمْ دُخُولًا -وَهُمُ الْأَتْبَاعُ- لِأُولَاهُمْ -وَهُمُ الْمَتْبُوعُونَ- لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، فَدَخَلُوا قَبْلَهُمْ، فَيَشْكُوهُمُ الْأَتْبَاعُ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَيَقُولُونَ: (رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ) أَيْ: أَضْعِفْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا) [الأحزاب:٦٦-٦٨]

وَقَوْلُهُ: (قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ) أَيْ: قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ) وَقَالَ تَعَالَى: (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ) وَقَالَ: (وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ).

س: قوله تعالى: ﴿أُخۡتَهَاۖ﴾ في ماذا هذه الأخوة؟

ج: المراد الأخوة في الدين والملة، والله أعلم، فيلعن المشركون المشركين الذي

أضلوهم وسبقوهم ويلعن اليهودُ اليهودَ ويلعن النَّصارى النَّصارى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن أهل النار دارت بينهم خصومات ولعنت كل طائفةٍ أختها، ودعا المتأخرون منهم على الأولين بقولهم ربنا هؤلاء أضلونا اتهم عذابًا ضعفًا من النار فحيئذٍ يقول الأولون: فما كان لكم علينا من فضل، أي: وأنتم ما الفضل الذي لكم علينا، هل قدمتم لنا شيئًا انتفعنا به بل تبعتمونا على ما دعوناكم إليه وسنناه لكم. ثم إنكم ما زدتم علينا بشيء من الإيمان ولا شيء من الإسلام فقد علمتم ما حلَّ بنا وما نزل من العقوبات ولم تتعظوا ولم تعتبروا ولم تؤمنوا، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي: بكسبكم الذي اكتسبتم وبضلالكم الذي ضللتم، وسيء أعمالكم التي عملتم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: وقالت أولى كل أمة وملة سبقت في الدنيا، لأخراها الذين جاؤوا من بعدهم، وحَدَثوا بعد زمانهم فيها، فسلكوا سبيلهم واستنوا سنتهم: (فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ)، وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله جل ثناؤه بمعصيتنا إياه وكفرنا بآياته، بعدما جاءتنا وجاءتكم بذلك الرسل والنذر، فهل أنَبْتم إلى طاعة الله، وارتدعتم عن غوايتكم وضلالتكم؟ فانقضت حجة القوم وخُصِموا ولم يطيقوا جوابًا بأن يقولوا:«فضِّلنا عليكم إذ اعتبرنا بكم فآمنا بالله وصدقنا رسله»، قال الله لجميعهم: فذوقوا جميعكم، أيها الكفرة، عذابَ جهنم، بما كنتم في الدنيا تكسبون من الآثام والمعاصي، وتجترحون من الذنوب والإجرام.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ وهذا الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال

محشرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

عقاب المكذبين بآيات الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: لا يصعد لهم عمل صالح، ولا قولٌ ولا دعاء.

الثاني: لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت أرواحهم إلى السماء، فلا تفتح لهم حينئذٍ أبواب السماء.

الثالث: يشمل القولين معًا، ألا وهو: لا يصعد لم عمل صالح ولا تفتح لأرواحهم أبواب السماء.

وأورد الطبري حديث أبي هريرة رضي الله عنه[١] أن رسول الله ﷺ قال: «الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّى يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَيُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيَقُولُونَ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ

---

(١) وإسناده حسن.

الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَتَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ».

قال ابن الجوزي في زاد المسير: وفي السماء قولان:

أحدهما: أنها السماء المعروفة وهو المشهور.

الثاني: أن المعنى: لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها؛ لأن الجنة في السماء.

قلت: وفي الباب أيضًا حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: عن البراء بن عازب قال: خَرَجْنا مع رسولِ الله ﷺ إلى جنازةٍ، فجلس رسولُ الله ﷺ على القبر، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيُقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ.

وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ

شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشُّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» (١).

قَالَ: «فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ».

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللهِ، وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ».

س: في قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ﴾ قراءات وضحها.

ج: ذكرها الطبري ﵀ فقال:

واختلف القراء في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قراء الكوفة: (لَا يُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّمَاءِ)، بالياء من «يفتح»، وتخفيف «التاء» منها، بمعنى: لا يفتح لهم جميعًا بمرة واحدة وفتحةٍ واحدة.

وقرأ ذلك بعض المدنيين وبعض الكوفيين: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾، بالتاء وتشديد التاء الثانية، بمعنى: لا يفتح لهم باب بعد باب، وشيء بعد شيء.

قال أبو جعفر: والصواب في ذلك عندي من القول أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان صحيحتا المعنى، وذلك أن أرواح الكفار لا تفتح لها ولا لأعمالهم الخبيثة أبوابُ السماء بمرة واحدة، ولا مرة بعد مرة، وباب بعد باب. فكلا المعنيين

(١) أحمد (٢٩٦).

في ذلك صحيح.

كذلك «الياء»؛ لأن «التاء» في «يفتح»، و«تفتح»؛ لأن «الياء» بناء على فعل الواحد للتوحيد، و«التاء»؛ لان «الأبواب» جماعة، فيخبر عنها خبر الجماعة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أن الذين كذبوا بآيات الله ورفضوا الأمتثال لها واستكبروا عن اتباعها يستحيل دخولهم الجنة، فكما أنه يستحيل أن يدخل الجمل (الذي هو زوج الناقة) ثقب الإبرة فكذلك يستحيل دخول هؤلاء الكفار الجنة، والله أعلم.

س: لماذا خُصَّ الجمل من بين سائر الدواب في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

ج: أجاب على ذلك العلماء بأجوبة أرى أمثلها –الله أعلم-: أن الجمل كان أكبر شيءٍ معهود عند العرب، ومنتشرًا ومتواجدًا بينهم، وإن كان ثَمَّ دواب أخر كالفيل، مثلًا والحدث كذلك.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

فان قال قائل: كيف خصّ الجمل من دون سائر الدواب، وفيها ما هو أعظم منه؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن ضرب المثل بالجمل يحصّل المقصود والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة، كما لا يدخل الجمل في ثقَب الإبرة، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه، جاز، والناس يقولون: فلان لا يساوي درهمًا، وهذا لا يغني عنك فتيلاً، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفتيل. والثاني: أن الجمل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب، فانهم يقدِّمونه في القوّة على غيره، لأنه يوقَر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب، ولهذا عجَّبهم من خلق الإبل، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، فآثر الله تعالى ذكره على غيره لهذا المعنى. ذكر الجوابين ابن الانباري.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ مع ذِكر آيةٍ في معناها.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الفرش التي ينام عليها أهل النار ويمتهدونها إنما هي من نار جهنم، وكذا اللُّحف التي يتغطون بها فإنها من نار جهنم أيضًا.

أما عن الآية التي في معناها فهي قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزُّمَر: ١٦].

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وكما أننا وعدنا المكذبين بآياتنا المستكبرين عنها الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ فكذبوه ولم يطيعوه ورفضوا الامتثال لأوامر الله ﷻ، وكما أننا وعدناهم بأنهم لن يدخلوا الجنة أبدًا ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾، فكذلك نثيب كل كافرٍ، ونجازيه بمثل هذا الجزاء، ألا وهو الحرمان المطلق من الجنة، والله أعلم.

فهذا القدر من الآية خرج بنا من حيز الخصوص إلى حيز العموم، كما قد أشير إلى ذلك في عدة مواطن من كتاب الله ﷻ، فكما أن الله أرسل على قوم لوط حجارةً من السماء قال بعد ذلك في شأن هذه الحجارة. ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾، والله أعلم.

|

س: كثيرًا ما يُذكر حال أهل الصلاح بعد ذِكر حال أهل الشر والفساد، وكذا يُذكر جزاء هؤلاء ثم يعقب بذكر جزاء أولئك، دلَّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى: (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ) [الانفطار: ١٣، ١٤].

۞ قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ) ثم قوله: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ).

۞ وكذا قوله تعالى في شأن طائفة من الأنبياء وأهل التقى في سورة (ص) (هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ) [ص: ٤٩، ٥٠] الآيات، ثم قوله: (هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ) [ص:

٥٥، ٥٦].

س: ما وجه قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ج: ذلك، والله أعلم، لبيان سهولة أمر الإيمان وسهولة التكاليف الشرعية فالإيمان سهل، والعمل سهلٌ كذلك، وما كان من ذلك فوق الطاقة فلا يكلف به العبد.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والذين آمنت قلوبهم وأقرت بما جاء من عند الله ﷻ، وما بُعث به المرسلون، واتبعوا الإيمان بالعمل الصالح الموافق لما شرع الله ورسوله، فهؤلاء ما كُلّفوا بشيء شاق عسيرٍ، بل كُلِّفوا بشيءٍ سهل ويسير، وأولئك أصحاب الجنة الذين هم أهلها لا يتحولون عنها، بل هم ماكثون فيها أبدًا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول جل ثناؤه: والذين صدّقوا الله ورسوله، وأقرُّوا بما جاءهم به من وحي الله وتنزيله وشرائع دينه، وعملوا ما أمرهم الله به فأطاعوه، وتجنبوا ما نهاهم عنه (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، يقول: لا نكلف نفسًا من الأعمال إلا ما يسعها فلا تحرج فيه (أُوْلَٰٓئِكَ)، يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ)، يقول: هم أهل الجنة الذين هم أهلها، دون غيرهم ممن كفر بالله، وعمل بسيئاتهم (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، يقول هم في الجنة ماكثون، دائمٌ فيها مكثهم، لا يخرجون منها، ولا يُسلبون نعيمها.

س: ما وجه الربط بين قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

ج: ذلك، والله تعالى أعلم، فيه إشارةٌ إلى رحمة الله ﷻ بهم، وأنه سبحانه لا يحملِّهم ما لا يطيقون، ولا يكلفهم ما يغلبهم.

س: هل صح لهذه الآية الكريمة: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ سبب نزول؟

ج: لا أعلم لها سبب نزول صحيحًا.

س: متى يتم نزع الغلِّ من القلوب؟

ج: ذلك، والله أعلم في الآخرة عند دخولهم الجنان، قد استُدل لذلك بما أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»(١).

وذُكِرَ عن بعض أهل العلم أن ذلك يكون في الجنة – أعني نزع الغلِّ من الصدور – يكون في الجنة مع الشراب الذي يشربونه، قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] قال بعضهم: أي ظهر صدورهم مما فيها من الحقد والحسد والغل ونحو ذلك. فالله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾.

ج: قال بعض أهل العلم في ذلك ما حاصله: واستخرجنا ما كان يحمله بعضهم لبعض في الدنيا من حسدٍ ومن حقدٍ وغير ذلك مما يعتري البشر في دنياهم، فاستخرج الله كل ذلك من صدورهم يوم القيامة وهُذِّبوا، ونُقُّوا وأدخلوا الجنة بصدور سليمة، وقلوب صافية.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وَصَفَ صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقد وغِمْرٍ وعَداوة كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذا أدخلهموها على سُرُر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضًا على

(١) البخاري (٢٤٤٠).

شيء خصَّ الله به بعضهم وفضّله من كرامته عليه، تجري من تحتهم أنهار الجنة.

وأخرج الطبري بإسناد صحيح عن أبي نضرة قال:

يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقضى لبعضهم من بعض، حتى يدخلوا الجنة حين يدخلونها ولا يطلب أحدٌ منهم أحدًا بقلامة ظُفُرٍ ظلمها إياه. ويحبس أهل النار دون النار حتى يقضى لبعضهم من بعض، فيدخلون النار حين يدخلونها ولا يطلب أحدٌ منهم أحدًا بقُلامة ظفر ظلمها إياه.

وقد ذكر ابن الجوزي: -على عادته- أقوالًا كثيرةً أُخر تخالف السياق وملابساته، منها: أنهم أهل الأحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا، ومنها: أنهم عشرة من الصحابة، وذكرهم...، والأقوال التي قدمتها (مصطفى) أولى والله أعلم، ومما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي أن نزع الغل يكون في حال كونهم على سرر متقابلين، و الله أعلم.

س: ما صحة الوارد عن علي رضي الله عنه من القول: (إني لأرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

ج: الذي وقفت عليه في ذلك إسناده منقطع، فقد رواه الطبري من طريق قتادة عن عليٍّ رضي الله عنه، وقتادة لم يسمع عليًّا رضي الله عنه.

س: اذكر بعض الأدلة على أن المهتدي من هداه الله.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله أهل الإيمان: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ **[يونس: ١٠٠]**.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ **[السجدة: ١٣]**.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **[يونس: ٢٥]**.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ **[الأنعام: ١٤٩]**.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ **[القصص: ٥٦]**.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ج: المعنى، الله تعالى أعلم، أن أهل الإيمان لما استقروا في الجنان قدموا شكرًا لله ﷻ خالقهم المتفضل عليهم بالتوفيق للإيمان ووراثة الجنان، فقالوا: الحمد لله الذي أرشدنا ووفَّقنا للإيمان وسهَّل علينا أمره، وما كانت لنا قدرة، ولا كانت لنا استطاعة أن نسلك طريق الهداية إذا لم يهدنا الله له، ولكن الحمد لله فقد وفقنا الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حين أدخلوا الجنة، ورأوا ما أكرمهم الله به من كرامته، وما صرف عنهم من العذاب المهين الذي ابتلي به أهل النار بكفرهم بربهم، وتكذيبهم رُسله: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا)، يقول: الحمد لله الذي وفقنا للعمل الذي أكسبنا هذا الذي نحن فيه من كرامة الله وفضله، وصرف عذابه عنا (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ)، يقول: وما كنا لنرشد لذلك، لولا أن أرشدنا الله له ووفقنا بمنّه وطَوْله.

وأخرج الطبري بسندٍ حسن عن عليٍّ قال:

ذكر عمر- لشيء لا أحفظه-، ثم ذكر الجنة فقال: يدخلون، فإذا شجرة يخرج من تحت ساقها عينان. قال: فيغتسلون من إحداهما، فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تشعَث أشعارهم ولا تغبرُّ أبشارهم. ويشربون من الأخرى، فيخرج كل قذًى وقذر وبأس في بطونهم. قال، ثم يفتح لهم باب الجنة، فيقال لهم: (سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ) [الزمر: ٧٣]. قال: فتستقبلهم الوِلدان، فيحفّون بهم كما تحفّ الولدان بالحميم إذا جاء من غيبته. ثم يأتون فيبشرون أزواجهم، فيسمونهم بأسمائهم وأسماء آبائهم. فيقلن: أنت رأيته! قال: فيستخفهنَّ الفرَح، قال: فيجئن حتى يقفن على أُسْكُفَّة الباب. قال: فيجيئون فيدخلون، فإذا أسُّ بيوتهم بِجَندل اللؤلؤ، وإذا صُرُوح صفر وخضر وحمر ومن كل لون، وسُرُر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابيُّ مبثوثة. فلولا أن الله قدَّرها، لالْتُمِعَتْ أبصارهم مما يرون فيها. فيعانقون الأزواج، ويقعدون على السرر، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، الآية.

س: ما الحق الذي جاءت به رسلُ ربنا؟

ج: الحق هو عموم ما جاءت به الرسل، فالقرآن والتوراة والزبور والإنجيل وعموم ما جاءت به الرسل وتكلمت به حق، ويدخل في ذلك ما وعد الله به أهل الإيمان من الجنة والرِّضوان وما وعد به أهل النار من السعير والخسران.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنهم يقولون عند دخولهم الجنة، ورؤيتهم كرامة الله التي أكرمهم بها، وهو أنّ أعداء الله في النار: والله لقد جاءتنا في الدنيا، وهؤلاء الذين في النار، رسل ربنا بالحق من الأخبار عن وعد الله أهلَ طاعته والإيمان به وبرسله، ووعيده أهلَ معاصيه والكفر به.

س: من الذي ناداهم: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ج: هذا المنادى قد يكون ملكًا كلفه الله بهذا النداء، وقد يكون غير ذلك، وقد يكون الذي ناداهم هو الله عَزَّوَجَلَّ والله أعلم بالصواب من ذلك.

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُم عَمَلُهُ الجنَّة» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ»(١).

ج: قال بعض أهل العلم إن دخول الجنة يكون بفضل الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ثم إن الأعمال سبب في الترقِّي في درجاتها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته فإذا دخلوها بأعمالهم فقد وثوها

(١) البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا، وكذا البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

برحمته ودخلوها برحمته؛ إذا أعمالهم رحمةٌ منه له وتفضل عليهم.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وفي معنى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أربعة أقوال:

أحدها: ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنّة ومنزل في النار، فأما الكافر فانه يرث المؤمنَ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» فذلك قوله: (أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ). وقال بعضهم: لما سمي الكفار أمواتًا بقوله:(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ) [النحل: ٢١]. وسمّى المؤمنين أحياء بقوله: (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا) [يس: ٧٠]أورث الأحياء الموتى.

والثاني: أنهم أورثوها عن الأعمال، لأنها جُعلت جزاءً لأعمالهم، وثوابًا عليها، إذ هي عواقبها، حكاه أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أن دخول الجنة برحمة الله، واقتسامَ الدرجات بالأعمال. فلما كان يفسَّر نيلها لا عن عوض، سميت ميراثًا. والميراث: ما أخذته عن غير عوض. والرابع: أن معنى الميراث ها هنا: أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث.

س: عن من ورث أهل الإيمان الجنان؟

ج: قال فريقٌ من أهل العلم: إنه ما من أحدٍ إلا وله مقعدان مقعدٌ في الجنة مقعدٌ في النار، فإذا دخل أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ، ورث أهل الجنة مقاعد الكفار التي كانت لهم فيها، وورث الكفار مقاعد أهل الإيمان في النار.

قَالَ تَعَالَى: وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيْنَهُمَا

حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ
أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦
وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا
مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا
يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ
تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ
ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩ وَنَادَىٰٓ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ
نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ
٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن
شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣

الكلمة	معناها
﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾	نادى مناد- أَعْلم مُعلمٌ.
﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾	غضب الله وسخطه وعقوبته وطرده من الرحمة.
﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	المراد بهم – هنا-: الكفار.
﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	دين الله- الطريق الموصلة إلى مرضاة الله.
﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾	يريدونها- يطلبونها.
﴿عِوَجًا﴾	معوجة.
﴿حِجَابٌ﴾	سور.
﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾	الأماكن المرتفعة، وقيل هي: السور الذي يحجز أهل الجنة عن أهل النار.
﴿كُلَّۢا﴾	أهل الجنة وأهل النار.
﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾	علاماتهم (ومن علامات أهل الجنة: بياض الوجوه، ومن علامات أهل النار: زرق العيون- سود الوجوه- العبوس والقمطرير.
﴿صُرِفَتۡ﴾	تحولت.
﴿تِلۡقَآءَ﴾	ناحية- جهة اللقاء- جهة المقابلة.
﴿جَمۡعُكُمۡ﴾	كثرتكم- فريقكم.
﴿لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾	سخريةً ولعبًا.
﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾	خدعتهم.
﴿نَنسَىٰهُمۡ﴾	نتركهم في العذاب.
﴿يَجۡحَدُونَ﴾	يكذبون.
﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾	بيَّناه ووضحناه.
﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾	على علم منا بما بيناه وفصَّلناه (فبيَّنا لكم الحق ونحن نعلم أنه الحق).
﴿يَنظُرُونَ﴾	ينتظرون.

الكلمة	معناها
﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾	ثوابه وجزاءه- عاقبته- ما وعدوا به من الثواب.
﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾	ضيَّعوا أنفسهم وبخسوها حقوقها ولم ينتفعوا بها.
﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾	بطل- غاب عنهم.
﴿يَفۡتَرُونَ﴾	يعبدون من دون الله- يدعون شريكًا لله.

كلام أهل الجنة مع أهل النار

س: اذكر بعض الأدلة على تكليم أهل الجنة لأهل النار أحيانًا.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ).

وقوله تعالى: (وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ).

قوله تعالى في شأن رجل من أهل الجنة لمَّا اطلع على شخص كان يعرفه في الدنيا: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ **[الصافات: ٥٥-٥٧]**.

س: ما الذي وعدهم به ربهم ووجدوه حقًّا؟

ج: كل ما وعدهم الله به ووعدهم به رسوله ﷺ من الجنة التي أُعدت للمطيعين والمتقين، ومن النار التي أُعدت للكافرين وغير ذلك، كله رأوه وتحققوا من صدقه ووقوعه، والله أعلم.

س: ما وجه السؤال في قول أصحاب الجنة لأصحاب النار: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾.

ج: هذا سؤال تقريع وتوبيخ وتانيب، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾.

ج: المعنى والله تعالى أعلم، الذين يصرفون الناس عن الطريق الموصلة إلى طاعة الله ومرضاته وجنته ويريدونها بدلًا من أن تكون سبيلًا واحدةً مستقيمةً توصل إلى الله وإلى مرضاته يريدونها سُبلًا كثيرة كلها معوجَّة ومنحرفة لا توصل إلى طاعة الله ولا إلى جنته ولا إلى مرضاته فبدلوا الدين وغيروا الشرائع وزيفوا العقائد وزينوا الباطل وزخرفوا طرائق الضلال.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: (ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) أَيْ: يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللهِ وَشَرْعِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَيَبْغُونَ أَنْ تَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ، حَتَّى لَا يَتَّبِعَهَا أَحَدٌ. (وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ) أَيْ: وَهُمْ بِلِقَاءِ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ، أَيْ: جَاحِدُونَ مُكَذِّبُونَ بِذَلِكَ لَا يُصَدِّقُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. فَلِهَذَا لَا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ، وَلَا عِقَابًا، فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ أَعْمَالًا وَأَقْوَالًا.

س: اذكر بعض أمثلة التقريع والتوبيخ التي يُقرَّع به الكفار ويُوبَّخون بها يوم القيامة؟

ج: أورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ طائفةً من ذلك فقال: ﴿ قَدْ ﴾ للتحقيق، أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدكم ربك حقًّا؟ قالوا: نعم. كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات: ٥٥- ٥٩].

أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكار، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا

تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٤-١٦].

وكذلك قرع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قتلى القليب يوم بدر؛ فنادى: «يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ» -وسمى رءوسهم- «هل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».

وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قَدْ جَيَّفُوا؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا»(١).

الأعراف وأصحابها

س: ما المراد بالحجاب المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾.

ج: هو حاجز (سور) يحجز بين أهل الجنة وأهل النار، وقد قيل إن هذا السور هو الأعراف.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾، وبين الجنة والنار حجاب، يقول: حاجز، وهو: السور الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾، وهو ﴿ ٱلْأَعْرَافِ ﴾ التي يقول الله فيها: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي: بين الجنة والنار حاجز وهو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ ﴾ فسمى هذا السور بالأعراف لارتفاعه.

س: ما المراد بالأعراف؟

ج: الأعراف عمومًا هي الأماكن المرتفعة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾، فإن ﴿ ٱلْأَعْرَافِ ﴾ جمع، واحدها «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو «عُرْف»، وإنما قيل لعُرف الديك «عرف»،

---

(١) انظر البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥)، ومسند أحمد (٣/١٠٤)، و(٢٨٧٤).

لارتفاعه على ما سواه من جسده، وكما سلف فقد قيل: إنها السور الذي يحجز بين أهل الجنة وأهل النار المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾.

س: من هؤلاء الرجال الذين هم على الأعراف؟

ج: لأهل العلم في ذلك جملةُ أقوالٍ:

أولها وأشهرها: وعليه أكثر أهل العلم أنهم قوم استوت حسناتهم مع سيئاتهم، فجعلوا هنالك إلى أن يقضي الله ﷻ فيهم بما يشاء، ثم يُدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم.

وقد صح عن الشعبي [١] أنه قال سُئِلَ حذيفة رضي الله عنه عن أصحاب الأعراف قال، فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال فوقفوا هنالك عل السور حتى يقضى الله فيهم.

القول الثاني: أن أصحاب الأعراف قومٌ قتلوا في سبيل الله عصاةً لآبائهم في الدنيا، وقد ورد بنحو ذلك حديث عن رسول الله ﷺ، لكنه ضعيف الإسناد، وفيه هم ناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم، ومنعهم من النار قتلهم في سبيل الله.

القول الثالث: هم قوم صالحون فقهون علماء، أخذوا منازلهم من الجنان وعرفوا درجاتهم فيها فأطلعهم الله على أهل الجنة وأهل النار كي يعرفوا فضل الله ﷻ.

ولكن هذا القول أراه ضعيفًا، فإن دعاءهم فيه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

القول الرابع: أنهم ملائكة، وهذا أيضًا قولٌ بعيد؛ لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

القول الخامس: أنهم العدول من كل الأمم يشهدون على أقوامهم.

القول السادس: أنهم أنبياء وهو قولٌ ضعيف أيضًا.

القول السابع: أنهم هُمْ قَوْمٌ كَانَتْ لَهُمْ صَغَائِرُ لَمْ تُكَفَّرْ عَنْهُمْ بِالْآلَامِ وَالْمَصَائِبِ فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ لَهُمْ كَبَائِرُ فَيُحْبَسُونَ عَنِ الْجَنَّةِ لِيَنَالَهُمْ بِذَلِكَ غَمٌّ فَيَقَعُ فِي مُقَابَلَةِ

---

(١) الطبري (١٤٦٩٤) وله طرق عن الشعبي إلا أنه تكلَّم بعض أهل العلم في سماع الشعبي من حذيفة.

صَغَائِرِهِمْ هذا، وثمت اقوال أُخر، والقول الأول هو أشهر الأقوال، والله أعلم، هذا ولم أقف على خَبَرٍ ثابتٍ عن رسول الله ﷺ في هذا الصدد مع أنه قد وردت أخبارٌ كثيرة عن رسول الله ﷺ، لكن في كل أسانيدها ضعف، والله أعلم.

س: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ من المعنيون به، ويطمعون في ماذا؟

ج: قيل إن المراد أصحاب الأعراف، وهم يطمعون في دخول الجنة، وهذا قول الجمهور كما نقله عنهم ابن الجوزي في «زاد المسير».

وقيل: إن المراد أهل الجنة الذين يمرون على أصحاب الأعراف وهم في طريقهم إلى الجنة.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

ج: أقول، وبالله تعالى التوفيق ومنه السداد، وهو أعلم بكتابه الذي أُنزل وبمراده الذي يريد، أهل الجنة بينهم وبين أهل النار سور يفصل بينهم، كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ وهذا السور، وثَمَّ أماكن مرتفعة عالية تفصل بين الجنة والنار عليها رجال وقفوا على هذه المرتفعات التي بين الجنة والنار فينظرون إلى أهل الجنة أحيانًا فيسلمون عليهم قائلين ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهؤلاء – أعني أصحاب الأعراف– لم يدخلوا الجنة بعد، ولكنهم يطمعون في دخولها ويرجون رحمة ربهم.

وقد جعل الله ﷻ لأهل الجنة سيما (علامات) معينة يعرفون بها، منها بياض الوجوه وأثر نضرة النعيم البادي على الوجوه.

وجعل الله لأهل النار (سيما) كذلك يُعرفون بها، ألا وهي سواد الوجوه، عياذًا بالله، وزرقة العيون، والغبرة والقترة البادية على الوجوه والعيون.

إنه منظرٌ مهيب، ومشهدٌ عجيب وموقف رهيب لأصحاب الأعراف هؤلاء، إذ ينظرون إلى أهل الجنة تارة وإلى ما هم فيه من النعيم المقيم والخيرات الحسان فيتمنون أن لو دخلوها ويسألون ربهم ذلك وينظرون إلى أهل النار تارةً أخرى وما هم

فيه من العذاب الأليم والجحيم والسعير والأغلال والسلاسل، وغير ذلك فيسألون ربهم أن يصرف ذلك عنهم قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- أن أصحاب الأعراف هؤلاء الذين وقفوا على سور بين الجنة والنار ينظرون أحيانًا إلى أهل الجنة ويرون ما هم فيه من النعيم المقيم فينادونهم سلام عليكم، ثم إن أبصارهم (أبصار أصحاب الأعراف) تتحول ثانية ناحية أهل النار فيرونهم ويرون ما هم فيه من العذاب والنكال والشقاء فيقولون ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا صرفت أبصارُ أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار، يعني: حِيالَهم وحِجاهم، فنظروا إلى تشويه الله لهم (قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها من سخطك ما أورثهم من عذابك ما هم فيه.

س: ما سيما أصحاب الجنة وأصحاب النار؟

ج: أما أصحاب الجنة فسيماهم (علاماتهم) بياض الوجوه، ونضرة النعيم البادية عليها وآثار السجود ونحو ذلك جعلنا الله منهم.

أما سيما أهل الكفر فسواد الوجوه وزرقة العيون كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ والغَبَرة التي تعلو الوجوه ونحو ذلك، عافانا الله من ذلك.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن أصحاب الأعراف- الذين تقدمت صفاتُهم- أطلعهم الله ﷻ على أهل النار فعرفوا قومًا فيها بعلاماتٍ كانوا يعرفونهم بها في الدنيا،

وبالعلامات التي عرَّفهم الله بها في الآخرة فنادوهم: يا فلان يا فلان إن جموعكم التي كنتم تتعززون بها في دنياكم من أهاليكم وأصدقائكم وأنصاركم وأتباعكم وخدمكم وحشمكم وجندكم كل هؤلاء ما أغنوا عنكم من عذاب من شيء، وكذا لم تغنِ عنكم أموالكم التي جمعتموها شيئًا، وكبركم واستغناؤكم عن الإيمان واستعلاؤكم، كلُّ ذلك لم يغنِ عنكم شيئًا ولم ينفعكم بشيء.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أَيْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أَيْ لِلدُّنْيَا وَاسْتِكْبَارُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْفُقَرَاءِ، كَبِلَالٍ وَسَلْمَانَ وَخَبَّابٍ وَغَيْرِهِمْ. ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ فِي الدُّنْيَا. ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿بِرَحۡمَةٍ﴾ يُوَبِّخُونَهُمْ بِذَلِكَ. وَزِيدُوا غَمًّا وَحَسْرَةً بِأَنْ قَالُوا لَهُمْ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾، من أهل الأرض ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾، سيما أهل النار ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾، ما كنتم تجمعون من الأموال والعَدَد في الدنيا ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، يقول: وتكبُّركم الذي كنتم تتكبرون فيها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَقْرِيعِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ لِرِجَالٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَقَادَتِهِمْ، يَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِسِيمَاهُمْ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ أَيْ: كَثْرَتُكُمْ، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أَيْ: لَا يَنْفَعُكُمْ كَثْرَتُكُمْ وَلَا جُمُوعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، بَلْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صِرْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن أهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معنا، وأن الله لن يدخلهم الجنة، فيقول الله تعالى لأهل النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني أهل الأعراف ﴿ٱلَّذِينَ

أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ) رواه وهب بن منبه عن ابن عباس.

قال حذيفة: بينا أصحاب الأعراف هنالك، اطَّلع عليهم ربهم فقال لهم: ادخلوا الجنة فاني قد غفرت لكم.

والثاني: أن أهل الأعراف يرون في الجنة الفقراء والمساكين الذين كان الكفّار يستهزئون بهم، كسلمان، وصهيب، وخبَّاب، فينادون الكفار: (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ) وأنتم في الدنيا (لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ). قاله ابن السائب.

فعلى هذا ينقطع كلام أهل الأعراف عند قوله: (بِرَحْمَةٍۚ) ويكون الباقي من خطاب الله لأهل الجنة.

س: وضح معنى قوله: (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله ﷻ يقول لأهل النار أهؤلاء-يعني: أهل الأعراف- الذين أقسمتم يمينًا في شأنهم يا أهل النار وحلفتم أنهم سيدخلون النار، ولن ينالهم الله برحمة؟!

هؤلاء (أصحاب الأعراف) قد مننتُ عليهم وتفضلت عليهم ورحمتهم أقول لهم الآن ادخلوا الجنة يا أصحاب الأعراف لا خوف عليكم من النار التي رأيتموها ورأيتم أهلها وخاطبتموهم، ولا أنتم تحزنون على شيء قد فاتكم من قبل، فالجنة ولله الحمد مثواكم.

أمَّا متى أقسم الكفار يمينًا أن أصحاب الأعراف لن يدخلوا الجنة؟ فقد قيل: إن ذلك كان في الدنيا، وقيل: إنه في الآخرة لما رأوهم تخلفوا عن دخول الجنة، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ).

ج: هذا إخبار عن حالٍ من أحوال أهل النار وخطابهم مع أهل الإيمان، وذلك، والله أعلم أن الله ﷻ يُطلع أهل النار على أهل الجنة فيرون أهل الجنة وما هم فيه من

النعيم المقيم الرزق الوفير والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، فحينئذ يستغيث أهل النار بأهل الجنة كي يُفيضوا عليهم شيئًا من الماء يتبردون به أو شيئًا من الطعام يقتاتون، يسأل الولد الكافر أباه المؤمن وتسأل الأم الكافرة ابنها المؤمن، عمومًا يسألون أهل الجنة: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، فيجيب أهل الجنة بامتناع وإباءٍ (إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن استغاثة أهل النار بأهل الجنة، عند نزول عظيم البلاء بهم من شدة العطش والجوع، عقوبةً من الله لهم على ما سلف منهم في الدنيا من ترك طاعة الله، وأداء ما كان فرض عليهم فيها في أموالهم من حقوق المساكين من الزكاة والصدقة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَنَادَىٰٓ) قِيلَ: إِذَا صَارَ أَهْلُ الْأَعْرَافِ إِلَى الْجَنَّةِ طَمِعَ أَهْلُ النَّارِ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا إِنَّ لَنَا قَرَابَاتٍ فِي الْجَنَّةِ فَأْذَنْ لَنَا حَتَّى نَرَاهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ. وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَعْرِفُونَهُمْ لسواد وجوههم. فيقولون: (أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ) فَبَيَّنَ أَنَّ ابْنَ آدَمَ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَإِنْ كَانَ فِي الْعَذَابِ. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يَعْنِي طَعَامَ الْجَنَّةِ وَشَرَابَهَا. وَالْإِفَاضَةُ التَّوْسِعَةُ، يُقَالُ: أَفَاضَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ.

س: اذكر شيئًا من الوارد عن رسول الله ﷺ في فضل سقيا الماء.

ج: من الوارد في هذا ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم (١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».

(١) البخاري (٢٣٦٣) ومسلم (٢٢٤٤).

وعند البخاري ومسلم(١) أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا». وفي رواية في الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة. قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ».

وفي التحذير من منع الماء ما يدل على عظيم إثم من خالفه،ومن الدليل على ذلك قوله تعالى لابن آدم يوم القيامة(٢) «يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ».

وفي الصحيحين(٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ» قَالَ: فَقَالَ: وَاللهُ أَعْلَمُ: «لاَ أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلاَ سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلاَ أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ».

وعند البخاري(٤) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ: «صَلَّى صَلاَةَ الكُسُوفِ، فَقَالَ: «دَنَتْ مِنِّي النَّارُ، حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَإِذَا امْرَأَةٌ، حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا».

وأخرج البخاري(٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللهُ: اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ ».

---

(١) البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥).
(٢) مسلم (حديث ٢٥٦٩).
(٣) البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).
(٤) البخاري (حديث ٢٣٦٤).
(٥) البخاري (حديث ٢٣٦٩)، وفي سنده بعض الاختلاف وقد أعلَّه بعض الحفاظ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، الذين اتخذوا ما أمرهم الله به وما نهاهم عنه سخريةً واستهزاء، فكل من دعاهم إلى الله سخروا منه واستهزؤوا به وبما يدعوهم إليه، وبما يحذرهم ويخوفهم منه، وخدعتهم دنياهم بم فيها من زخارف ومتاع عاجل غير آجل وصرفتهم عن العمل للآخرة أتتهم منيتُهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فاليوم نترك هؤلاء الذين اتخذوا آيات الله هُزوًا وغرتهم الحياة الدنيا، نتركهم في العذاب ونعاملهم معاملة من نسيهم، فلا نخرجهم من النار ولا نغيثهم إذا استغاثوا، ولا نجيبهم إذا دعوا، وذلك لكونهم كذَّبوا باليوم الآخر ولم يعملوا له وتناسوه بل وكانوا بآياتنا يكذبون وكانوا لها منكرين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾، يقول: وخدعهم عاجلُ ما هم فيه من العيش والخفض والدَّعة، عن الأخذ بنصيبهم من الآخرة، حتى أتتهم المنية يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾، أي ففي هذا اليوم، وذلك يوم القيامة ﴿نَنسَىٰهُمْ ﴾، يقول: نتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتأويل الكلام: فاليوم نتركهم في العذاب، كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله يوم القيامة، وكما كانوا بآيات الله يجحدون، وهي حججه التي احتج بها عليهم، من الأنبياء والرسل والكتب وغير ذلك، ﴿يَجْحَدُونَ ﴾، يكذبون ولا يصدقون بشيء من

ذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أَيْ: نُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ نسيهم؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشِذُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾.

وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾.

وَقَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾.

وأورد خ[1] الحديث القدسي الذي فيه أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: « **ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَقُولُ: «أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ الله تعالى: فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**».

س: ما المراد بهذا الكتاب؟

ج: المراد به القرآن. والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أننا فصلنا فيه الحق من الباطل وبينا هذا من ذلك، فكل ما هو حق بينا لكم في هذا الكتاب العزيز أنه حق ورغبناكم فيه، وكل ما هو باطل حذرناكم منه بهذا الكتاب العزيز، وكل ذلك على علم منا بما فصلناه وبيناه فكل ما قال الله عنه أنه حق فهو حق، وكل ما أبطله الله ﷻ وبيَّن بطلانه فهو باطل.

أما قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ أي: فصلناه لهداية القوم المؤمنين ولرحمتهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أقسم، يا محمد، لقد جئنا هؤلاء الكفرة بكتاب = يعني القرآن

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤٢٨) ولفظه: «**أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا، وَمَالًا، وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فِي يَوْمِكَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**».

الذي أنزله إليه. يقول: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآن، مفصَّلا مبيَّنًا فيه الحق من الباطل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يقول: على علم منا بحقِّ ما فُصِّل فيه، من الباطل الذي مَيَّز فيه بينه وبين الحق ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، يقول: بيناه ليُهْدَى ويُرْحَم به قومٌ يصدقون به، وبما فيه من أمر الله ونهيه، وأخباره، ووعده ووعيده، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى.

س: ما وجه الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾. وما معنى هذا القدر من الآية الكريمة؟

ج: كان الاستفهام هنا، والله تعالى أعلم، للتوبيخ والتهديد، فكأن المعنى ماذا ينتظر هؤلاء الجاحدون المعرضون المكذبون المستهزئون؟! إنهم، وبعد تكذيبهم، لا ينبغي أن ينتظروا شيئًا إلا تحقق ما وُعدوا به من العذاب إما في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد، وغير ذلك، وإما في الآخرة بعذاب النار وبئس المصير.

فتأويله هنا المراد بها: تحققه ووقوعه، وقيل: المراد بـ (تأويله) ثوابه وجزاؤه، أو تحقق الثواب ووقوع العقاب ولا تعارض بين هذه المعاني، فقد وُعدوا على الطاعة بالثواب وتوعدهم الله على العصيان بالجحيم، وتأويل ذلك وتحققه كائنٌ ولابد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويجحدون لقاءه ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، يقول: إلا ما يؤول إليه أمرهم، من ورودهم على عذاب الله، وصِلِيِّهم جحيمه، وأشباه هذا مما أوعدهم الله به.

قلت: هذا، وتأويل - أي تحقق ما وعُدوا به - قد يكون في الدنيا وسيكون في الآخرة، وقد وقع يوم بدرٍ شيءٌ من تأويله، وكذا في فتح مكة وفي غير ذلك، وبلا شك أن أعظم وقتٍ يتحقق فيه كل ما وعدوا به - لا بعضه - هو يوم القيامة وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ هذا، وقد أورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد قال في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾، قال: يوم يأتي حقيقته، وقرأ قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ **[يوسف: ١٠٠]**.

قال: هذا تحقيقها. وقرأ قول الله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧]، قال: ما يعلم حقيقته ومتى يأتي، إلا الله تعالى.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ)، فإن معناه: يوم يجيء ما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله (يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ)، أي: يقول الذين ضيَّعوا وتركوا ما أمروا به من العمل المنجيهم مما آل إليه أمرهم يومئذ من العذاب، من قبل ذلك في الدنيا (لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ)، أقسم المساكين حين عاينوا البلاءَ وحلّ بهم العقاب: أنّ رسل الله التي أتتهم بالنِّذارة وبلغتهم عن الله الرسالة، قد كانت نصحت لهم وصَدَقتهم عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديق. ولا ينجيهم من سَخَط الله وأليم عقابه كثرة القال والقيل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ أَيْ مَا وعدوا به مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَقَالَ مَالِكٌ: ثَوَابَهُ. وَقَالَ الرَّبِيعُ: لا يزال يجيء من تَأْوِيلُهُ أَمْرٌ حَتَّى يَتِمَّ يَوْمَ الْحِسَابِ حَتَّى يَدْخُلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ فيتم تأويله يومئذٍ وقوله: (هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ) أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ (يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ) أَيْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ وَتَنَاسَوْهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا (قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ) أَيْ فِي خلاصنا مما صرنا إليه مِمَّا نَحْنُ فِيهِ (أَوۡ نُرَدُّ) إِلَى الدَّارِ الدنيا (فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ) كَقَوْلِهِ (وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ) [الأنعام: ٢٧- ٢٨] كَمَا قَالَ هَاهُنَا (قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ) أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها (وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ) أَيْ ذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

س: وضح معنى قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، يوم يأتي تحقق ما وعدوا به من الثواب العقاب، ألا وهو يوم القيامة الذي تجزي كل نفس فيه بما كسبت يقول الذين تركوا هذا القرآن وهجروه وكذبوا بما فيه وكذَّبوا باليوم الآخر وبالجنة والنار، يقولون: قد جاءت رسل ربنا بالحق وبيانه وبالحث عليه، فهل لنا من شفعاء يشفعوا لنا عند ربنا حتى يرحمنا أو يشفعوا لنا كي نرجع إلى الدنيا فنعمل عملًا صالحًا غير الذي عملناه، وقطعًا لا جواب ولا شفيع لهم ولا مجيب فمن ثَمَّ قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: باعوها بثمن بخس لما اعتاضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة، ورضوا بالدنيا واطمأنوا بها وزهدوا في الآخرة ورغبوا عنها، لقد تسببوا لأنفسهم في الجحيم، أما عن الآلهة التي كانوا في دنياهم يعبدونها مع الله ومن دون الله فكلها قد غابت عنهم واختفت فما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم، أنهم يقولون عند حلول سَخَط الله بهم، وورودهم أليمَ عذابه، ومعاينتهم تأويل ما كانت رسلُ الله تعِدهم: هل لنا من أصدقاءَ وأولياء اليوم فيشفعوا لنا عند ربنا، فتنجينا شفاعتهم عنده مما قد حلّ بنا من سوء فعالنا في الدنيا أو نردّ إلى الدنيا مرة أخرى، فنعمل فيها بما يرضيه ويُعْتِبُه من أنفسنا؟ قال هذا القولَ المساكينُ هنالك، لأنهم كانوا عهدوا في الدنيا أنفسهم لها شفعاء تشفع لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقت لا خُلة فيه لهم ولا شفاعة.

يقول الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: (قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ)، يقول: غَبَنوا أنفسهم حظوظها، ببيعهم ما لا خطر له من نعيم الآخرة الدائم، بالخسيس من عَرَض الدنيا الزائل (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)، يقول: وأسلمهم لعذاب الله، وحار عنهم أولياؤهم، الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ويزعمون كذبًا وافتراء أنهم أربابهم من

(١٢٩) أحمر
أسود

دون الله.

(١٣٠) أحمر
أسود

قَالَ تَعَالَى:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨

الكلمة	معناها
﴿رَبَّكُمُ﴾	سيدكم- مصلح أموركم- منعم عليكم بنعمه.
﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾	يغطي الليلُ بظلامه النهار.
﴿حَثِيثٗا﴾	سريعًا.
﴿تَبَارَكَ﴾	ازداد خيره وعطاؤه ونما وتعالى وتعاظم وارتفع.
﴿تَضَرُّعٗا﴾	تذللًا- استكانةً.
﴿وَخُفۡيَةً﴾	سرًّا (بخشوع قلب).
﴿بُشۡرَۢا﴾	مبشرات تُبشر بالمطر.

الكلمة	معناها

(١٣١) أحمر
أسود

﴿نُشْرًا﴾	طيبة لينة الهبوب.
﴿بَيْنَ يَدَىْ﴾	أمام – متقدمةً (للمطر).
﴿أَقَلَّتْ﴾	حملت.
﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾	حملت سحابًا كثير الماء.
﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾	ليس فيه نبات.
﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾	الأرض الطيبة التي طابت تربتها، العذبةُ مشاربها.
﴿خَبُثَ﴾	الأرض الخبيثة التربة، رديئة التربة.
﴿نَكِدًا﴾	عَسرًا– قليلًا تافهًا.
﴿نُصَرِّفُ﴾	ننوع– نبين.
﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾	ننوع الآيات في الموضوع الواحد حتى يفهم ولإقامة الحجة

س: ما الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض وما بينهما؟

ج: هذه الأيام هي أيام الأسبوع ما عدا السبت، فهي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن اليوم من هذه الأيام كألف سنةٍ مما نعدُّ وليس كأيامنا، والله أعلم(١).

الحكمة من خلق السموات والأرض في ستة أيام

س: ما الحكمة من خلق السموات والأرض في ستة أيام، والله قادر على أن يخلقها بكلمة كن فيكون؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَذَكَرَ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَلَوْ أَرَادَ خَلْقَهَا فِي لَحْظَةٍ لَفَعَلَ، إِذْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَقُولَ لَهَا كُونِي فَتَكُونُ.

(١) وقد تقدم مزيد من الكلام على هذه الآية في سورة البقرة فراجعها إن شئت.

وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَ الْعِبَادَ الرِّفْقَ وَالتَّثَبُّتَ فِي الْأُمُورِ، وَلِتَظْهَرَ قُدْرَتُهُ لِلْمَلَائِكَةِ شَيْئًا بَعْدَ شي.

وَهَذَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ: خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَحِكْمَةٌ أُخْرَى- خَلَقَهَا فِي ستة أيام لأن لكل شي عِنْدَهُ أَجَلًا. وَبَيَّنَ بِهَذَا تَرْكَ مُعَاجَلَةِ الْعُصَاةِ بالعقاب، لأن لكل شي عنده أجلا.

وهذا كقول: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) [ق: ٣٨، ٣٩]. بَعْدَ أَنْ قَالَ:(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا) [ق: ٣٦].

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

فان قيل: فهلاَّ خلقها في لحظة، فانه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الانباري.

والثاني: أن التثبُّت في تمهيد ما خُلق لآدم وذرّيّته قبل وجوده، أبلغُ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قول: كُنْ فَيَكُونُ.

والرابع: أنه علّم عباده التثبُّت، فاذا تثبت من لا يزلُّ، كان ذو الزّلل أولى بالتثبُّت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.

س: اذكر بعض الأدلة على استقرار الله ﷻ على عرشة؟

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ وقد تقدمت عدة

نصوص في هذا الباب في تفسير سورة البقرة من كتابي «التسهيل» فراجعه إن شئت.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، يغطي الليل بظلامه النهار ويطلبه سريعًا لا يتأخر عن وقته فإذا انتهى النهار جاء الليل بظلامه سريعًا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا) أَيْ: يَذْهَبُ ظَلَامُ هَذَا بِضِيَاءِ هَذَا، وَضِيَاءُ هَذَا بِظَلَامِ هَذَا، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا، أَيْ: سَرِيعًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، بَلْ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس:٣٧-٤٠].

فَقَوْلُهُ: (وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ) أَيْ: لَا يَفُوتُهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أن الشمس والقمر والنجوم كلها مسخرة مُذلَّلة بتسخير الله عَزَّ وَجَلَّ لها وتذليله لها فلا تستطيع حراكًا ولا انتقالًا ولا طلوعًا ولا غروبًا ولا سقوطًا ولا بقاءً إلا بإذن الله كما قال تعالى: (وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ)، فالمخلوقات كلها بما فيها الشمس والقمر والنجوم مِلكٌ لله يأمر فيها بما يشاء ويحكم فيها بما يريد، تعالى ربنا وتعاظم وتكاثر الخير الوارد منه ونما فهو رب العالمين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِهَذَا قَالَ: (يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ) مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ،

وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى،

أَيِ: الْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ منبِّهًا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾؟ أَيْ: لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، كقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، كلّ ذلك بأمره، أمرهن الله فأطعن أمرَه، ألا لله الخلق كله، والأمرُ الذي لا يخالف ولا يردّ أمره، دون ما سواه من الأشياء كلها، ودون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا تأمر، تبارك الله معبودُنا الذي له عبادة كل شيء، رب العالمين.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾.

ج: هذا حثٌّ على الدعاء في خفاء بتذلل وتضرع واستكانة.

س: ما وجه الربط بين قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾.

ج: وجه ذلك، والله أعلم، أن الأمر لما كان لله عَزَّ وَجَلَّ، وكذا الخلق خلقه ع وتكاثر الخير الوارد من عنده، ناسب ذلك أن نسأله كل ما نُريد وكلَّ ما نرجو فمن ثم قيل: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾.

س: اذكر بعض الأدلة على استحباب إخفاء الدعاء؟

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى في شأن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾.

وفعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ كان يقوم من الليل إذا ظن أهله قد ناموا فيدعو ويجتهد في الدعاء.

وقد أوردت مزيدًا من ذلك في تفسير سورة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ.

س: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ما المراد بالاعتداء ها هنا؟

ج: قال كثيرٌ من أهل العلم: إن المراد بالاعتداء هنا الاعتداء في الدعاء.

وقد ذكر العلماء في ذلك وجوهًا:

أحدها: أن يدعو على المسلمين بالشر، وبالخزي واللعنة.

الثاني: أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء، ومن ما لم يعطه الله بني آدم.

الثالث: أنه الجهر في الدعاء، في المواطن التي لم يرد فيها الجهر، والله أعلم.

هذا: ومن العلماء من قال: إن المراد بالاعتداء ها هنا مجاوزة الحد المأمور به عمومًا في الدعاء وغيره، والله أعلم.

س: اذكر بعض صور الاعتداء في الدعاء؟

ج: من صور الاعتداء في الدعاء ما يلي:

ما ورد في حديث رسول الله ﷺ: سؤالهم ما لا يليق بهم، وما لا علم لهم به، وسؤالهم ما يخالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وفي «سنن أبي داود»، و«مسند الإمام أحمد»[1] بسند صحيح عن أبي نعامة: أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: «**اللَّهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها**». فقال: يا بني سل الله ع الجنة وعُذْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطهُور**».

۞ ومن صور الاعتداء في الدعاء: أن يسأل الشخص ما لا يليق به، كمن يسأل ربه منازل الأنبياء وكمن يسأل ربه الوسيلة التي لا تنبغي إلا العبد من عباد الله يرجوها رسول الله ﷺ لنفسه، وكمن يسأل أن يكون له الشفاعة العظمى يوم القيامة، أو يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، كمن يسأل ربه أن ييسر له أمر السرقة وأمر الزنا وأمر الرِّشوة، أو يسأل ربه أن يفرق بين المسلمين، أو يسأل ربه أن يُخلد أبد الدهر أو يسأل ربه أن يفرق بين المسلمين، أو يسأل ربه أن يُخلد أبد الدهر أو يسأل ربه أن يغنيه عن الطعام والشراب طول حياته، فنحو هذه الأدعية مما يناقض حكمة الله ويخالف أمره ويضاد ما شرعه فكل ذلك اعتداء في الدعاء، وقد قال ع: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. فدعاء الرب بما

(١) أحمد في «المسند» (٥/٥٥)، وأبو داود (١٦٢/٢)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وغيرهم.

يخالف ما أمر به يعد اعتداءً في الدعاء.

والأمور التي علمنا من كتاب ربنا ﷻ ومن سنة نبينا ﷺ أن الله قد قضى قضاءً، ليس لن أن ندعو فيها بخلاف ما قضى فيها ربنا ﷻ.

۞ فليس لأحد أن يدعو للشيطان بالهداية والرحمة بعد أن ظهر قضاء الله فيه.

۞ وإبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه لما علم أنه عدو لله ولم يكن له أن يدعو له بالمغفرة.

۞ ونبينا ﷺ قال لعمه: «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» ثم قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

والشهداء لما سألوا ربهم الرجوع إلى الدنيا لم يجب لهم هذا الطلب.

وليس لأحد أن يسأل لنفسه النوبة بعد أن قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن صور الاعتداء في الدعاء(١): رفع الصوت(٢) به رفعًا زائدًا، ففي «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا**» ثُمَّ أَتَى عَلَيَّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَقَالَ: «**يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ**» أَوْ قَالَ: «**أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**».

وقد قال تعالى كما تقدم: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

---

(١) وقد فسر الاعتداء في الدعاء بالصياح في الدعاء أيضًا.

(٢) وقد وردت أن رسول الله ﷺ دعا بصوت سمعه أصحابه في بعض المواطن - ولكن ليس بتلك الصورة المرتفعة التي تشبه الصياح فقد دعا يوم بدر وسمعه أصحابه ودعا في الاستسقاء وسمعه أصحابه، ودعا الاخ لأبي موسى الأشعري وسمعه أصحابه و..فيقال: إن لرفع الصوت بالدعاء مواطن يفعل فيها وهي الورادة عن رسول الله ﷺ وما سوى ذلك فالأصل في الدعاء والذكر الخفية للآية: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .... ﴾ وهذا من المسائل التي ستستفيض فيها إن شاء الله في كتابنا الكبير: (فقه الدعاء)، يسر الله إتمامه.

[الأعراف: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير القيم: بعد أن ذكر حديث: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء».

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله، مثل يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب أو يسأله أن يطلعه على غيبه أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولدا من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء. فكل سؤال يناقض حكمة الله أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب رسله.

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا في الدعاء. قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء، والنداء في الدعاء والصياح

وبعد: فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادا بها فهو من جملة المراد والله لا يحب المعتدين في كل شيء، دعاء كان أو غيره، كما قال: (وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) [البقرة: ١٩٠].

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم الذين يدعون معه غيره. فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا. فإن أعظم العدوان هو الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها. فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلا في قوله: (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) [الأعراف: ٥٥].

ومن العدوان: أن يدعوه دعاء غير متضرع، بل دعاء مدلّ، كالمستغني بما عنده المدل على ربه به. وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته. فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد.

ومن الاعتداء: أن تعبده بما لا يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه. فإن هذا الاعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة

والطلب.

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب ع مرضى له، وهو الدعاء تضرعا وخفية.

والثاني: مكروه له مبغوض مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير. وهو أنه لا يحب فاعله، ومن لم يحبه الله فأي خير يناله؟.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] دليل على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم. فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعا وخفية، ومعتد بترك ذلك.

النهي عن الإفساد في الأرض وبيان بعض صور الإفساد

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

ج: هذا يتضمن النهي عن كل صور الإفساد في الأرض فمن ذلك الشرك بالله فهو أشد الفساد، وكذا تكذيب الرسل، وكذلك العصيان والتمرد على أوامر الله ﷻ فذلك فسادٌ في الأرض، وكذلك لا تفسدواها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل، وكذلك تحريق الزروع والثمار وتخريب الآبار وهدم الطرق وتقطيع الأشجار لغير فائدة ونشر الرذائل ومحاربة الفضائل، وغير ذلك، كله من الإفساد في الأرض.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، لا تشركوا بالله في الأرض ولا تعصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها.

وقد ذكرنا الرواية في ذلك فيما مضى، وبينا معناه بشواهده.

﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ يقول: بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته، بابتعاثه فيهم الرسل دعاة إلى الحق، وإيضاحه حججه لهم ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، يقول: وأخلصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئًا غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك، وليكن ما يكون منكم في ذلك خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.

وإنّ مَن كان دعاؤه إياه على غير ذلك، فهو بالآخرة من المكذبين، لأنّ من لم يخف عقابَ الله ولم يرجُ ثوابه، لم يبال ما ركب من أمر يسخَطه الله ولا يرضاه ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا، قريب منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعدّ لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ فِيهِ مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَهَى عَنْ كُلِّ فَسَادٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ بَعْدَ صَلَاحٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ. فَهُوَ عَلَى الْعُمُومِ عَلَى الصَّحِيحِ من الأقوال.

وقال الضحاك: معناه لا تعوروا الْمَاءَ الْمَعِينَ، وَلَا تَقْطَعُوا الشَّجَرَ الْمُثْمِرَ ضِرَارًا.

وَقَدْ وَرَدَ: قَطْعُ الدَّنَانِيرِ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَقَدْ قِيلَ: تِجَارَةُ الْحُكَّامِ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: الْمُرَادُ وَلَا تُشْرِكُوا، فَهُوَ نَهْيٌ عَنِ الشِّرْكِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَالْهَرْجِ فِي الْأَرْضِ، وَأَمْرٌ بِلُزُومِ الشَّرَائِعِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَهَا اللهُ بِبَعْثِهِ الرُّسُلَ، وَتَقْرِيرِ الشَّرَائِعِ وَوُضُوحِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَائِلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ قَصَدَ إِلَى أَكْبَرِ فَسَادٍ بَعْدَ أَعْظَمِ صَلَاحٍ فَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ.

قُلْتُ: وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الضَّحَّاكُ فَلَيْسَ عَلَى عُمُومِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِذَا كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَأَمَّا مَا يَعُودُ ضَرَرُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَذَلِكَ جَائِزٌ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ عَوَّرَ مَاءَ قَلِيبِ بَدْرٍ وَقَطَعَ شَجَرَ الْكَافِرِينَ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي قَطْعِ الدَّنَانِيرِ فِي «هُودٍ» إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وادعوه خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا) أَمْرٌ بِأَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ فِي حَالَةِ تَرَقُّبٍ وَتَخَوُّفٍ وَتَأْمِيلٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ لِلإِنْسَانِ كَالْجَنَاحَيْنِ لِلطَّائِرِ يَحْمِلانِهِ فِي طَرِيقِ اسْتِقَامَتِهِ، وَإِنِ انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا هَلَكَ الإِنْسَانُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]. فَرَجَّى وَخَوَّفَ. فَيَدْعُو الإِنْسَانُ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَالْخَوْفُ: الانْزِعَاجُ لِمَا لَا يُؤْمَنُ مِنَ الْمَضَارِّ. وَالطَّمَعُ: تَوَقُّعُ الْمَحْبُوبِ.

قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: يَنْبَغِي أَنْ يَغْلِبَ الْخَوْفُ الرَّجَاءَ طُولَ الْحَيَاةِ، فَإِذَا جَاءَ الْمَوْتُ غَلَبَ الرَّجَاءُ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ». صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

س: لماذا قيل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل قريبة؟

ج: قال بعض أهل العلم، أن المعنى: إن ثواب الله قريب من المحسنين.

وذكر القرطبي سبعة أوجهٍ ها هنا فقال:

أَوَّلُهَا: أَنَّ الرَّحْمَةَ وَالرُّحْمَ واحد، وهي بمعنى العفو الغفران، قَالَهُ الزَّجَّاجُ وَاخْتَارَهُ النَّحَّاسُ.

وَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: الرَّحْمَةُ مَصْدَرٌ، وَحَقُّ الْمَصْدَرِ التَّذْكِيرُ، كَقَوْلِهِ: (فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ) [البقرة: ٢٧٥].

وَهَذَا قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِ الزَّجَّاجِ، لِأَنَّ الْمَوْعِظَةَ بِمَعْنَى الْوَعْظِ.

وَقِيلَ: أَرَادَ بالرحمة الإحسان، وَلِأَنَّ مَا لَا يَكُونُ تَأْنِيثُهُ حَقِيقِيًّا جَازَ تَذْكِيرُهُ، ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالرَّحْمَةِ هُنَا الْمَطَرَ، قَالَهُ الْأَخْفَشُ.

قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يُذَكَّرَ كَمَا يُذَكَّرُ بَعْضُ الْمُؤَنَّثِ. وَأَنْشَدَ:

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ... وَلَا أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ذُكِّرَ« قَرِيبٌ» عَلَى تَذْكِيرِ الْمَكَانِ، أَيْ مَكَانًا قَرِيبًا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ: وَهَذَا خَطَأٌ، وَلَوْ كَانَ كَمَا قَالَ لَكَانَ« قَرِيبٌ» مَنْصُوبًا فِي الْقُرْآنِ، كَمَا تَقُولُ: إِنَّ زَيْدًا قَرِيبًا مِنْكَ. وَقِيلَ: ذُكِّرَ عَلَى النَّسَبِ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ ذَاتُ قُرْبٍ، كَمَا تَقُولُ: امْرَأَةٌ طَالِقٌ وَحَائِضٌ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: إِذَا كَانَ الْقَرِيبُ فِي مَعْنَى الْمَسَافَةِ يُذَكَّرُ مؤنث، إن كَانَ فِي مَعْنَى النَّسَبِ يُؤَنَّثُ بِلَا اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ. تَقُولُ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ قَرِيبَتِي، أَيْ ذَاتُ قَرَابَتِي، ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ.

وَذَكَرَهُ غَيْرُهُ عَنِ الْفَرَّاءِ: يُقَالُ فِي النَّسَبِ قَرِيبَةُ فُلَانٍ، وَفِي غَيْرِ النَّسَبِ يَجُوزُ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، يُقَالُ: دَارُكَ مِنَّا قَرِيبٌ، وَفُلَانَةُ مِنَّا قَرِيبٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وَقَالَ مَنِ احْتَجَّ لَهُ: كَذَا كَلَامُ الْعَرَبِ، كَمَا قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

لَـهُ الْوَيْـلُ إِنْ أَمْسَـى وَلَا أُمُّ هَاشِـمٍ ... قَرِيـبٌ وَلَا الْبَسْبَاسَـةُ ابْنَـةُ يَشْـكُرَا

قَالَ الزَّجَّاج: وَهَذَا خَطَأٌ، لِأَنَّ سَبِيلَ المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قال الفراء: رأيت العرب تؤنِّث القريبة في النسب، لا يختلفون في ذلك، فاذا قالوا: دارك منا قريب، أو فلانة منّا قريب، ومن القرب والبعد، ذكّروا وأنّثوا، وذلك أنهم جعلوا القريب خَلَفًا من المكان، كقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]. وقوله تعالى:﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ولو أُنِّث ذلك لكان صوابًا. قال عروة:

عَشِـيَّةَ لاَ عَفْـرَاءُ مِنْـكَ قرِيبَـةٌ ... فَتَـدْنُو وَلاَ عَفْـرَاءُ مِنْـكَ بَعِيـدُ

وقال الزجاج: إنما قيل: «قريب» لأن الرحمة والغفران والعفو بمعنى واحد، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي. وقال الأخفش: جائز أن تكون الرّحمة ها هنا في معنى المطر.

س: في قوله تعالى: (نُشرًا) قراءتان وضحهما مع بيان معنيهما.

ج: القراءة الأولى: (نُشرًا) بالنون، ومعناها الطيبة لينة الهبوب.

والثانية: ﴿بُشْرًا﴾ أي: مبشرات بالمطر، والله أعلم.

س: اذكر آية في معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾

ج: في معناها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

س: ما المراد بالرحمة في قوله تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

ج: المراد بها، والله أعلم، الغيث (المطر) الذي يرحم الله به العباد والبهائم ويحيي به الأرض بعد موتها.

س: كثيرًا ما يضرب المثل ليوم القيامة وإحياء الأنفس بعد موتها بإحياء الأرض بعد موتها دلل على ذلك.

ج: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله ﷻ الذي سخر الشمس والقمر والنجوم، والذي له الخلق والأمر هو الذي يرسل الرياح طيبة الهبوب لينة مبشرات بالمطر

ومقدماتٍ له، وهذه الرياح تسوق السحب وتحملها وتجمعها وتضم بعضها حتى إذا حملت سُحبًا كثيرة وتثاقلت تلك السحب ساقها الله لبلدةٍ ليس فيها نبات، فأنزلت ماءها وأنبتت الأرض بإذن الله، فأخرج الله بذلك من كل صنوف الثمار حلوها وحامضها، أحمرها وأصفرها، وأخضرها وغير ذلك، وهكذا وكما أننا أخرجنا صنوف الثمار بهذا الماء النازل من السماء فإننا نخرج الموتى يوم القيامة.

وهذا الذي ترونه من إحياء الأرض بعد موتها أريناكم إياه لعلكم تتذكرون بعثكم يوم القيامة، ولعلكم من ثمَّ تتعظون وتعتبرون.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والله الذي يرسل الرياح ليّنًا هبوبها، طيبًا نسيمها، أمام غيْثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحابًا ثقالا حتى إذا أقلتها، و«الإقلال» بها، حملها، كما يقال: «استقلّ البعير بحمله»، و«أقله»، إذا حمله فقام به، ساقه الله لإحياء بلد ميت، قد تعفَّت مزارعه، ودَرَست مشاربه، وأجدب أهلُه، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات.

وأما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فإنه يقول تعالى ذكره: كما نحيي هذا البلد الميت بما ننزل به من الماء الذي ننزله من السحاب، فنخرج به من الثمرات بعد موته وجدوبته وقُحُوط أهله، كذلك نخرج الموتى من قبورهم أحياءً بعد فنائهم ودروس آثارهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، يقول تعالى ذكرُه للمشركين به من عبدة الأصنام، المكذبين بالبعث بعد الممات، المنكرين للثواب والعقاب: ضربتُ لكم، أيها القوم، هذا المثل الذي ذكرت لكم: من إحياء البلد الميت بقَطْر المطر الذي يأتي به السحاب الذي تنشره الرياح التي وصفت صفتها، لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أن مَنْ كان ذلك من قدرته، فيسيرٌ في قدرته إحياء الموتى بعد فنائها، وإعادتها خلقًا سويًّا بعد دُرُوسها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أَيْ: حَمَلَتِ الرِّيَاحُ سَحَابًا ثِقَالًا أَيْ: مِنْ كَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ، تَكُونُ ثَقِيلَةً قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ مُدْلَهِمَّةً، كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو ابْنِ نُفَيْلٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١٤٤) أحمر
أسود

وأسـلمتُ وجْهِـي لمـنْ أسْـلَمَتْ ... لَـهُ المُـزْنُ تَحْمـل عَـذْبا زُلالا

وأسـلَمْتُ وَجْهـي لِمَـنْ أسـلَمَتْ ... لَـهُ الْأَرْضُ تحمـلُ صَـخرًا ثِقَـالًا

وَقَوْلُهُ: (سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ) أَيْ: إِلَى أَرْضٍ مَيِّتَةٍ، مُجْدِبَةٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ) [يس:٣٣]؛ وَلِهَذَا قَالَ: (فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ) أَيْ: كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ نُحْيِي الْأَجْسَادَ بَعْدَ صَيْرُورَتِهَا رَمِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُنَزِّلُ اللهُ، ، مَاءً مِنَ السَّمَاءِ، فَتُمْطِرُ الْأَرْضَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُتُ الْحَبُّ فِي الْأَرْضِ. وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، يَضْرِبُ اللهُ مَثَلًا لِلْقِيَامَةِ بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: (لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ).

و البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

س: وضح معنى الآية الكريمة: (وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ).

ج: المعنى إجمالًا – والله تعالى أعلم – بمراده أن الأرض الطيبة، طيبة المنبت التي تُسقى بماءٍ عذب وتُروى به يخرج نباتها نباتًا جيدًا نافعًا، أما الأرض الخبيثة التي خبثت تربتها كالأرض السبخة، والتي تُسقى بماء مالح وغير ذلك فلا يخرج منها نبات نافع إن خرج،وإنما يخرج عَسرًا قليلًا تافهًا غير نافع، كذلك ننوع الآيات ونبينها لقوم يقدِّمون لها شكرًا ويأخذون منها عبرًا ودروسًا.

قال الطبري خ:

يقول تعالى ذكره: والبلدُ الطيبة تربته، العذبةُ مشاربه، يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الحيا، بإذنه، طيبًا ثمرُه في حينه ووقته. والذي خَبُث فردؤت تربته، وملحت مشاربه، لا يخرج نباته إلا نكدًا

يقول: إلا عَسِرًا في شدة، كما قال الشاعر:

لا تُنْجِـزُ الوعْـدَ، إنْ وَعَـدْتَ، وإن ... أَعْطَيْــتَ أَعْطَيْــتَ تَافِهًــا نَكِـدَا

وقال أيضًا:

وقوله: (كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)، يقول: كذلك: نُبين آية بعد آية، وندلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلا بعد مثل، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرَهم باتباعه، وتجنُّبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة. وهذا مثل ضرَبه الله للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، مثل للمؤمن، والذي خَبُث فلا يخرج نباته إلا نكدًا، مثلٌ للكافر.

أما بيان المستفاد من هذا المثل، وكمزيدٍ من الإيضاح والتوسع، فأقول، وبالله تعالى التوفيق.

الذي يبدو، والله تعالى أعلم، أن الغيث النازل من السماء بإذن الله يُضرب مثلًا للقرآن والعلم النافع والأرض الطيبة مثالٌ للقلوب الطيبة الأرض الخبيثة مثلٌ للقلوب الخبيثة.

فلما نزل القرآن على النبي ﷺ، وتلاه صلوات الله وسلامه عليه على الناس انتفع به أصحاب القلوب الطيبة فيآمنوا وصدقوا وعملوا بما أُمروا به وانتهوا عما نهوا عنه فأثمر فيهم القرآن والوحي، فعملوا الصالح من الأعمال وتكلموا بالطيب من الأقوال ونشروا الخير في الأرض وأصلحوا أنفسهم وأصلحوا غيرهم،وتعلموا وعلَّموا.

أما أصحاب القلوب الخبيثة فكانوا كالأرض الخبيثة، الأرض السبخة التي لم تنتفع بماءٍ، ولم تنبت شيئًا نافعًا.

فهؤلاء أصحاب القلوب الخبيثة ما انتفعوا من القرآن بشيء، فكانت أقوالهم خبيثة وأعمالهم خبيثة، وسعوا في الأرض بالشرِّ والفساد وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ ﷻ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ

بِهِ»[1].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن»:

ثم ذكر تفاوت الأراضي، التي ينزل عليها المطر، فقال:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ الذي هو مستعد له ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ من الأراضي ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلا نباتا خاسا لا نفع فيه ولا بركة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله، فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلا قابلا بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ الآيات.

---

(١) البخاري (حديث ٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

قَالَ تَعَالَى:

لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ
إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي
رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ
رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا
عَمِينَ ٦٤ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ
إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي
سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠
لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ
مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ
فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩ قَالُوٓاْ
أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ
وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ
وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢

الكلمة	معناها
﴿اَعْبُدُوا اللّٰهَ﴾	اخضعوا لله وأطيعوه واستكينوا له وتذللوا وافعلوا ما يأمركم به وانتهوا عما ينهاكم عنه.
﴿ضَلَٰلٍ﴾	ذهاب عن الحق.
﴿مُّبِينٍ﴾	مظهرٌ لمن تأمله أن الشخص ليس على الحق.
﴿الْمَلَأُ﴾	الأشراف والكبراء وسادة القوم وجماعة الرجال.
﴿عَمِينَ﴾	عميانًا عن الحق.
﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾	أفلا تحذرون ربكم وتجعلون بينكم وبين عذابه وقاية، وذلك بتوحيدكم لله عزَّ وجل وطاعتكم رسله.
﴿سَفَاهَةٍ﴾	قلة عقل – رقة عقل – ضلال عن الحق.
﴿بَصْۜطَةً﴾	طولًا في الأجسام وقوةً فيها وضخامة.
﴿ءَالَآءَ اللّٰهِ﴾	نِعم الله.
﴿وَنَذَرَ﴾	نترك.
﴿وَقَعَ عَلَيْكُم﴾	حلَّ بكم – قُضي عليكم بعذاب.
﴿رِجْسٌ﴾	عذابٌ – سخطٌ.
﴿سُلْطَٰنٍ﴾	حجة.
﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾	أهلكنا القوم عن آخرهم.
﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾	لم يكونوا مصدقين بوحدانية الله ﷻ ولا برسولهم هود عليه السلام

شيء من ذكر نبي الله نوح عليه السلام

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ج: يُذكِّرُ الله المخاطبين بأنه أرسل نوحًا عليه السلام – وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض – إلى قومه مخوِّفًا مُحذِّرًا مذكرًا لهم بعاقبة ما هم فيه من الشرك، وآمرًا لهم بتوحيد الله ﷻ، قال سبحانه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ﴾

أي: اخضعوا له واستكينوا له واستجيبوا له واركعوا له واسجدوا واسمعوا له وأطيعوا وتذللوا له وانكسروا وافعلوا ما يأمركم به وانتهوا عما ينهاكم عنه فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه.

وعلل نوح عليه السلام ذلك بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فهو إلهكم وربكم وخالقكم ومليككم ثم ذكَّرهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو عذاب يوم القيامة.

قال الطبري رحمه الله:

أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية: أنه أرسل نوحًا إلى قومه، منذرَهم بأسَه، ومخوِّفَهم سَخَطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم: يا قوم، اعبدوا الله الذي له العبادة، وذِلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادةَ غيرُه، فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، يعني: عذابَ يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بسخط ربِّكم.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ج: هذا بيانٌ لما أجاب به قوم نوح نوحًا عليه السلام لما دعاهم إلى الله عز وجل وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له فقال له كبراؤهم وسادتهم وقادتهم إنا لنراك في ضلال مبين، أي: في بُعدٍ عن الحق، مظهرٌ لمن تأمله أنك لست بصائب فيما تدعونا إليه.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا خبر من الله جل ثناؤه، عن جواب مشركي قوم نوح لنوح، وهم (ٱلْمَلَأُ) و(ٱلْمَلَأُ)، الجماعة من الرجال، لا امرأة فيهم أنهم قالوا له حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له: (إِنَّا لَنَرَىٰكَ)، يا نوح (فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)، يعنون في أمر زائل عن الحق، مبين زوالهُ عن قصد الحقّ لمن تأمله.

قال السعدي خ «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل

استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالا مبينا واضحا لكل أحد.

وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي لا تروج على أضعف الناس عقلا وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاءوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئا، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهانا تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

ج: هذا بيانٌ لم أجاب به نوحٌ عليه السلام قومه لما وصفوه بأنه في ضلال، فقال- ومنه نتعلم أدب الجواب وأدب الخطاب-: يا قوم ليس بي ضلالة، أي: لست في ذهاب عن الحق وبُعدٍ عنه كما تدعون، ولكني رسولُ أرسلني الله عز وجل رب العالمين إليكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال نوح لقومه مجيبًا لهم: يا قوم، لم آمركم بما أمرتكم به من إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالطاعة دون الأنداد والآلهة، زوالا مني عن محجة الحقّ، وضلالا لسبيل الصواب، وما بي ما تظنون من الضلال، ولكنّي رسول إليكم من رب العالمين بما أمرتكم به: من إفراده بالطاعة، والإقرار له بالوحدانية، والبراءة من الأنداد والآلهة.

س: في قول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ أدب من آداب التخاطب، وضحه.

ج: إيضاحه أن نوحًا عليه السلام لم يواجه قومه ولم يقابلهم بمثل ما قالوه له، فلم يقل لهم بل أنتم الضلال، وإن كانوا ضلالًا بلا شك، ولكنه قال نافيًا عن نفسه الضلالة، يا قوم ليس بي ضلالة.

س: ما الشيء الذي يعلمه نوحٌ من ربه وقومه لا يعلمونه الذي عناه بقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ج: ذلك عموم ما خصَّه الله به من العلم، ومن ذلك أن عقابه لا يرد عن القوم المجرمين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكذبوه: (وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)، أرسلني إليكم، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقابَ الله على كفركم به، وتكذيبكم إياي، وردّكم نصيحتي (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، من أن عقابه لا يردُّ عن القوم المجرمين.

س: وضح معنى قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ج: معناه، والله أعلم، ما الذي دعاكم إلى التعجب الذي أنتم فيه هل دعاكم إلى التعجب أن أرسل الله رسولًا من بينكم تعرفونه وتعرفون نسبه ويتكلم بلسانكم يحذركم عاقبة عصيانكم ويعظكم بوعظٍ من ربكم كي تنزجروا عما أنتم فيه من الباطل وتجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ومن ثم يرحمكم ربكم عَزَّوَجَلَّ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا أيضًا خبر من الله عز ذكره عن قِيل نوح لقومه أنه قال لهم، إذ ردُّوا عليه النصيحة في الله، وأنكروا أن يكون الله بعثه نبيًّا، وقالوا له: (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) [هود: ٢٧]، (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ)، يقول: أوعجبتم أن جاءكم تذكير من الله وعِظة، يذكركم بما أنزل ربكم (عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ)، قيل: معنى قوله: (عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ)، مع رجل منكم (لِيُنذِرَكُمْ)، يقول: لينذركم بأس الله ويخوِّفكم عقابه على كفركم به (وَلِتَتَّقُوا)، يقول: وكي تتقوا عقابَ الله وبأسه، بتوحيده وإخلاص الإيمان به، والعمل بطاعته (وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)، يقول: وليرحمكم ربكم إن اتقيتم الله، وخفتموه وحَذِرتم بأسه.

س: وضح معنى قوله تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ).

ج: معنى ذلك- والله تعالى أعلم- أن قوم نوح كذبوه فيما دعاهم إليه من وحدانية الله ﷻ، وتمادوا في الغي وتمادوا في الشرك فحفظناه وسلمناه هو ومن آمن معه، وذلك بأن أوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا، وكذلك فليحمل فيها من آمن معه ومن كلٍّ زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول منهم- كما سيأتي في سورة هود، وفي غيرها إن شاء الله-، ثم جاء الطوفان قوم نوح فأغرقهم وأفناهم وأبادهم وأغرق المكذبين المعاندين فقد كانوا في عميٍ عن الحق عمياناً عن دعوة المرسلين.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فكذب نوحًا قومه إذ أخبرهم أنه لله رسولٌ إليهم، يأمرهم بخلع الأنداد، والإقرار بوحدانية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به، وكانوا بنوح عليه السلام أنفسًا عشرة.

شيءٌ من ذِكر نبي الله هود عليه السلام

س: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ معطوف عَلَام؟

ج: معطوف على ما ذكر من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ فيكون المعنى، وكما أرسلنا نوحًا إلى قومه أرسلنا هودًا إلى قومه، وهم قوم عاد.

س: قوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ما وجهه؟

ج: قال بعض أهل العلم:

إنه كان أخاهم على الحقيقة ابن أبيهم (١).

وقيل: إنه كان أخاهم في القبيلة. وقيل: أي بشرًا من أبيهم آدم عليه السلام.

وقيل: أخاهم بمعنى صاحبهم، والله أعلم.

س: مَنْ عادٌ هؤلاء وأين كانوا يسكنون؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

(١) ذكرها القرطبي في تفسيره.

قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح.

قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ٦-٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل.

ونقل أيضًا عن ابن إسحاق قوله:

كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله. وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هودا عليه السلام، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفّوا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوا نبيَّه، وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبّروا وبنوا بكل ريع ريع آية عبثا بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٢٨- ١٣١]، ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣- ٥٦].

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وكما أرسلنا نوحًا إلى قومه فقد أرسلنا أيضًا إلى قبيلة عادٍ أخاهم هودًا عليه السلام يحذرهم عاقبة ما هم فيه من الشرك والضلال ويأمرهم بعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له ويبين له خطر ما هم عليه وسوء العاقبة إذا ماتوا على ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا ولذلك نصب (هُودًاۚ)، لأنه معطوف به على (نُوحٍ) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال هود: يا قوم، اعبدوا الله فأفردوا له العبادة، ولا تجعلوا معه إلهًا غيره، فإنه ليس لكم إله غيره (أَفَلَا تَتَّقُونَ)، ربكم فتحذرونه، وتخافون عقابه بعبادتكم غيره، وهو خالقكم ورازقكم دون كل ما سواه؟

س: وضح معنى قوله تعالى: (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ).

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى ذلك:

يقول تعالى ذكره: مخبرًا عما أجاب هودًا به قومُه الذين كفروا بالله: (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ)، يعني: الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا رسالة الله هودًا إليهم (إِنَّا لَنَرَىٰكَ)، يا هود (فِي سَفَاهَةٍ)، يعنون: في ضلالة عن الحق والصواب بتركك ديننا وعبادة آلهتنا (وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)، في قيلك: «إنّي رسول من رب العالمين قال: (قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ)، يقول: أي ضلالة عن الحق والصواب (وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)، أرسلني، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤدّيها إليكم كما أمرني أن أؤدِّيها.

س: لماذا قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ولم يقطعوا أنه من الكاذبين؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن الظن أحيانًا يأتي بمعنى اليقين كما في قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾

وقال آخرون من أهل العلم: إن أهل الكفر أحيانًا يتصنعون التعقل، ولا يقطعون كي يتركوا لأنفسهم فسحة حتى إذا انتقدهم منتقدٌ وجدوا متنفسًا فيما قالوه، والله أعلم.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقول هودٍ عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله:

يعني بقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، أؤدي ذلك إليكم، أيها القوم، ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾، يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصحٌ، فاقبلوا نصيحتي، فإني أمين على وحي الله، وعلى ما ائتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدِّل، بل أبلغ ما أمرت كما أمرت ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ﴾، يقول: أوعجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة، على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوّفكم عقابه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حلّ بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لمّا أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا الله أن يحلّ بكم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلككم ويبدل منكم غيركم، سنَّته في قوم نوح قبلكم، على معصيتكم إياه وكفركم به ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ﴾، زاد في أجسامكم طولا وعِظَمًا على أجسام قوم نوح، وفي قواكم على قواهم، نعمة منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقُوَاكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، يقول: كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده.

س: قوله: ﴿أَمِينٌ﴾ على ماذا؟

ج: قال بعض أهل العلم: أمين على الوحي الذي يبلغه عن الله عز وجل، وأمين في كل شيء أمر بتأديته أو حفظه، والله أعلم.

تعجب الكفار من إرسال رسولٍ بشرى

س: دائمًا يتعجب الكفار من إرسال رسولٍ من البشر دلِّل على ذلك.

ج: من ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾.

۞ وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

۞ وقوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾[ق:٢]

۞ وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٣، ٢٤].

۞ وقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦].

۞ وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات.

س: وضح معنى هود عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أَيْ: لَا تَعْجَبُوا أَنْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ أَيَّامَ اللهِ وَلِقَاءَهُ، بَلِ احْمَدُوا اللهَ عَلَى ذَاكُمْ، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أَيْ: وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، الَّذِي أَهْلَكَ اللهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ، لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ أَيْ: زَادَ طُولَكُمْ عَلَى النَّاسِ بَسْطَةً، أَيْ: جَعَلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: فِي قِصَّةِ طَالُوتَ: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة:٢٤٧] ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أَيْ: نِعَمَهُ ومننه عَلَيْكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

س: ما هذه الآلاء التي أمر هودٌ عليه السلام قومه أن يذكروها؟

ج: من هذه الآلاء ما منَّ الله به عليهم من صحة الأبدان وسعة الأرزاق والأمن في البلاد وكثرتهم وغير ذلك.

ومن ذلك ما هو اجلُّ وأعظمٌ، ألا وهو إرسال رسول لتذكيرهم لإنقاذهم من عذاب الله ﷻ، والله أعلم.

س: وضح معنى قول الكفار: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

ج: إيضاحه، والله أعلم أن قبيلة عاد تتعجب من نبيها هود عليه السلام، ويستغربون ما جاء به فيقولون له أجئتنا على أنك رسولٌ من عند الله تأمرنا بعبادة الله وحده، وترك ما كان يعبد الآباء والأجداد وتحذرنا من عقوبة ذلك، وتتوعدنا بالعذاب إذا عبدنا مع الله إلهًا آخر، فأتنا بالعذاب الذي تتوعدنا به إن كنت من الصادقين في قيلك: أننا سنعذب إذا أشركنا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قالت عاد له: أجئتنا تتوعَّدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصًا، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرأ منها؟ فلسنا فاعِلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعونا إليه، فأتنا بما تعدنا من العقابِ والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه مِنَ الأوثان، إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعِدُ.

س: كثيرًا ما يتمنى الكفار – بجهلهم وغبائهم – حلول العذاب ونزوله، ويستعجلون ذلك، دلِّل على هذا.

ج: من الأدلة على هذا ما يلي:

- قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.
- وقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

۞ وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ إلى غير ذلك من الأدلة.

س: وضح معنى قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أتجادلونني كي تثبتوا لي صحة ما افتريتموه وادعيتموه من وجود آلهة أخر مع الله، وإنما هي أسماء لا حقيقة لها ولا معنى ولا وجود لها كالذي يأكل البصل مثلًا ويصطلح مع نفسه على أن يسمى البصل لحمًا فيخرج للناس قائلًا:

أكلت لحمًا، وهذا عين الباطل فهو لم يأكل اللحم، وإنما أكل بصلًا.

فالقوم صنعوا أصنامًا من أحجار ودعوها من دون الله وائتفكوها واختلقوها، وما أنزل الله بشيء من ذلك حجةً ولا برهانًا ولا أمر بعبادتها لا من قريب ولا من بعيد، أما قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي: فانتظروا ما وعدتكم به من عذاب الله إن أنتم أقمتم على كفركم واستمررتم عليه.

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ إني منتظر قدر الله ﷻ الذي قدَّره عليَّ وعليكم.

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ الآية.

لم يبين هنا شيئًا من هذا الجدال الواقع بين هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبين عاد. ولكنه أشار إليه في مواضع أخر كقوله: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن أمر الله ﷻ لما حلَّ بالقوم سلَّم الله هودًا والذين آمنوا معه برحمة من الله، ولم يُبق من الظالمين المكذبين أحدًا، بل أفناهم عن آخرهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأنجينا نوحًا والذين معه من أتباعه على الإيمان به والتصديق به وبما دعا إليه، من توحيد الله، وهجر الآلهة والأوثان ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ يقول: وأهلكنا الذين كذَّبوا من قوم هود بحججنا جميعًا عن آخرهم، فلم نبق منهم أحدًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ فإنه يقول: أتخاصمونني في أسماء سمَّيتموها أصنامًا لا تضر ولا تنفع ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ يقول: ما جعل الله لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجُّون بها، ولا معذرة تعتذرون بها، لأن العبادة إنما هي لمن ضرَّ ونفع، وأثابَ على الطاعة وعاقب على المعصية، ورزق ومنَع.

فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس، فإنه لا نفع فيه ولا ضرّ، إلا أن تتخذ منه آلةً، ولا حجة لعابد عبده من دون الله في عبادته إياه، لأن الله لم يأذن بذلك، فيعتذر من عبدَه بأنه يعبده اتباعًا منه أمرَ الله في عبادته إياه.

ولا هو -إذ كان الله لم يأذن في عبادته- مما يرجى نفعه، أو يخاف ضرّه، في عاجل أو آجل، فيعبد رجاء نفعه، أو دفع ضره ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ يقول: فانتظروا حكمَ الله فينا وفيكم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ حكمَه وفصل قضائه فينا وفيكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ هُودٌ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾ أَيْ: قَدْ وَجَبَ عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ قِيلَ: هُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ رِجْزٍ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ السخط وَالْغَضَبُ ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أَيْ: أَتُحَاجُّونِي فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ آلِهَةً، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا

تَنْفَعُ، وَلَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا حُجَّةً وَلَا دَلِيلًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ مِنَ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ؛ وَلِهَذَا عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

س: ما صورة العذاب التي أهلك الله بها عادًا؟

ج: أهلكوا بريح صرصرٍ عاتية، كما قال الله ع: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الْحَاقَّة:٦-٨] لَمَّا تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ، فَكَانَتْ تَحْمِلُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتثلغُ رَأْسَهُ حَتَّى تبينه من بين جُثَّتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾.

(١٦١) أحمر
أسود

قَالَ تَعَالَى: وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي
ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ
فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٧٤ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ
مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ
بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
٧٩ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ
ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ
أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٨٣ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ٨٤

الكلمة	معناها
﴿ثَمُودَ﴾	اسم رجل نُسبت إليه قبيلة.
﴿بَيِّنَةٌ﴾	دلالة على صدقي فيما أخبرتكم به (وهي: الناقة التي طلبوها).
﴿ءَايَةً﴾	علامة ودلالة ومعجزة.
﴿فَذَرُوهَا﴾	اتركوها.
﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾	لا تلحقوا بها أذى – لا تقتلوها.
﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾	فيصيبكم (عذابٌ أليم تموتون بسببه).
﴿خُلَفَآءَ﴾	جمع خليفة، والمراد: أنكم تخلفون من سبقكم بعد إهلاكهم.
﴿سُهُولِهَا﴾	الأماكن المستوية التي ليست بجبال.
﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾	نعم الله.
﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾	لا تسيروا – لا يشتد إفسادكم.
﴿ٱلۡمَلَأُ﴾	الأشراف – عليةُ القوم (في الدنيا).
﴿مُؤۡمِنُونَ﴾	مصدقون.
﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾	جرحوا الناقة – نحروها – وقيل: العقر كشف عرقوب البعير وقيل للعقر نحرٌ؛ لأنه سبب في النحر.
﴿وَعَتَوۡاْ﴾	علوا في الباطل وتمادوا فيه – استعلوا عن الحق.
﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾	الصيحة التي زعزعتهم – زلزلة شديدة – صيحة شديدة.
﴿جَٰثِمِينَ﴾	صرعى ميتين لا يتحركون، وقيل: جاثمين على الركب؛ باركين عليها.
﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾	فأعرض عنهم.
﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾	أتفعلون ما فحش من الأفعال، والمراد: (أتجامعون الذكور في الأدبار).

الكلمة	معناها
﴿مُسْرِفُونَ ﴾	أتفعلون ما فحش من الأفعال، والمراد: (أتجامعون الذكور في الأدبار).
﴿يَتَطَهَّرُونَ ﴾	تفعلون ما حرِّم عليكم وتتجاوزون الحدود في فعل المحرم.
﴿الْغَابِرِينَ ﴾	يتنزهون عن فعل المحرم- يتطهرون عن أدبار الرجال. الباقين في العذاب – الباقين في الهلاك- الهالكين.
﴿عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾	آخر أمر المجرمين- نهايتهم- العقوبة التي حلَّت بهم.

شيء من ذكر نبي الله صالح عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود رسولًا وهو أخوهم صالح عليه السلام.

س: مَن ثمود، وما شأنهم؟

ج: قيل إن ثمود اسم شخص، وهو ثمود بن غائر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن غائر، وكانت مساكنهما في الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله.

ومعنى الكلام: وإلى بني ثمود أخاهم صالحًا. قاله الطبري.

قلت: فعلى ذلك فثمود اسم لشخص تناسل وتكاثر أبناؤه وأحفاده ونسبت إليه تلك القبيلة والله أعلم.

ثم إن هذه القبيلة طغت وبغت وتمردت على أوامر الله عز وجل واستكبرت وتعالت، وذلك كله بعد أن بوأهم الله عز وجل في الأرض يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا، فلم يُقدِّموا شكرًا ولم يطيعوا لربهم أمرًا فأرسل الله عز وجل إليهم نبيًّا كريمًا

من أوسطهم نسبًا وأشرفهم حسبًا يدعوهم إلى الله ﷻ ويُذكرهم بأوامره ويحذرهم من نواهيه فازدادوا عتوًّا وفسادًا، وسألوه- على وجه التعجيز- آية ودلالة على صدقه فيما جاء به من النبوة،وطلبوا ناقة عشراء ضخمة يكفيهم جميعًا لبنها فخرجت ناقة عظيمة عشراء وولدت واستمتعوا بألبانها، فقد كان لبنها يكفيهم جميعًا وكانت ثمَّ بئرٌ فيها ماء فكان للناقة يوم تشرب من ماء البئر وكان للقوم يوم آخر كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ وكما قال سبحانه: (هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ).

واستمروا على ذلك زمانًا، ولكنهم أيضًا تمردوا وكفروا وازدادوا عتوًّا وتآمروا لقتل الناقة، بل ولقتل نبيهم صالح عليه السلام فكان من أمرهم ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم في عدة سورة كهذه السورة وسورة النمل وسورة القمر وسورة الشمس وغير ذلك من السور.

هذا، وقد قال الحافظ كثير خ – في تفسيره- في شأن هذه القبيلة:

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كُلُّ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحْيَاءً مِنَ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عليه السلام، وَكَانَتْ ثَمُودُ بَعْدَ عَادٍ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ إِلَى وَادِي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ، وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قُرَاهُمْ وَمَسَاكِنِهِمْ، وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ سَنَةَ تِسْعٍ.

وأورد حديث ابن عمر رضي الله عنهما في ذلك، وفيه- كما عزاه للإمام أحمد(١) لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَلَى تَبُوكَ، نَزَلَ بِهِمُ الْحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَصَبُوا مِنْهَا الْقُدُورَ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَهْرَقُوا الْقُدُورَ، وَعَلَفُوا العجينَ الإبلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا وَقَالَ: «**إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ**».

وفي رواية(٢) عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ، وهو بالحجر: «لَا

---

(١) أحمد في المسند (١٢٤/١) والبخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) بنحوه.

(٢) المسند (٧٤/٢).

تَدْخُلوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعذَّبين إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مثلُ مَا أَصَابَهُمْ».

وأورد بسندٍ حسن(١) عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحِجْرِ، قَالَ: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ». فقالوا: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ».

وقد أورد الطبري في شأنهم آثار لا تخلو من مقال من أمثلها ما أورده من طريق الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا إسرائيل، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي الطفيل قال، قالت ثمود لصالح: ائتنا بآية إن كنت من الصادقين! قال: فقال لهم صالح: اخرجوا إلى هَضْبَةٍ من الأرض! فخرجوا، فإذا هي تَتَمَخَّض كما تتمخَّض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت من وسَطها الناقة، فقال صالح: (هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)، (لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ) [الشعراء:١٥٥] . فلما ملُّوها عقروها، فقال لهم: (تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ) [هود:٦٥] .

قال عبد العزيز: وحدثني رجل آخر: أنّ صالحًا قال لهم: إن آية العذاب أن تصبحوا غدًا حُمْرًا، واليوم الثاني صُفْرًا، واليوم الثالث سُودًا، قال: فصبَّحهم العذاب، فلما رأوا ذلك تحنَّطوا واستعدُّوا.

وثمَّ آثارٌ كثيرة أوردها الطبري وغيره لا تخلو من مقال(٢).

س: كيف قيل: أخاهم صالحًا، وليسوا بمؤمنين؟

ج: قيل - كما تقدم نظير ذلك في شأن نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ - كان أخًا لهم في

(١) أحمد في المسند (٣/٢٩٦)، وله طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم.
(٢) الطبري (١٤٨١٨) وهو موقوف كما ترى.

النسب، وقيل كان أخًا لهم؛ لكونه من نفس القبيلة التي هم، منها، وقيل: إن ذلك قيل لكون الجميع أبناء آدم عليه السلام والله أعلم.

س: ما الدعوة التي جاء بها صالحٌ عليه السلام؟

ج: جاء- كما جاء غيره من المرسلين- يدعو إلى عبادة الله عز وجل وطاعته واتباع أمره، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكما قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ) [النحل: ٣٦].

س: ما هذه البينة التي جاءتهم من ربهم؟

ج: هي الدلالة على صدقه فيما ذكره لهم من نبوته ورسالته وهي الناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح عليه السلام، وقد جاء تفصيل ذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وَقَوْلُهُ: (قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ) أَيْ: قَدْ جَاءَتْكُم حُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ. وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِ أَنْ تَخْرُجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ صماء عيّنوها بِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ صَخْرَةٌ مُنْفَرِدَةٌ فِي نَاحِيَةِ الحِجْرِ، يُقَالُ لَهَا: الكَاتِبَة، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةً عُشَرَاء تَمْخَضُ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ لَئِنْ أَجَابَهُمُ اللهُ إِلَى سُؤَالِهِمْ وَأَجَابَهُمْ إِلَى طُلْبَتِهِم لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتْبَعُنَّهُ؟ فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ، قَامَ صَالِحٌ، عليه السلام، إِلَى صِلَاتِهِ وَدَعَا اللهَ، عز وجل، فَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ جَوْفَاء وَبْرَاء يَتَحَرَّكُ جَنِينُهَا بَيْنَ جَنْبَيْهَا، كَمَا سَأَلُوا، فَعِنْدَ ذَلِكَ آمَنَ رَئِيسُ الْقَوْمِ وَهُوَ: «جُنْدَع

ابْنُ عَمْرٍو» وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَأَرَادَ بَقِيَّةُ أَشْرَافِ ثَمُودَ أَنْ يُؤْمِنُوا فَصَدَّهُمْ «ذُؤاب ابْنُ عَمْرِو بْنِ لَبِيدٍ» «وَالْحُبَابُ» صَاحِبُ أَوْثَانِهِمْ، وَرَبَابُ بْنُ صَمْعَرَ بْنِ جِلْهَسَ، وكان لـ«جندع بْنِ عَمْرٍو» ابْنُ عَمٍّ يُقَالُ لَهُ: «شِهَابُ بْنُ خَلِيفَةَ بْنِ مُحَلَّاةَ بْنِ لَبِيدِ بْنِ حَرَاسٍ»، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ ثَمُودَ وَأَفَاضِلِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُسْلِمَ أَيْضًا فَنَهَاهُ أُولَئِكَ الرَّهْطُ، فَأَطَاعَهُمْ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ مُؤْمِنِي ثَمُودَ، يُقَالُ لَهُ مِهْوَسُ بْنُ عَنْمَةَ بْنِ الدُّمَيْلِ، رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو ... إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَوا شِهَابا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُمُ جَمِيعًا ... فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ فَلَوْ أَجَابَا
لأصبحَ صالحٌ فِينَا عَزِيزًا ... وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤابا
وَلَكِنَّ الغُوَاةَ مِنْ آلِ حُجْرٍ ... تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهم ذِئَابَا

فَأَقَامَتِ النَّاقَةُ وَفَصِيلُهَا بَعْدَ مَا وَضَعَتْهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مُدَّةً، تَشْرَبُ مَاءَ بِئْرِهَا يَوْمًا، وَتَدَعُهُ لَهُمْ يَوْمًا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمَ شُرْبِهَا، يَحْتَلِبُونَهَا فَيَمْلَئُونَ مَا شَاءُوا مِنْ أَوْعِيَتِهِمْ وَأَوَانِيهِمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ) [القَمَر:٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: (هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) [الشُّعَرَاء:١٥٥] وكانت تسرح في بعض تلك الأودية تَرِدُ مِنْ فَجٍّ وَتَصْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسَعَهَا؛ لأنها كانت تتضلَّع عن الْمَاءِ، وَكَانَتْ -عَلَى مَا ذُكِرَ- خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ نَفَرَتْ مِنْهَا. فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ وَاشْتَدَّ تَكْذِيبُهُمْ لِصَالِحٍ النَّبِيِّ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهَا، لِيَسْتَأْثِرُوا بِالْمَاءِ كُلَّ يَوْمٍ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمُ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى قَتْلِهَا.

قَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الَّذِي قَتَلَ النَّاقَةَ طَافَ عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ، أَنَّهُمْ رَاضُونَ بِقَتْلِهَا حَتَّى عَلَى النِّسَاءِ فِي خُدُورِهِنَّ، وَعَلَى الصِّبْيَانِ.

قُلْتُ: وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا) [الشَّمْس:١٤] وَقَالَ (وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ) [الإسراء: ٥٩]: (فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ) فَأَسْنَدَ ذَلِكَ عَلَى مَجْمُوعِ الْقَبِيلَةِ، فَدَلَّ عَلَى رِضَا

جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قال السعدي خ في «تفسيره»:

واعلم أن كثيرا من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح وأنها تمخضت تمخض الحامل فخرجت الناقة وهم ينظرون وأن لها فصيلا حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه وأن صالحا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحا قال لهم: (تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ) أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدا، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يوما فيوما، على وجه يعمهم ويشملهم «احمرار وجوههم، واصفرارها واسودادها من العذاب .هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟». فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما لا يناقض كتاب الله، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير (١) كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

(١) كذا قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ، وفيما قاله بعض النظر محله إن شاء الله كتابي: (أصول التفسير).

س: معلوم أن الله ﷻ له الخلقُ والأمر، وله ملك السموات والأرض وما فيهن، فلماذا قيل في الناقة خاصة - دون سائر النوق - هذه ناقة الله، مع أن كل سائر النُّوق إنما خلقها الله ﷻ؟

ج: قيل في الجواب على ذلك، والله أعلم: إن الإضافة في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ إضافة تشريف كما تعالى في شأن المساجد: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] مع أن كل البيوت لله وكل الأماكن لله ﷻ.

وثمَّ قولٌ آخر حاصله: أن هذه الناقة قيل عنها ناقة الله لكونها جاءت من عند الله بغير طريق التوالد والتناسل المعلوم لدى الناس في أمر الإبل، ولكنها خرجت من صخرة، وخرجت عظيمة هائلة لا كسائر النوق، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾.

ج: المعنى، فاتركوها وشأنها ترعى في المراعي والجبال ليس عليكم رزقها ومؤونتها.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن نبيَّ الله صالحًا عليه السلام ذكَّر قومه بنعم الله عليه قائلًا: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ أي: وتذكروا ولا تنسوا نعم الله عليكم في كونه جعلكم خلفاء من بعد قوم عادٍ وأنزلكم منازل في الأرض، ففي سهولها وهي الأماكن المستوية منها تبنون القصور، وكنتم أيضًا تتخذون البيوت في الجبال، قيل: إن السقوف والأبنية كانت تُبلى قبل فناء أعمارهم، فاذكروا هذه النعم واشكروها ولا تسيروا في الأرض بالفساد والله أعلم.

س: هل يجوز بناء القصور؟

ج: نعم يجوز بناء القصور عند الاحتياج إليها، فقد ذكَّر الله ﷻ قوم ثمود بنعمه

عليهم، ومنه تمكينهم من بناء القصور في السهول، إذ قال سبحانه ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾. واستدل بعض العلماء لذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

وبقوله ﷺ: «إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ» والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن أكابر القوم- قوم ثمود- وذوي الوجاهات منهم وذوي الثراء عاتبوا المؤمنين المستضعفين بقولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: أتصدقون وتقرون أن صالحًا مرسلٌ من ربه؟ فأقرَّ المؤمنون بذلك ولم يترددوا في إعلان ذلك ولا في بيان هويتهم ووجهتم، فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فحينئذ أعلن أيضًا أهل الكِبْرِ عن هويتهم قائلين: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، فانقسم الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان، وفسطاط كفر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾، قال الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح والإيمان بالله وبه ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يعني: لأهل المسكنة من تبَّاع صالح والمؤمنين به منهم، دون ذوي شرفهم وأهل السُّؤدد منهم ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أرسله الله إلينا وإليكم، قال الذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم: إنا بما أرسل الله به صالحًا من الحقّ والهدى مؤمنون، يقول: مصدِّقون مقرّون أنه من عند الله، وأن الله أمر به، وعن أمر الله دعانا صالح إليه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾، عن أمر الله وأمر رسوله صالح ﴿إِنَّا﴾، أيها القوم ﴿بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، يقول: صدقتم به من نبوّة صالح، وأن الذي جاء به حق من عند الله ﴿كَٰفِرُونَ﴾، يقول: جاحدون منكرون، لا نصدِّق به ولا نقرُّ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– أن قبيلة ثمود عاندت نبيها صالحًا عليه السلام، وكفرت– إلا القليل من المستضعفين– بما جاء به وكذبوه وعقروا الناقة، وتمادوا في الغيِّ! والفساد والاستكبار عن قبول الحق، بل والتحدي واستعجال العذاب والاستخفاف به وذلك بقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فعقرت ثمودُ الناقة التي جعلها الله لهم آية، ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، يقول: تكبروا وتجبروا عن اتباع الله،و استعملوا عن الحق.

وقال أيضًا:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، يَقُولُ: قَالُوا: جِئْنَا يَا صَالِحُ بِمَا تَعِدُنَا مِنْ عَذَابِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ، اسْتِعْجَالًا مِنْهُمْ لِلْعَذَابِ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، يَقُولُ: إِنْ كُنْتَ لِلَّهِ رَسُولًا إِلَيْنَا، فَإِنَّ اللهَ يَنْصُرُ رُسُلَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ. فَعُجِّلَ ذَلِكَ لَهُمْ كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

س: متى تولي نبي الله صالحٌ عليه السلام عن قومه

ج: قال بعض أهل العلم: إن ذلك كان عند تحديهم له واستخفافهم به وتكذيبهم واستعجالهم العذاب، فلما آيس من إيمانهم فحينئذٍ تولى عنهم، أي أن تلك كان قبل موتهم وهلاكهم.

وقال آخرون من أهل العلم: يحتمل أنه قال ذلك بعد موتهم كالتقريع لهم.

والقول الأول قول ابن جرير وغيره، والقول الثاني قول ابن كثير وغيره.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فأدبر صالح عنهم حين استعجلوه العذاب وعقروا ناقة الله، خارجًا عن أرضهم من بين أظهُرهم، لأن الله تعالى ذكره أوحَى إليه: إنّي مهلكهم بعد ثالثة.

وقيل: إنه لم تهلك أمة ونبيها بين أظهُرها.

فأخبر الله جل ثناؤه عن خروج صالح من بين قومه الذين عتوا على ربهم حين أراد الله إحلال عقوبته بهم، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ صالح وقال لقومه ثمود ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، وأدّيت إليكم ما أمرني بأدائه إليكم ربّي من أمره ونهيه ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، في أدائي رسالة الله إليكم، في تحذيركم بأسه بإقامتكم على كفركم به وعبادتكم الأوثان ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، لكم في الله، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم، الصادّين لكم عن شهوات أنفسكم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هَذَا تَقْرِيعٌ مِنْ صَالِحٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِقَوْمِهِ، لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ إياه، وتمردهم على الله، وَإِبَائِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى العَمى -قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، أَقَامَ هُنَاكَ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فشُدّت بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَرَكِبَهَا ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَقفَ عَلَى الْقَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ: **«يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»**. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ»**(١).

شيء من ذكر نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ

س: على أي أساس نُصِبَ (لوطًا)؟

ج: لأهل العلم وجهان في ذلك:

أحدهما: أن المعنى: واذكر لوطًا. الثاني: أن المعنى: ولقد أرسلنا لوطًا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا لوطًا.

---

(١) صحيح، وقد تقدم.

ولو قيل: معناه: واذكر لوطًا، يا محمد، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، إذ لم يكن في الكلام صلة «الرسالة»، كما كان في ذكر عاد وثمود، كان مذهبًا.

س: اذكر بعض ما تعرفه عن نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ج: قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلُوطٌ هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، فَبَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أهل «سَدُوم» وما حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا، لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَهُوَ إِتْيَانُ الذُّكُورِ. وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ تَعْهَدُهُ وَلَا تَأْلَفُهُ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ «سَدُوم» عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: قَوْلُهُ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ: مَا نَزَا ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ، حَتَّى كَانَ قَوْمُ لُوطٍ[1].

وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَلِيفَةُ الْأُمَوِيُّ، بَانِي جَامِعِ دِمَشْقَ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ لُوطٍ، مَا ظَنَنْتُ أَنَّ ذَكَرًا يَعْلُو ذَكَرًا.

وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أَيْ: عَدَلْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ، وَمَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ، وَهَذَا إِسْرَافٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ؛ لِأَنَّهُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحِلِّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ، فَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَشْتَهُونَهُنَّ، ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أَيْ: لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا أَرَبَ لَنَا فِي النِّسَاءِ، وَلَا إِرَادَةَ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مُرَادَنَا مِنْ أَضْيَافِكَ.

وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الرِّجَالَ كَانُوا قَدِ اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ نِسَاؤُهُمْ كُنَّ قَدِ اسْتَغْنَى بَعْضُهُنَّ بِبَعْضٍ أَيْضًا.

---

(١) هو عند الطبري من طريق (ابن وكيع) وهو سفيان بن وكيع وفيه كلام، لكن لعلّه متابع عند غير الطبري. وقد قال بهذا القول كثيرون من أهل العلم.

س: ما هذه القرية التي كان يسكنها قوم لوط؟

ج: هذه القرية هي قرية (سَدُوم) قيل: إنها بالأردن، والله أعلم.

س: وضِّح معنى قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ج: قال كثيرون من أهل العلم: إنه لم يُعلم أن ذكرًا أتى ذكرًا قبل قوم لوط، وقد تقدم قول عمرو بن دينار في ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مِنْ﴾ لاستغراق الجنس، أي لم يكن اللواط في أمّة قبل قوم لوط.

والملحدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم. والصدق ما ورد به القرآن.

س: في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ تفسير للقرآن بالقرآن وضح ذلك؟

ج: إيضاحه: أن هذه الآية فسرت التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ والله أعلم.

انعكاسُ المَفَاهيم عندَ أهْلِ الشَّرِّ، وتزويدهم للحقائق

س: الفضيلة عند أهل الشر والفساد تُعدُّ رذيلة، وعلى العكس أيضًا الرذيلة عندهم هي الفضيلة، دلِّل على ذلك مع بيان سبب ذلك.

ج: نعم، الفضيلة عند أهل الشر والفساد قد يعدُّونها رذيلة ويحاربون من فعلها، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

- وصف قومُ لوط لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه- لما امتنع لوطٌ ومن معه عن هذا الفعل المحرم، وحاربوه- وصفهم لهم بأنهم يتطهرون، فأصبح التطهر من الذنوب والامتناع عن فعل الفواحش جريمة في نظر قوم لوط تستحق الإخراج من البلاد.

وصدق قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول: (عابوهم بغير عيب، وذموهم بغير ذمّ)[1].

(١) أخرج ذلك عنه الطبري بسندٍ حسن (١٤٨٤٩).

۞ ومن الدليل على ما ذُكر أيضًا قول قوم فرعون لفرعون عليهم لعائن الله، قولهم له في شأن موسى عليه السلام وقومه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾. فوصفوا موسى عليه السلام بأنه مفسدٌ في الأرض وهو الكريم الكليم من أولى العزم من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

۞ وكذلك ما صنعه أهل الإجرام أصحاب الأخدود مع المؤمنين في زمانهم، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

۞ وأيضًا في هذا الصدد، وبالنظر إلى ما كان يصنعه فرعون من دعوى الإلهية والربوبية، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. وما كان يصنعه من ذبح للأطفال وتعبيد للرجال واستحياء للنساء؛ للامتهان والإذلال، مع ذلك كله يقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وغير ذلك كثير كوصف أهل الإجرام للأنبياء عليهم السلام بأنهم سحرة، وكهنه، وكذبه وغير ذلك من الأوصاف التي نزَّ ه الله عنها المرسلين.

والسبب في ذلك، والحامل عليه: والله تعالى أعلم، ما قد غش قلوب هؤلاء الكفار واعتراها من آثار الكفر والكبائر، والذنوب والمعاصي، فهذه قد تركت على القلوب سوادًا فأصبح أصحابُها لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، بل وأصبحوا يرون المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ** ﷻ **فِي الْقُرْآنِ:** (كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)»(١).

وعند مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ**

---

(١) أحمد بسندٍ حسن (٢/٢٩٧) والترمذي (٣٣٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(١).

س: بمجرد الإيمان واتباع الشرائع يُؤْذَى أهلُ الإيمان دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

وقول قوم لوطٍ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

وكذا قول ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومُك قال: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي.

س: مَنْ أهل لوط الذين أنجاهم الله معه؟

ج: هم المؤمنون به كبناته وعموم من آمن به، أما زوجته فكانت من المعذَّبين، وقد ذُكرت مثلًا للذين كفروا كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

ج: هذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: فأنجينا لوطًا وأهلهن ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا، تُمَالِئُهُمْ عَلَيْهِ وتُعْلمهم بِمَنْ يَقْدم عَلَيْهِ مِنْ ضِيفَانِهِ بِإِشَارَاتٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمَّا أُمِرَ لُوطٌ، عليه السلام، أَنْ يُسْرِي

(١) مسلم (حديث ١٤٤).

بِأَهْلِهِ أُمِرَ أَلَّا يُعْلِمَ امْرَأَتَهُ وَلَا يُخْرِجَهَا مِنَ الْبَلَدِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلِ اتَّبَعَتْهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ العذابُ الْتَفَتَتْ هِيَ فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَا أَعْلَمَهَا لُوطٌ، بَلْ بَقِيَتْ مَعَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: (إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ) أَيْ: الْبَاقِينَ. وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ (مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ) الْهَالِكِينَ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما أبى قوم لوط= مع توبيخ لوط إياهم على ما يأتون من الفاحشة، وإبلاغه إياهم رسالة ربه بتحريم ذلك عليهم= إلا التمادي في غيّهم، أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين به، إلا امرأته، فإنها كانت للوط خائنة، وبالله كافرة.

وقوله: (مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ)، يقول: من الباقين.

وقيل: (مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ)، ولم يقل "الغابرات"، لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: (مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾.

ج: ذلك مفسرٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

وقال الطبري خ:

يقول تعالى ذكره: وأمطرنا على قوم لوط الذين كذبوا لوطًا ولم يؤمنوا به، مطرًا من حجارة من سجّيل أهلكناهم به (فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ)، يقول جل ثناؤه: فانظر، يا محمد، إلى عاقبة هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله من قوم لوط، فاجترموا معاصيَ الله، وركبوا الفواحش، واستحلوا ما حرم الله من أدبار الرجال، كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيرَه من العقوبة، عاقبةُ من كذَّبك واستكبر عن الإيمان بالله وتصديقك إن لم يتوبوا، من قومك.

قَالَ تَعَالَى:

وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ
ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ٨٥ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ
بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧ قَالَ ٱلۡمَلَأُ
ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ
أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا
بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ
ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣

الكلمة	معناها
﴿مَدۡيَنَ﴾	قبيلة يُقال لها: (مدين).
﴿بَيِّنَةٞ﴾	علامة وحجة ودلالة.
﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾	أتموا الكيل ولا تنقصوه- أعطوا الناس حقوقهم مستوفاة عندما تكيلون لهم أو تَزِنُون لهم.
﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾	لا تنقصوا- لا تظلموا.
﴿صِرَٰطٖ﴾	طريق.
﴿تُوعِدُونَ﴾	تهددون (المؤمنين بالقتل).
﴿وَتَصُدُّونَ﴾	تمنعون (تمنعون من أراد أن يؤمن من الإيمان).
﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	طريق الله الموصل إلى جنته ومرضاته.
﴿وَتَبۡغُونَهَا﴾	تريدونها.
﴿عِوَجٗا﴾	هلاكًا- طريقًا معوجة.
﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾	تريدونها طريقًا معوجة لا توصل إلى طريق الله ولا إلى مرضاته ولا إلى جنته.
﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾	فانتظروا.
﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾	تكبروا عن الإيمان واتباع رسولهم (شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ).
﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾	لترجعن إلى ديننا وما نحن عليه.
﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾	أو لو كنا كارهين الرجوع إلى ملتكم.
﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾	اختلقنا- تقولنا عليه بالباطل.
﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾	أحاط ربنا بكل شيء علمًا- ما من شيء إلا والله يعلم عنه كل شيء علمًا كاملًا.
﴿تَوَكَّلۡنَاۚ﴾	اعتمدنا.
﴿ٱفۡتَحۡ﴾	اقصد- احكم.
﴿ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾	الحاكمين.

الكلمة	معناها
﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾	الزلزلة المحركة لهم.
﴿جَٰثِمِينَ﴾	بروكًا على رُكبهم– موتى هلكى.
﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾	كأن لم يعيشوا فيها، ولم يسكنوها حتى هلكوا.
﴿ءَاسَىٰ﴾	أحزن.

شيءٌ من ذكر نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ

س: ما المراد (بمدين)؟ ومَنْ شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن مدين قبيلة من القبائل.

وقيل: إنها اسم لبلدةٍ.

وقيل: إنها اسم لرجل يُقال له مدين بن مديان بن إبراهيم خليل الرحمن، ونسبت إليه بعد ذلك قبيلته، فالله أعلم.

أما شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: فنبي كريم أرسله الله عَزَّ وَجَلَّ إلى أهل هذه القبيلة، أو تلك القرية يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك ما هم عليه من ظلم العباد، وذلك أنهم كانوا يطففون المكاييل والموازين ويبخسون الناس حقوقهم، فدعاهم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبلغ في دعوتهم، ولقد قيل: إنه خطيب الأنبياء(١) لفصاحة عبارته وجزالة أسلوبه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونصح ووعظ وذكَّر، ونهاهم عما هم فيه من الغيِّ والشر والفساد والظلم، وسيأتي مزيدُ تفصيل لذلك، إن شاء الله.

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ نقلًا عن ابن إسحاق: إن شعيبًا هو شعيب بن ميكيل بن يشجر، وقيل: اسمه بالسريانية (يثرون) فالله أعلم.

س: هل شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الرجل الصالح المذكور في سورة القصص، والقائل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾.

---

(١) أي: الذين هم قبل نبينا محمد ﷺ، وإلا فقد أوتي نبينا محمد ﷺ جوامع الكلم.

ج: لم أقف على دليل يثبت ذلك، اللهم إلا ذهاب موسى عليه السلام لبلاد مدين كما ورد في سورة القصص.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الآية.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ولقد أرسلنا إلى قبيلة مدين نبيًّا كريمًا صالحًا من قبيلتهم، ومن بلدتهم، وهو شعيب عليه السلام، فأمرهم هذا النبي الكريم بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيَّن لهم أنه ليس لهم إلهٌ سوى الله عز وجل، وأوضح لهم أن البينَّة قد جاءتهم بذلك، وتلك البينة هي البيان والحجة اللتان جاء بهما شعيب عليه السلام وكذا رسالته إليهم، أي أن الحجة قد قامت عليكم برسالتي إليكم-، ولم تذكر معجزةٌ لشعيب عليه السلام، كالناقة التي أخرجها الله عز وجل لثمود وكعصا موسى عليه السلام، وتسخير الريح لسليمان عليه السلام ونحو ذلك.

۞ ثم إن شعيبًا عليه السلام، وبعد أن أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ذكَّرهم أيضًا بأداء الحقوق لأهلها ونهاهم عن تطفيف المكاييل والموازين، بل وأمرهم بإيفائها قائلًا: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ أي: بعد إصلاحها بإرسال الرسل إليكم وإخباركم بما يريده منكم ربكم عز وجل وبيَّن لهم أن ذلك هو الخير لهم إن كانوا من المصدِّقين المؤمنين.

قال الطبري رحمه الله:

فتأويل الكلام: على ما قاله ابن إسحاق[١]: ولقد أرسلنا إلى ولد مدين، أخاهم شعيب بن ميكيل، يدعوهم إلى طاعة الله، والانتهاء إلى أمره، وترك السعي في الأرض بالفساد، والصدِّ عن سبيله، فقال لهم شعيب: يا قوم، اعبدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من إله يستوجب عليكم العبادة غير الإله الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضركم (قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)، يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه (فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ)، يقول: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به (وَلَا تَبْخَسُوا۟

(١) القدر الذي ذكره ابن إسحاق في هذا المقام التعريف بشعيب عليه السلام فقط.

﴿ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، يقول ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها.

ومن ذلك قولهم: «تَحْسَبُها حَمْقَاءَ وهي بَاخِسَةٌ»، بمعنى: ظالمة ومنه قول الله: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، يعني به: رديء.

س: ما هذه البينة التي عناها شعيب عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾.

ج: هذه البيِّنة هي الرسالة التي أتاهم بها من ربِّه عز وجل، والبيان والحجة.

س: اذكر بعض الوارد في الحث على إيفاء الكيل والميزان والتحذير من البخس والتطفيف.

ج: قد اوردت -والحمد لله- شيئًا كثيرًا من هذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾.

۞ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾.

۞ وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾.

س: وضح المراد بقوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾.

ج: المراد، والله تعالى أعلم، لا تشركوا بالله بعد أن أتاكم الأمر بتوحيده وجاءتكم الدلائل والبينات على ذلك، وكذا لا تطففوا المكاييل والموازين بعد أن جاءتكم الأوامر بإيفائها، وكذا لا تعصوا ربكم عز وجل، وقد جاءتكم الأوامر بطاعة واتباع رسله، والله تعالى أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾، يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله، والإشراك

به، وبخس الناس في الكيل والوزن ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، يقول: بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي عليه السلام فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يقول: هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به، من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خيرٌ لكم في عاجل دنياكم وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، يقول: إن كنتم مصدقيَّ فيما أقول لكم، وأؤدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه.

|

س: شياطين الإنس والجن يقفون دومًا على طريق من آمن يمنعونه من الدخول في الإيمان ويخوفونه إن هو آمن، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

۞ وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، فدليل على أنهم كانوا يصرفون الناس عن الإيمان.

۞ وكذلك في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ...»[١] الحديث وقد تقدم.

س: كيف كانوا يصدون عن سبيل الله؟

ج: قال بعض أهل العلم:

كانوا يخوفون الناس الإتيانَ على شعيب والذهاب إليه ويقولون: إنه كذاب.

وقال آخرون: كانوا يجلسون في الطرقات يحذرون من أراد الذهاب إلى شعيب

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٦/٢١-٢٢).

ويهددونه بالقتل.

وقال غيرهم: كانوا قطَّاع طريق يتوعدون الناس بالقتل إذا لم يعطوهم الأموال.

وقال غيرهم: كانوا يمنعون الناس من الإيمان.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا ﴾ للناس ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و ﴿تُوعِدُونَ ﴾ من سلكها ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ من أراد الاهتداء به ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها. ﴿وَاذْكُرُوا ﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدرار الأرزاق وكثرة النسل. ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والإنبتات.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

ج: يُذَكِّر الله عَزَّ وَجَلَّ قوم مدين بما كانوا فيه، وبالذي أنعم به عليهم فيقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا ﴾ أي: تذكروا ذلك ولا تنسونه، ومن ثَمَّ فقدِّموا له شكرًا، تذكروا كونكم كنتم قِلةً قليلةً، فزاد الله عددكم ونسلكم وكثَّر أيضًا أموالكم، فاشكروا ذلك واعتبروا بمن كان حولكم من الأمم التي أبادها الله وأفناها لما تمردت على أمر ربها، وعصت رسله، وأفسدت في الأرض.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾، يذكرهم شعيب نعمة الله

عندهم بأن كثَّرَ جماعتهم بعد أن كانوا قليلا عددهم، وأنْ رَفعهم من الذلة والخساسة، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية، ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، يقول: وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم وعصوا رسله، من المَثُلات والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه؟ ألم يُهلك بعضهم غرقًا بالطوفان، وبعضهم رجمًا بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟

و«الإفساد"»، في هذا الموضع، معناه: معصية الله.

استحباب استكثار النسل

س: في الآيات الكريمات دليلٌ على استحباب كثرة النسل، اذكر مزيدًا من الأدلة على ذلك.

ج: من ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى ممتنًا على بني إسرائيل: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

۞ وقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾.

۞ وقول رسول الله ﷺ: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ»(١).

وقد أوردت طائفة من الأدلة في ذلك في تفسير سورة نوح عليه السلام.

س: وضح معنى قول شعيب عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾.

ج: الحاصل، والله تعالى أعلم، أن شعيبًا عليه السلام ذكَّر قومه وخوفهم وبيَّن لهم حقيقة ما هم عليه مقبلون، فقال لهم ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ﴾ أي: جماعة منكم: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ أي: صدقوني فيما أخبرتهم به، وعبدوا الهل وحده ولم

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (حديث ٢٠٥٠) والنسائي (٦/ ٥٦) وغيرهما من حديث معقل بن يسار مرفوعًا.

يشركوا به شيئًا وانتهوا عن تطفيف المكاييل والموازين، وتركوا الإفساد في الأرض، بل وأصلحوها، ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ أي: وطائفة أُخرى بقيت على شركها وعصيانها وتمردها، وبقيت على ظلم العباد، واستمرت على تطفيف المكاييل والموازين، واستمرت على الإفساد في الأرض والصد عن سبيل الله ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾ أي: انتظروا القضاء الذي يقضي به الله ﷻ بيننا وبينكم وفينا وفيكم، وذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي: والله ﷻ ﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي أعدل من حكم.

س: أهل الكفر ينابذون أهل الإيمان العداء حتى يَرُدُّوهم عن دينهم، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾.
- وقول قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾.
- وقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾.

س: وضح المعنى الإجمالي لقول نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قد تقولنا على الله الكذب واختلقناه ونسبنا إلى الله ما لم يقله لما دعوناكم إلى توحيده وعبادته وعدم تطفيف المكاييل والموازين، إذا نحن رجعنا إلى دينكم مرةً ثانية، فمعنى رجوعنا إلى دينكم أننا كنا نكذب على الله ونفتري عليه، وإلا فلماذا رجعنا إلى ملتكم؟!! ولكننا بفضل الله وتوفيقه ثابتون على ما نحن عليه من الحق والإيمان ولن نعود في ملتكم بعد إذ سلَّمنا الله وعافانا ونجانا منها، إلا إذا أراد الله بنا أمرًا، فإن أمره نافذٌ فينا، ونسأله الثبات على الإيمان، فربنا

أعلم بما هو كائن، ولكننا اعتمدنا على الله ﷻ، ونسأله ما دمتم قائمين على ضلالكم وتكذيبكم لنا أن يُعَجِّلَ بالقضاء بيننا وبينكم، فهو أعدل من حكم وأعدل من قضى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: قال شعيب لقومه إذ دعوه إلى العود إلى ملتهم، والدخول فيها، وتوعَّدوه بطرده ومَنْ تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك هو وهم: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، يقول: قد اختلقنا على الله كذبًا، وتخرّصنا عليه من القول باطلا= إن نحن عدنا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها، بأن بصَّرنا خطأها وصوابَ الهدى الذي نحن عليه= وما يكون لنا أن نرجع فيها فندين بها، ونترك الحق الذي نحن عليه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ إلا أن يكون سبق لنا في علم الله أنّا نعود فيها، فيمضي فينا حينئذ قضاء الله، فينفذ مشيئته علينا ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾، يقول: فإن علم ربنا وسع كل شيء فأحاط به، فلا يخفى عليه شيء كان، ولا شيء هو كائن. فإن يكن سبق لنا في علمه أنّا نعود في ملتكم، ولا يخفى عليه شيء كان ولا شيء هو كائن، فلا بد من أن يكون ما قد سبق في علمه، وإلا فإنا غير عائدين في ملّتكم.

قال السعدي خ:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبا، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعد ما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال.

وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد

عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئًا أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته.

س: في قول شعيب عليه السلام: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ احتِراز حسنٌ، وضح وجهه.

ج: وجه ذلك أن شعيبًا عليه السلام أظهر أمرًا وبيَّنه ألا وهو: أن ثباته ومن معه على الإيمان إنما هو بتوفيق الله عز وجل وبتثبيت الله له على ذلك، فقال من ثمَّ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلو شاء الله لنا أن نرجع إلى هذه الملةِ لرجعنا إليها.

ونحو ذلك قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: إذا شاء الله لي أن أخاف من هذه الآلهةِ لخفت منها، فما أنا عليه من الثبات على التوحيد وعدم المبالاة بآلهتكم إنما هو بتوفيق الله لي وتثبيت الله عز وجل لي.

وكل هذا حتى لا تنفك عن سؤال الله الثبات وعن دعائه في كل وقت وحين، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلا أن يكون سبق لنا في علم الله أنا نعود فيها فيمضي فينا حينئذٍ قضاء الله فينفذ مشيئته علينا.

قال الطبري رحمه الله:

يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ﴾، وإن كانت جماعة منكم وفرقة ﴿آمَنُوا﴾، يقول: صدّقوا بالذي أرسلتُ به من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه، وظلم الناس، وبخسهم في المكاييل والموازين، فاتّبعوني على ذلك ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾، يقول: وجماعة أخرى لم يصدِّقوا بذلك، ولم يتبعوني عليه ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾، يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، يقول: والله خيرُ من يفصل وأعدل من يقضي، لأنه لا يقع في حكمه مَيْلٌ إلى أحدٍ، ولا محاباة لأحدٍ.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، علم ربنا كلَّ شيءٍ فلا يخفى عليه من الأمور شيءٌ، وأحاط علمًا بكل شيء، فإن كان قد سبق في علمه أننا سنرجع إلى ملتكم فقد علم ذلك ولا محيد لنا عنه وإلا فإننا ثابتون على إيماننا بتثبيت الله ﷻ لنا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، على الله اعتمدنا في أمورنا، ووكلنا كل أمورنا إليه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: (عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا)، يقول: على الله نعتمد في أمورنا، وإليه نستند فيما تعدوننا به من شرِّكم، أيها القوم، فإنه الكافي من توكَّل عليه.

س: وضح معنى قول شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كذبه قومه وعاندوه وأَبَوا إلا الاستمرار على الكفر، دعا عليهم وطلب من الله ﷻ أن يعجل بانتقامه منهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: اقض بيننا وبين قومنا بقضائك الحق، وأنت أعدل الحاكمين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

ثم فزع صلوات الله عليه إلى ربه بالدعاء على قومه= إذ أيس من فلاحهم، وانقطع رجاؤه من إذعانهم لله بالطاعة، والإقرار له بالرسالة، وخاف على نفسه وعلى من اتبعه من مؤمني قومه من فَسَقتهم العطبَ والهلكة= بتعجيل النقمة، فقال: (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ)، يقول: احكم بيننا وبينهم بحكمك الحقّ الذي لا جور فيه ولا حَيْف ولا ظلم، ولكنه عدل وحق (وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)، يعني: خير الحاكمين.

ذكر الفرَّاء أنّ أهلَ عُمان يسمون القاضي "الفاتح" و"الفتّاح".

وذكر غيره من أهل العلم بكلام العرب: أنه من لغة مراد، وأنشد لبعضهم بيتًا

وهو:

أَلا أَبْلِغْ بَنِي عُصْمٍ رَسُولا بِأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى ذكره: وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب وهم(ٱلْمَلَأُ) الذين جحدوا آيات الله، وكذبوا رسوله، وتمادوا في غيِّهم، لآخرين منهم: لئن أنتم اتبعتم شُعَيبًا على ما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وأقررتم بنبوَّته (إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ)، يقول: لمغبونون في فعلكم، وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون، إلى دينه الذي يدعوكم إليه= وهالِكُون بذلك من فعلكم.

س: أهل الكفر يصفون أهل الإيمان بالخسران لكونهم آمنوا ويصفونهم بالضلال كذلك، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك: قول قوم شعيب لمن يريد الإيمان: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

قول قوم فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله: (ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ)، يقول تعالى ذكره: لم يكن الذين اتَّبعوا شعيبًا الخاسرين، بل الذين كذّبوه كانوا هم الخاسرين الهالكين. لأنه أخبر عنهم جل ثناؤه: أن الذين كذبوا شعيبًا قالوا للذين أرادُوا اتباعه: (لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ)، فكذبهم الله بما أحلَّ بهم من عاجل نكاله، ثم قال لنبيه محمد ﷺ: ما خسر تُبَّاع شعيب، بل كانَ الذين كذبوا شعيبًا لما جاءت عقوبة الله، هم الخاسرين، دون الذين صدّقوا وآمنوا به.

العذاب الذي عُذب به قوم شعيب عليه السلام

س: ما العذاب الذي عُذِّب قوم شعيب عليه السلام؟

ج: ذُكر العذاب الذي عُذِّب به المكذبون لشعيب عليه السلام في مواطن من كتاب الله عز وجل.

أحدها: أن العذاب هو الرجفة، قال تعالى ها هنا: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

والثاني: الصيحة كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

والثالث: عذاب يوم الظلة، كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وذلك أنهم لما اشتد عليهم الحرُّ مرَّت بهم سحابة فاستظلوا بها فتأججتْ عليهم نار.

هذا، ومن العلماء من قال- لاختلاف صور العذاب التي نزلت القوم- إن شعيبًا عليه السلام أرسل إلى أكثر من قوم، أُرسل إلى أصحاب الأيكة، وأرسل إلى مدين، فالله أعلم.

وهذا، وقد قال الحافظ ابن كثير خ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شِدَّةِ كُفْرِ قَوْمِ شُعَيْبٍ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ، وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا أَقْسَمُوا وَقَالُوا (لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ) فَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ) أَخْبَرَ تَعَالَى هَاهُنَا أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ كَمَا أَرْجَفُوا شُعَيْبًا وَأَصْحَابَهُ وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالْجَلَاءِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ "هُودٍ" فَقَالَ: (وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ) وَالْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُمْ لَمَّا تَهَكَّمُوا بِنَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ فِي قَوْلِهِمْ: (أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ) فَجَاءَتِ الصَّيْحَةُ فَأَسْكَتَتْهُمْ.

وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ: أَصَابَهُمْ ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ ولَهَب ووهج عَظِيم، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ وَخَمَدَتِ الْأَجْسَادُ، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ أَيْ: كَأَنَّهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمُ النِّقْمَةُ لَمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاءَ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ مِنْهَا.

هذا، وقد أورد الطبري خ بإسنادٍ فيه الكلام عن السّدي:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، قال: إن الله بعث شعيبًا إلى مدين، وإلى أصحاب الأيكة = و«الأيكة»، هي الغيضة من الشجر = وكانوا مع كفرهم يبخَسون الكيل والميزان، فدعاهم فكذبوه، فقال لهم ما ذكر الله في القرآن، وما ردُّوا عليه.

فلما عتوا وكذبوه، سألوه العذابَ، ففتح الله عليهم بابًا من أبواب جهنم، فأهلكهم الحرّ منه، فلم ينفعهم ظلٌ ولا ماء. ثم إنه بعثَ سحابةً فيها ريحٌ طيبة، فوجدوا بَرْدَ الرّيح وطيبها، فتنادوا: الظُّلّة، عليكم بها"! فلما اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، انطبقت عليهم فأهلكتهم، فهو قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾، [سورة الشعراء: ١٨٩].

س: متى تولَّى شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قومه؟

ج: ۞ قيل: إنه تولى عنهم لما كذبوه وأيقن أن العذاب سينزل عليهم.

۞ وقيل: تولى عنهم بعد أن أهلكهم الله عزَّ جل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأدبر شعيب عنهم، شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذّبوه، حزنًا عليهم: ﴿يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي﴾، وأدّيت إليكم ما بعثني به إليكم، من تحذيركم غضبَه على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، بأمري إياكم بطاعة

الله، ونهيكم عن معصيته- (فَكَيْفَ ءَاسَىٰ)، يقول: فكيف أحزن على قوم جَحَدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله، وأتوجَّع لهلاكهم؟

قال تعالى:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ
وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ
ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ
فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ
ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ
ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ
ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ
ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩ أَوَ لَمۡ يَهۡدِ
لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ تِلۡكَ
ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن
وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢

الكلمة	معناها
﴿أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾	أصبنا أهلها– عذبنا أهلها– ابتلينا أهلها.
﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾	البؤس وضيق المعيشة وشظفها–الفقر،وقيل:الأمراض والأسقام
﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾	الضرُّ في الأبدان وسوء الحال.

(١٩٥) أحمر
أسود

الكلمة	معناها
﴿يَضَّرَّعُونَ﴾	يدعون- يرجعون- يُنيبون- يلحون في الدعاء ويرجعون عن ضلالهم وغيِّهم ويعتذرون عنه وعن تكذيب الأنبياء- يخشعون ويبتهلون إلى الله ويجأرون إليه لكشف الضرِّ عنهم.
﴿ٱلسَّيِّئَةِ﴾	الشدة والضر في الأبدان.
﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾	السعة في الأرزاق والعافية في الأبدان.
﴿عَفَوا۟﴾	كثروا- كثرت أموالهم وأولادهم ومواشيهم.
﴿بَغْتَةً﴾	فجأة.
﴿ءَامَنُوا۟﴾	صدقوا.
﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾	جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل الطاعات وترك المحرمات.
﴿بَرَكَٰتٍ﴾	أرزاقًا.
﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾	فعاقبناهم- فأهلكناهم- فعذبناهم.
﴿يَكْسِبُونَ﴾	يعملون (الأعمال السيئة).
﴿بَأْسُنَا﴾	عذابنا.
﴿بَيَٰتًا﴾	ليلًا.
﴿ضُحًى﴾	وقت الضحى.
﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾	عذاب الله ونقمته وقدرته عليهم- تدبير الله.
﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾	أو لم يظهر ويتبين- نُبيِّن.
﴿أَصَبْنَٰهُم﴾	عذبناهم- أهلكناهم.
﴿وَنَطْبَعُ﴾	نختم- نمنع وصول الخير والإيمان إليها.
﴿أَنۢبَآئِهَا﴾	أخبارها.
﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾	الدلالات على صدقهم وصدق ما جاءوا به.
﴿لَفَٰسِقِينَ﴾	لخارجين عن الطاعة- لمرتكبين للمحرمات- لمكذبين للرسل.

بعض الابتلاءات لإرجاع الناس إلى دينهم

س: قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا ﴾ فيه مقدرٌ محذوف، وضحه؟

ج: هذا المقدر هو: فكذَّب أهلها، فالمعنى وم أرسلنا في قرية من نبيٍّ فكذب أهلها إلا وأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، والله أعلم.

س: من مقاصد الابتلاءات إرجاع الناس إلى دينهم وإلى ربهم ﷻ دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ).

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٨].

س: قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ تذكيرٌ لمن؟

ج: ذلك، والله أعلم تذكيرٌ لأهل الكفر بأنهم إذا لم يؤمنوا ولم يتضرعوا سيصيبهم بلاءٌ متمثلٌ في البؤس وقلة الرزق وقلة العيش، وكذا الضرُّ في الأبدان إذا هم لم يؤمنوا ولم يتضرعوا. وكذا فالآية فيها تعريف للنبي ﷺ ولأهل الإيمان بسنن الله ﷻ في خلقه، ونوع تبشير لهم بأن أهل الكفر سيصيبهم نوع بلاء لعلهم يرجعون.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، معرِّفه سنّته في الأمم التي قد خَلَت من قبل أمته، ومذكّرَ من كفر به من قريش، لينزجروا عما كانوا عليه مقيمين من الشرك بالله،

والتكذيب لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ ﴾، قبلك ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، وهو البؤس وشَظَف المعيشة وضِيقها= و"الضراء"، وهي الضُّرُ وسوء الحال في أسباب دُنياهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾، يقول: فعلنا ذلك ليتضرّعوا إلى ربهم، ويستكينوا إليه، وينيبوا، بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من تكذيب أنبيائِهم.

س: ما المراد بالسيئة وبالحسنة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾.

ج: المراد، والله أعلم، بالسيئة البأساء والضراء التي أصابتهم، وذلك كالجوع وقلة الثمرات، وكذا الضرُّ في الأبدان، والبلايا والأسقام، أما الحسنة فهي السعة والرخاء والصحة والعافية.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾ الآية؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ثم لم تُجدِ البأساء والضراء مع القوم، أي: لما سلطنا عليهم الابتلاءات، وابتليناهم بالأمراض والأسقام وقلة الأرزاق، ولم ينفع معهم ذلك ولم يُجدِ وسعنا عليهم مرة ثانية في الأرزاق وعافيناهم في الأبدان والأولاد حتى كثرت أموالهم ونمت وازدادت، فلما كان ذلك لم ينتفعوا أيضًا بالرخاء، فلم يردهم الرخاء إلى طريق الله ولكنهم قالوا ما حاصله: إن الذي يحدث لنا من الضرِّ في البدن أحيانًا،وقلة الأرزاق أحيانًا سنةٌ جارية فيمن كانوا قبلنا، ليس لذلك دخل بتكذيبنا للرسل ولا بتصديقنا، ولا بالتوحيد ولا بالشرك، فلما كان ذلك منهم ولم ينتفعوا بأنواع الابتلاءات، أخذهم الله ﷻ بالعذاب بغتة- أي: فجأة وهم لا يشعرون. والله تعالى أعلى وأعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا ﴾ أهلَ القرية التي أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ﴾، وهي البأساء والضراء. وإنما جعل ذلك"سيئة"، لأنه ممّا يسوء الناس= ولا تسوءهم ﴿ٱلۡحَسَنَةَ ﴾، وهي الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾، يقول: حتى كَثُروا.

وكذلك كل شيء كثر، فإنه يقال فيه:"قد عفا"، كما قال الشاعر:

ولَكِنَّا نُعِضُّ السَّيفَ مِنْهَا ... بِأَسْوُقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ

وأما قوله: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، فإنه خبرٌ من الله عن هؤلاء القوم الذين أبدلهم مكان الحسنة السيئة التي كانوا فيها، استدراجًا وابتلاء، أنهم قالوا إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابتْ مَنْ قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافَنا، ونحن لا نعدُو أن نكون أمثالَهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعايش والرخاء فيها= وهي "السراء"، لأنها تَسرُّ أهلها.

وجهل المساكين شكرَ نعمة الله، وأغفلوا من جهلهم استدامةَ فضلهِ بالإنابة إلى طاعته، والمسارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون.

يقول جل جلاله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، أتاهم على غِرّة منهم بمجيئه، وهم لا يدرون ولا يعلمون أنّه يجيئهم، بل هُم بأنه آتيهم مكذّبون حتى يعاينوه ويَرَوه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنَّهُ ابْتَلَاهُمْ بِالشِّدَّةِ لِيَتَضَرَّعُوا، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنَ الَّذِي أَرَادَ اللهُ مِنْهُمْ، فَقَلَبَ الْحَالَ إِلَى الرَّخَاءِ لِيَخْتَبِرَهُمْ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾أَيْ: حولّنا الحال من شدة إِلَى رَخَاءٍ، وَمِنْ مَرَضٍ وَسَقَمٍ إِلَى صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنًى، لِيَشْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ، فَمَا فَعَلُوا.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أَيْ: كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، يُقَالُ: عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ابْتَلَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا لِيَتَضَرَّعُوا ويُنِيبوا إِلَى اللهِ، فَمَا نَجَع فِيهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، وَلَا انْتَهَوْا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا بَلْ قَالُوا: قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، ثُمَّ بَعْدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ الدَّهْرُ تَارَاتٌ وَتَارَاتٌ، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِأَمْرِ اللهِ فِيهِمْ، وَلَا اسْتَشْعَرُوا ابْتِلَاءَ اللهِ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ. وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى السَّرَّاءِ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الضَّرَّاءِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**عَجَبًا**

لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَراء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

فَالْمُؤْمِنُ مَنْ يَتَفَطَّنُ لِمَا ابْتَلَاهُ اللهُ بِهِ مِنَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

ثم قال أيضًا:

وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: أَخَذْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بَغْتَةً، أَيْ: عَلَى بَغْتَةٍ مِنْهُمْ، وَعَدَمِ شُعُورٍ مِنْهُمْ، أَيْ: أَخَذْنَاهُمْ فَجْأَةً كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَوْتُ الْفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذَةُ أَسَفٍ للكافر».

س: ما المراد ببركات السماء وبركات الأرض؟

ج: المراد ببركات السماء ما ينزل من الغيث الذي يحيى به الله الأرض بعد موتها ويشرب منه بنو آدم والدواب.

وأما المراد ببركات الأرض ما يخرج منها من نبات وكنوز ونحو ذلك.

التقوى والإيمان من أسباب سعة الأرزاق

س: اذكر بعض الأدلة على أن الإيمان والتُّقى سببان عظيمان من أسباب سعة الأرزاق؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

۞ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.

۞ وقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ولفظه: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

(٢٠٠) أحمر
أسود

﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

۞ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

۞ قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ج: المفاد، والله أعلم، أن الله يُخبر عن سننه في القرى التي أرسل إليها الرسل، وحاصل تلك السنن أن الله ﷻ أرسل المرسلين إلى القرى فكذبوا وعاندوا فأخذهم بالعذاب، ولو أنهم صدقوا المرسلين واتبعوهم ما حلَّ بهم العذاب ولا النكال، بل كنا وسعنا عليهم وأنزلنا عليهم غيثًا من السماء يغيثهم ولأخرجنا لهم من الأرض ثمرتها ونباتها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى عَنْ قِلَّةِ إِيمَانِ أَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ أَرْسَلَ فِيهِمُ الرُّسُلَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) أَيْ: مَا آمَنَتْ قَرْيَةٌ بِتَمَامِهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا عَايَنُوا الْعَذَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟) أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، وَصَدَّقَتْ بِهِ وَاتَّبَعَتْهُ، وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ) أَيْ: قَطْرَ السَّمَاءِ وَنَبَاتَ الْأَرْضِ. قَالَ تَعَالَى: (وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ) أَيْ: وَلَكِنْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، فَعَاقَبْنَاهُمْ بِالْهَلَاكِ عَلَى مَا كَسَبُوا مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ.

قال القرطبي رحمه الله:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ) يُقَالُ لِلْمَدِينَةِ قَرْيَةٌ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا. مِنْ قَرَيْتُ الْمَاءَ إِذَا جَمَعْتُهُ. وَقَدْ مَضَى فِي "الْبَقَرَةِ" مُسْتَوْفًى. (ءَامَنُواْ) أَيْ صَدَّقُوا. (وَاتَّقَوْاْ) أَيِ الشِّرْكَ. (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) يَعْنِي الْمَطَرَ وَالنَّبَاتَ. وَهَذَا فِي أَقْوَامٍ عَلَى الْخُصُوصِ جَرَى ذِكْرُهُمْ.

إِذْ قَدْ يُمْتَحَنُ الْمُؤْمِنُونَ بِضِيقِ الْعَيْشِ وَيَكُونُ تَكْفِيرًا لِذُنُوبِهِمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ (اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) [نوح: ١٠، ١١] وَعَنْ هُودٍ (ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) [هود: ٥٢]. فَوَعَدَهُمُ الْمَطَرَ وَالْخِصْبَ عَلَى التَّخْصِيصِ. يَدُلُّ عَلَيْهِ (وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) أَيْ كذبوا الرسل. والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا.

التحذير من الأمن من مكر الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- أفأمن هؤلاء المكذبون من أهل القرى، وهم مقيمون على تكذيبهم ومُعْرِضُون عن الإيمان بالله ورسله وغارقون في سيء الأعمال والأقوال أفأمنوا وهم على حالهم من التكذيب والعناد والشِّقاق أن يأتيهم عذابنا ليلًا أثناء نومهم، فتأخذهم الزلازل والصيحات، وتخرُّ عليهم البيوت والسقوف وتتنوع عليهم صور العذاب؟! فإن عذاب الله قد يحلُّ بالأقوام وهم نيام، وكذا قد يحلُّ بهم أثناء لعبهم في وقت الضحى، أفأمنوا الكفار صور العذاب هذه وتلك؟ أم هل اطمأنوا إلى أن الله ﷻ لن يعذبهم ولن ينزل بهم رأسه ونكاله وهم متجرؤن على معاصيه؟! فلا يصل إلى هذه الحال إلَّا القوم الخاسرون.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ تَعَالَى مُخَوِّفًا وَمُحَذِّرًا مِنْ مُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ، وَالتَّجَرُّؤِ عَلَى زَوَاجِرِهِ: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ) أَيِ: الْكَافِرَةِ (أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا) أَيْ: عَذَابُنَا وَنَكَالُنَا، (بَيَٰتًا) أَيْ: لَيْلًا (وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) أَيْ: فِي حَالِ شُغْلِهِمْ

وَغفْلَتِهِمْ، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ: بَأْسَهُ وَنِقْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِمْ وَأَخْذَهُ إِيَّاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِق وَجِل خَائِفٌ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أفأمن، يا محمد هؤلاء الذين يكذّبون الله ورسوله، ويجحدون آياته، استدراجَ الله إيّاهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحّة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قصَّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإنّ مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا، مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وهم الهالكون.

دفع إشكال

س: أليس قد يُبْتلى أهل الإيمان بالضر في الأبدان وقلة الأموال؟ فإذا كان ذلك كذلك فكيف توجه الآية الكريمة؟

ج: بلى قد يَبْتَلى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أهل الإيمان بالضر في الأبدان وبقلة الأموال كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ولكن ثمَّ فارق بين ابتلاء الله لأهل الإيمان، وبين العقوبات التي تحل بأهل الكفر، فالذي يحلُّ بأهل الكفر عقوبات على جرائم ترتكب وكذلك ليراجعوا دينهم.

أما ما يُبتلى به أهلُ الإيمان فلرفعة الدرجات ولرفع المقامات.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أولم يظهر ويتبين للذين ورثوا الأرض بعد الذين أهلكناهم، واستمرواهم الآخرون على الذنوب وأقاموا عليها أن لو تشاء فعلنا بهم كما فعلنا بالذين كانوا من قبلهم، فأخذناهم بالعذاب كما أخذنا الذين من قبلهم

وكذلك نختم على قلوبهم فلا يسمعونه حقًّا ولا يهتدون لرشدٍ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: أوَلم يَبن للّذين يُسْتخلفون في الأرض بعد هلاك آخرين قبلهم كانُوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا عن أمر ربهم﴿لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، فأخذناهم بذنوبهم، وعجّلنا لهم بأسَنا كما عجلناه لمن كان قبلهم ممن ورثوا عنه الأرض، فأهلكناهم بذنوبهم﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، موعظةً ولا تذكيرًا، سماعَ منتفع بهما.

وأورد الحافظ ابن كثير خ قول الطبري هذا ثم قال:

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾، وقال: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ أي: هل ترى لهم شخصًا، أو تسمع لهم صوتًا، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾، وقال تعالى: بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي

ٱلصُّدُورِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقَّب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾.

ج: المعنى- والله أعلم- تلك القرى التي أهلكناها وأخذناها بصور متعددةٍ ومتنوعة من العذاب نخبرك بأخبارها وما حلَّ بأهلها كما كذبوا المرسلين وطغوا وبغوا واستكبروا في الأرض بغير الحق، حتى تخبر بذلك قومَك وتحذرهم من مغبةِ التكذيب، وكذا حتى توقن أن العاقبة للتقوى، فتصبر كما صبر إخوانك من المرسلين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هذه القرى التي ذكرت لك، يا محمد، أمَرها وأمر أهلها= يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا) فنخبرك عنها وعن أخبار أهلها، وما كان من أمرهم وأمر رُسل الله التي أرسلت إليهم، لتعلم أنا ننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا على أعدائنا وأهل الكفر بنا، ويعلم مكذبوك من قومك ما عاقبة أمر من كذَّب رسل الله، فيرتدعوا عن تكذيبك، وينيبوا إلى توحيد الله وطاعته (وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ)، يقول: ولقد جاءت أهل القرى التي قصصت عليك نبأها، (رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ)، يعني بالحجج: البينات (فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ وَإِنْجَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ بَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، قَالَ تَعَالَى: (تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ) أَيْ: يَا مُحَمَّدُ (مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ) أَيْ: مِنْ أَخْبَارِهَا، (وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ) أَيْ: بِالْحُجَجِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)، وَقَالَ تَعَالَى: (ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ

نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: فما كان هؤلاء الكفار الذين أُرسلت إليهم وبعثت فيهم وقصصت عليهم قصص من سبقوهم ليؤمنوا بعد أن قصصت عليهم القصص وذكرت لهم الأخبار وحذرتهم أشد التحذير، فما كانوا ليؤمنوا بالذي كذب به من سبقوهم، بل كذبوا كما كذب من كان قبلهم ولم يتَّعظوا ولم يعتبروا.

ويكون قوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ أي: المعاصرون للنبي ﷺ وقوله: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: بما كذب به سابقوهم، ويجوز أن تتنوع الضمائر ويحدث تحولٌ في الخطاب كما هو معلوم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم عليه السلام، ثم صورناكم يا بني آدم.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿فَمَا لِيُؤْمِنُواْ كَانُواْ﴾ أي: فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم بعد مجيء الرسل إليهم ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾ عند مجيء الرل إليهم ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: بالذي كذبوا به عند أخذ الميثاق عليهم، وذلك أنهم- على حدِّ قول الذين اختاروا هذا القول- عند أخذ الميثاق عليهم وهم في صلب آدم عليه السلام، ما أقروا بالوحدانية إلا كرهًا، وكان قوله تعالى لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وقولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي: شهدوا بذلك كرهًا، كذا قال من اختار هذا القول.

القول الثالث: وهو قريب الشبه من القول الثاني، ألا وهو أن قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ أي: فما كانت الأمم المكذبة لرسلها، التي أهلكها الله لتكذيبها لتؤمن عند مجيء الرسل: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: بما سبق في علم الله أنهم سيموتون على التكذيب، ولن يصدقوا المرسلين. فيكون قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: بالذي سبق في علم الله أنهم سيكذبون به.

القول الرابع: أن قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ أي: إذا أحييناهم – بعد موتهم ومعاينتهم العذاب- ورددناهم إلى الدنيا وعرضنا عليهم الإيمان ثانيةً فما

كانوا ليؤمنوا أيضًا مع أنهم قد رأوا العذاب، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

القول الخامس: قول من قال من العلماء: إن الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾ سببيةٌ، فالمعنى فما كانوا ليؤمنوا لمَّا جاءتهم الرسل، ولما عاينوا العذاب، ولما بلغهم أمر الأمم من قبلهم، والعذاب والنكال الذي حلَّ بها، وذلك- أي عدم إيمانهم- بسبب تكذيبهم السابق، فتكذيبهم السابق تسبب في الطبع على قلوبهم، فلم تعد المواعظ تجدي، ولم تعد المواعظ تنفع.

وهذا الأخير – القول الخامس- هو اختيار الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قال:

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، حكاه ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو متجه حسن، كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أما الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قال:

وأشبه هذه الأقوال بتأويل الآية وأولاها بالصواب، القولُ الذي ذكرناه عن أبيّ بن كعب والربيع. وذلك أن من سبق في علم الله ع أنه لا يؤمن به، فلن يؤمن أبدًا، وقد كان سبق في علم الله ع لمن هلك من الأمم التي قص نبأهم في هذه السورة، أنه لا يؤمن أبدًا، فأخبر جل ثناؤه عنهم، أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم به مكذبون في سابق علمه، قبل مجيء الرسل وعند مجيئهم إليهم. ولو قيل: تأويله: فما كان هؤلاء الذين وَرِثوا الأرض، يا محمد، من مشركي قومك من بعد أهلها، الذين كانوا بها من عاد وثمود، ليؤمنوا بما كذب به الذين ورثوها عنهم من توحيد الله ووعده ووعيده= كان وجهًا ومذهبًا، غير أني لا أعلم قائلا قاله ممن يعتمد على علمه بتأويل القرآن.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «تيسير الكريم الرحمن»:

قوله تعالى: (فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ) الآية.

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه من التفسير: بعضها يشهد له القرآن.

منها: أن المعنى فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم الله يوم أخذ الميثاق أنهم يكذبون به، ولم يؤمنوا به، لاستحالة التغير فيما سبق به العلم الأزلي، ويروى هذا عن أبي بن كعب وأنس، واختاره ابن جرير، ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا﴾، ونحو ذلك من الآيات.

ومنها: أن معنى الآية أنهم أخذ عليهم الميثاق، فآمنوا كرها، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعا. ويروى هذا عن السدي وهو راجع في المعنى إلى الأول.

ومنها: أن معنى الآية أنهم لو ردوا إلى الدنيا مرة لكفروا أيضا، فما كانوا ليؤمنوا في الرد إلى الدنيا بما كذبوا به من قبل؛ أي في المرة الأولى، ويروى هذا عن مجاهد. ويدل لمعنى هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ لكنه بعيد من ظاهر الآية.

ومنها: أن معنى الآية: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، وهذا القول حكاه ابن عطية، واستحسنه ابن كثير، وهو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة. ووجهه ظاهر؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾، وقوله: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد تكون فيها أوجه من التفسير كلها يشهد له قرآن، وكلها حق. فنذكر جميعها، والعلم عند الله تعالى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وكما أن الله ﷻ طبع على قلوب الكفار السابقين بسبب تكذيبهم المرسلين فهكذا يطبع الله على قلب كل مكذبٍ كافرٍ بآيات الله ﷻ، فلا يؤمن مهما جاءته الآيات،ومهما بلغه من البينات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ)، فإنه يقول تعالى ذكره: كما طبع الله على قلوب هؤلاء الذين كفروا بربهم وعصوا رسله من هذه الأمم التي قصصنا عليك نبأهم، يا محمد، في هذه السورة، حتى جاءهم بأسُ الله فهلكوا به (كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ)، الذين كتب عليهم أنهم لا يؤمنون أبدًا من قومك.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وما وجدنا لأكثر هذه الأمم المكذبة التي أهلكناها من وفاءٍ للعهود التي أخذناها عليهم وهم في صلب آدم، أن يوحدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، بل نقضوا العهود والمواثيق، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولم نجد لأكثر أهل هذه القرى التي أهلكناها واقتصصنا عليك، يا محمد، نبأها(مِّنۡ عَهۡدٖۖ)، يقول: من وفاء بما وصيناهم به، من توحيد الله، واتباع رسله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وهجر عبادة الأوثان والأصنام.

و"العهد"، هو الوصية، قد بينا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته. (وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ)، يقول: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة عن طاعة ربهم، تاركين عهده ووصيته.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم﴾ أَيْ: لِأَكْثَرِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ أَيْ: وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ. وَالْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ [عَلَيْهِمْ] هُوَ مَا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ، فَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَعَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ، لَا مِنْ عَقْلٍ وَلَا شَرْعٍ، وَفِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ خِلَافُ ذَلِكَ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ

مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاء، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أحللتُ لَهُمْ**». وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ**» الْحَدِيث. وَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيز: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قلت (مصطفى): وقد أشار بعض العلماء إلى أن المراد بالعهد هنا عموم العهود التي أخذها الله عليهم سواء وهم في صلب آدم، أو التي أخذت عليهم على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو تلك العهود التي تجري بينهم وبين العباد فهم أيضًا للعهود التي يعطونها للعباد ناقضون، لا يفون بعهدٍ ولا يعبثون بميثاق، والله تعالى أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، موسى بن عمران.

و«الهاء والميم» اللتان في قوله: (مِنۢ بَعۡدِهِم)، هي كناية ذكر الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ التي ذكرت من أول هذه السورة إلى هذا الموضع.

(بِـَٔايَٰتِنَآ) يقول: بحججنا وأدلتنا (إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِۦ)، يعني: إلى جماعة فرعون من الرجال (فَظَلَمُواْ بِهَا)، يقول: فكفروا بها.

و"الهاء والألف" اللتان في قوله: (بِهَآ) عائدتان على "الآيات". ومعنى ذلك: فظلموا بآياتنا التي بعثنا بها موسى إليهم= وإنما جاز أن يقال: (فَظَلَمُواْ بِهَا) بمعنى: كفروا بها، لأن الظلم وَضْعُ الشيء في غير موضعه. وقد دللت فيما مضى على أن ذلك معناه، بما أغنى عن إعادته.

والكفر بآيات الله، وضع لها في غير موضعها، وصرف لها إلى غير وجهها الذي عُنِيت به (فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ)، يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فانظر

يا محمد، بعين قلبك، كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض؟ يعني فرعون وملأه، إذ ظلموا بأيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعًا في البحر.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أَي: الرُّسُلَ الْمُتَقَدِّمَ ذِكْرُهُمْ، كَنُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللهِ أَجْمَعِينَ. ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أَيْ: بِحُجَجِنَا وَدَلَائِلِنَا الْبَيِّنَةِ إِلَى فرعون وَهُوَ مَلِكُ مِصْرَ فِي زَمَنِ مُوسَى، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أَيْ: قَوْمِهِ، ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أَيْ: جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظُلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أَي: الَّذِينَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، أَي: انْظُرْ -يَا مُحَمَّدُ- كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَأَغْرَقْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، بِمَرْأَى مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ. وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النَّكَالِ بِفِرْعَوْنِ وَقَوْمِهِ، وَأَشْفَى لِقُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللهِ -مُوسَى وَقَوْمِهِ- مِنَ المؤمنين به.

قَالَ تَعَالَى:

ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣ وَقَالَ
مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ
عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ
بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ
مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ قَالَ
ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن
يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ
وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ
١١٢ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ
ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ
يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ
أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو
بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا
هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ
١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
١٢٢
قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ

مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ
أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ
إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا

وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ
مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ
سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ
أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ
١٢٩

الكلمة	معناها
﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾	بمعجزاتنا (كالعصا واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء وغير ذلك).
﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾	جماعته- أشراف قومه.
﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾	فكفروا بها- فظلموا أنفسهم وغيرهم بسبب كفرهم بها.
﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾	جزاء المفسدين- آخر أمر المفسدين.
﴿حَقِيقٌ﴾	جديرٌ- حريصٌ- واجبٌ عليَّ- حقٌّ عليَّ.
﴿بِبَيِّنَةٍ﴾	بحجة مظهرة لصدقي.
﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	اتركهم معي حتى نخرج من أرضك.
الكلمة	معناها

(٢١٣) أحمر
أسود

الكلمة	معناها
﴿بِـَٔايَةٍ﴾	بحجةٍ – بدلالة – بمعجزة.
﴿مُّبِينٌ﴾	تتبين لمن يراها أنها حية – واضح أنه ثعبان – مظهرٌ لقدرة الله ولصدقي.
﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾	أخرج يده.
﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾	لمن نظر إليها من الناس.
﴿ٱلْمَلَأُ﴾	الأشراف والوجهاء والمستشارون وعلية القوم .
﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾	بِمَ تشيرون؟
﴿أَرْجِهْ﴾	أَخِّره – أمهله – احبسه.
﴿وَأَخَاهُ﴾	يعنون: هارون عليه السلام.
﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾	المُدن.
﴿حَٰشِرِينَ﴾	جمع حاشر، وهو: الذي يجمع الناس ويحشرهم – جامعين يجمعون الناس، وقيل: المراد –هنا–: الشُّرطة الذين يذهبون لإحضار الناس.
﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾	إن غلبنا موسى وتفوقنا عليه.
﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾	لمن قراباتي وفي منزلة أقربائي، ومن المقربين إليَّ في مجالسي.
﴿تُلْقِيَ﴾	ترمي بعصاك.
﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾	خيَّلوا للناس الأشياء على غير حقيقتها – خدعوا أعين الناس.
﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾	أخافوهم – روَّعوهم.
﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾	بتخييل وخداع عظيم كبير في أعين الناس.
﴿تَلْقَفُ﴾	تبتلع وتلتهم – تأكل.
﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾	ما يسحرون – ما يأتون به من الكذب والأباطيل والافتراءات والاختلاقات – يُلقون – يكذبون.

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾	فظهر الحق.
﴿وَبَطَلَ ﴾	ذهب وانهزم واضمحل.
﴿هُنَالِكَ ﴾	عند ذلك.
﴿وَٱنقَلَبُواْ ﴾	انصرفوا- رجعوا - هُزموا.
﴿صَٰغِرِينَ ﴾	مقهورين أذلاء.
﴿ وَأُلْقِيَ ﴾	خرَّوا سُجدًا.
﴿ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾	أصدقتموه بأنه رسول من عند الله وأقررتم بما يقول؟
﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾	خدعة خدعتم بها الناس، وتدبير دبرتموه.
﴿مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾	كأن تُقْطَعَ اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى.
﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾	لأقتلنكم بطريقة الصلب، (وذلك كأن يضعهم على النخيل ويربطهم ويتركهم هكذا حتى يموتوا).
﴿مُنقَلِبُونَ ﴾	راجعون.
﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾	أنزل علينا صبرًا، احفظنا وأنزل علينا حبسًا يحبسنا عن الكفر بك ويمنعنا من الكفر بك عند تعذيبه لنا.
﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾	اقبضنا على الإسلام.
﴿أَتَذَرُ ﴾	أتترك.
﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾	نستبقي نساءهم- نترك نساءهم أحياء (للاستمتاع بهن ولإذلال الرجال بذلك، ولاستخدام الناس).
﴿قَٰهِرُونَ ﴾	غالبون- عالون بالقهر.
﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ ﴾	اطلبوا العون من الله.
﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾	النهاية الحسنة والمآل المحمود الطيب.
﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ ﴾	يجعلكم خلفاء.

شيء من ذكر نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ج: المراد- والله أعلم- بمراده، ثم بعثنا من بعد هذه الأمم التي أهلكناها، والقرى التي أفنيناها، كقوم عادٍ وثمود، وكقوم لوط وشعيب وغير هذه القرى المكذبة، بعثنا بعدها موسى عليه السلام كليم الله عز وجل مؤيدًا بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه وعلى أنه رسولٌ من عند الله عز وجل مؤيدًا بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه وعلى أنه رسولٌ من عند الله عز وجل كالعصا واليد وغير ذلك بعثناه إلى فرعون المتكبر المتعالي الذي افترى كذبًا وزورًا وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكذا جماعته المتبعين له على ضلاله، الذين استخفهم فأطاعوه، فكفر فرعون وكفرت جماعته بالآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكذبوا بها تكذيبًا، وعاندوا عنادًا، فانظر إلى مآل أمرهم وما حلَّ بهم، فلقد أغرقهم الله عز وجل جميعًا في البحر.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله عز وجل لما أرسل موسى عليه السلام رسولًا، والتقى موسى عليه السلام بفرعون أخبره بأن الله عز وجل اختاره واصطفاه لرسالته، فقال لفرعون- وهو ملك مصر آنذاك-: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أرسلني الله عز وجل الذي هو خالق كل شيءٍ ورب كل شيء.

ويدخل فيه السموات والأرض وما بينهما من إنس وجن وسائر المخلوقات، جُدير بي، وواجبٌ عليَّ، وقد أرسلني الله عز وجل أن أكون صادقًا فيما أنقله عن الله عز وجل، وها أنا صادقٌ وأقول لكم: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي دلالات وبراهين وحجج على صدقي فيما أقول، فحينئذٍ طلب منه فرعون الحجج والبيِّنات فقال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: بمعجزةٍ دالة على صدقك فيما تقول فبيِّنها لنا وأظهرها لنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُنَاظَرَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ، وَإِلْجَامِهِ إِيَّاهُ بِالْحُجَّةِ، وَإِظْهَارِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِحَضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ قِبْطِ مِصْرَ، فَقَالَ تَعَالَى: (وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) أَيْ: أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ، أَيْ: جَدِيرٌ بِذَلِكَ وَحَرِيٌّ بِهِ.

وَقَالُوا وَ"الْبَاءُ" وَ"عَلَى" يَتَعَاقَبَانِ، فَيُقَالُ رَمَيْتُ بِالْقَوْسِ" وَ"عَلَى الْقَوْسِ"، وَ"جَاءَ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ" وَ "بِحَالٍ حَسَنَةٍ".

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ: حَرِيصٌ عَلَى أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ.

وَقَرَأَ آخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: (حقيق عَلَيَّ) بِمَعْنَى: وَاجِبٌ وَحَقٌّ عَلَيَّ ذَلِكَ أَلَّا أُخْبِرَ عَنْهُ إِلَّا بِمَا هُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لِمَا أَعْلَمُ مِنْ عِزِّ جَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أَيْ: بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنَ اللهِ، أَعْطَانِيهَا دَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أَيْ: أَطْلِقْهُمْ مِنْ أَسْرِكَ وَقَهْرِكَ، وَدَعْهُمْ وَعِبَادَةَ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيٍّ كَرِيمٍ إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ: يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ الرَّحْمَنِ.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أَيْ: قَالَ فِرْعَوْنُ: لَسْتُ بِمُصَدِّقِكَ فِيمَا قُلْتَ، وَلَا بِمُطِيعِكَ فِيمَا طَلَبْتَ، فَإِنْ كَانَتْ مَعَكَ حُجَّةٌ فَأَظْهِرْهَا لِنَرَاهَا، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ)، يقول: قال موسى لفرعون وملئه: قد جئتكم ببرهان من ربكم، يشهدُ، أيها القوم، على صحة ما أقول، وصدق ما أذكر لكم من إرسال الله إياي إليكم رسولا فأرسل يا فرعون معي بني إسرائيل. فقال له فرعون:(إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ)، يقول: بحجة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول (فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ).

س: ما مراد موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- دعهم إلى أخرج أنا وهم من بلادك ونرحل عنها ولا تستعبدهم ولا تسترقهم فإنهم من نسل نبيٍّ كريم وهو يعقوب عليه السلام.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

ج: الظاهر، والله تعالى أعلم، أن المعنى حاصله: أن موسى عليه السلام لما طُلب منه دليلٌ على نبوته ورسالته ألقى عصاه فتحولت إلى حية ذَكر عظيمة هائلة واضحة أنها ثعبان عظيم، فكانت تلك آية عظيمة ودلالة على نبوَّة موسى عليه السلام.

وكذلك فإن موسى عليه السلام أخرج يده ونزعها من جيبه- أي: من فتحة الصدر- فخرجت يده بيضاء لمن نظر إليها شديدة البياض ناصعة، وموسى عليه السلام كان آدم- أي: أسمر- ولكن اليد خرجت هكذا بيضاء دون مرضٍ ودون آفة ولا بَرَص.

هذا، وفي حديث الفتون الطويل عن ابن عباس[1] قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- أن أشراف القوم ووجهاءهم قالوا لبعضهم البعض، وقالوا لفرعون أيضًا: إن موسى- بما جاء به من العصا، واليد- ساحرٌ عليم بالسحر يُخيل الأشياء للناس على غير حقيقتها ويسحر أعينهم أن يجعلها ترى الأمور على غير وجهها الصحيح، فيجعلهم يرون الأسمر أبيضًا (كاليد) فقد كانت يده سمراء، ويجعلهم يرون العصا حية، وقد جاء بهذا الذي جاء به لتمكين بني إسرائيل من البلاد وطردكم منها وإزالتكم عن السيطرة عليها فما الذي تشيرون به في شأن هذا الرجل!

(١) أبو يعلى الموصلي (٥/ ١٠) بسندٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أي: قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون، موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره؟ وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافترائهم؟ وتخوفوا أن يستميل الناس إليه بسحره فيما يعتقدون؛ فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت الجماعة من رجال قوم فرعون والأشراف منهم (إِنَّ هَٰذَا)، يعنون موسى صلوات الله عليه (لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ)، يعنون: أنه يأخذ بأعين الناس بخداعه إياهم، حتى يخيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض، والشيء بخلاف ما هو به. ومنه قيل: "سَحر المطرُ الأرضَ"، إذا جادها، فقطع نباتها من أصوله، وقلب الأرض ظهرًا لبطن، فهو يَسْحَرُها سَحْرًا"، و"الأرض مسحورة"، إذا أصابها ذلك. فشبه "سحر الساحر" بذلك، لتخييله إلى من سحره أنه يرى الشيء بخلاف ما هو به، ومنه قول ذي الرمة في صفة السراب:

وَسَاحِرَةِ العُيُونِ مِنَ المَوَامِي ... تَرَقَّصُ فِي نَوَاشِرِهَا الأُرُومُ

وقوله (عَلِيمٌ) يقول: ساحر عليم بالسحر (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ) أرض مصر، معشر القبط السحرة وقال فرعون للملأ (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) يقول: فأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ بأي شيء تشيرون فيه؟

وقيل: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، والخبر بذلك عن فرعون، ولم يذكر فرعون، وقلما يجيء مثل ذلك في الكلام، وذلك نظير قوله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، **[يوسف: ٥١-٥٢]**. فقيل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ **[يوسف: ٥٢]**، من قول يوسف، ولم يذكر يوسف، ومن ذلك أن يقول: "قلت لزيد قم، فإني قائم"، وهو يريد: "فقال

زيد: إنّي قائم.

س: قولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ أيُّ أرض هذه؟ وكيف يخرجهم منها؟

ج: الأرض هي أرض مصر.

وإخراجهم منها بأحد أمرين:

الأول: أن يطردهم منها إلى غيرها.

الثاني: أن يجعل السيادة لبني إسرائيل عليهم فيكون الإسرائيليون سادة، ولهم الكلمة في البلاد، ومن دونهم تحت أيديهم.

س: قوله: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ مَنْ قائله؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن قائل ذلك فرعون قاله لقومه، فلما أخبروه بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ سألهم: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ أي: بأي شيء تشيرون عليَّ أن أفعل!

والقول الثاني: أن قائل: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ هم الملأ من قوم فرعون؛ وذلك لأن الكلام كلامهم والخطاب خطابهم، أما قولهم: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ بصيغة الجمع، فذلك -والله أعلم- تعظيم منهم لفرعون فيخاطبونه بخطاب الجماعة.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الملأ من فرعون أشاروا عليه- لما شاورهم- في أمر نبي الله موسى عليه السلام، وأمر أخيه هارون عليه السلام، قالوا: احبسه واحبس أخاه إلى أن ترسل الشُّرط يجمعون لك السحرة من عموم مدن مصر.

وقيل: المعنى: أخِّره وأخِّر أخاه ولا تعاقبهما حتى ترسل الشُّرط إلى مدائن مصر يأتونك بالسحرة المهرة لدحض حجته، والله أعلم.

س: وضِّح معنى قوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

ج: إيضاحه، والله تعالى أعلم، أن السحرة لما شارطوا فرعون وطلبوا لأنفسهم أجرًا إن هم غلبوا موسى عليه السلام بسحرهم أجابهم فرعون إلى طلبهم، بل ووعدهم بأكثر مما طلبوا بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: لمن أهل مجلسي وخاصتي وصحبتي.

س: وضح معنى قولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن السحرة لما جمعهم فرعون وشارطوه واتفقوا معه على الأجر إن هم غلبوا موسى عليه السلام اجتمعوا فيما بينهم ثم قالوا لنبي الله موسى عليه السلام: إما أن تلقي عصاك وتظهر ما معك، وإما أن تُلقي نحن أولًا كما في الآية الأخرى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن موسى عليه السلام لما خيَّره السحرة بقولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، أجابهم بقوله: ﴿أَلْقُوا۟﴾ كما في الآية الأخرى ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

لِيَرَى النَّاسُ صَنِيعَهُمْ وَيَتَأَمَّلُوهُ، فَإِذَا فُرِغَ مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمُحَالِهِمْ، جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ تَطَلُّبٍ لَهُ وَالِانْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ، فَيَكُونُ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَكَذَا كَانَ.

قلت: أما قوله تعالى: (فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ).

فمعناه: أن سحرة فرعون لما ألقوا ما في أيديهم من العصيِّ وغيرها خدعوا أعين الناس وجعلوها ترى الأشياء على غير حقيقتها، فحولوا العصيِّ - فيما يراه الناظر - إلى حيَّات وثعابين عظيمةً هائلة أرهبت الناس وأخافتهم وجعلتهم يفرون منها.

س: كيف قيل: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾، فهل يوصف بالسحر من سجد؟

ج: ذلك، والله أعلم، باعتبار ما كانوا فيه من السحر كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ ومعلوم أن إعطائهم الأموال يكون بعد بلوغهم لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾.

ولكن أطلق عليهم يتامى، باعتبار ما كانوا فيه من اليُتْمِ، والله أعلم.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- أن فرعون لما آمن السحرة بموسى عليه السلام وأقروا بنبوته وأنه رسولٌ من عند الله عز وجل، وأن ما جاء به حقٌّ وليس بسحرٍ وخروا حينئذ سجدًا مقرِّين بالإيمان.

قال لهم فرعون حينئذٍ: أصدقتموه واتبعتموه قبل أن تأخذوا مني إذنًا بذلك، إن هذا الذي صدر منكم كان على اتفاقٍ ومواطأةٍ منكم لموسى وكان ما حدث من إلقائكم العصِيَّ وإلقائه كل ذلك كان منكم ومنه خدعة خدعتهم بها الناس لتخرجوا الرؤساء والكبراء من أرض مصر وتستولوا أنتم وهو عليها وتصبح لكم الرئاسة والوجاهة، ويصبح الملك بأيديكم ويد موسى فسوف تعلمون ما أُحِّله بكم من العقاب وما أُذيقكم من النكال والعذاب.

وقال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال فرعون للسحرة إذ آمنوا بالله= يعني صدّقوا رسوله موسى عليه السلام، لما عاينوا من عظيم قدرة الله وسلطانه:(ءَامَنتُم بِهِۦ)، يقول: أصدقتم بموسى وأقررتم بنبوّته (لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ) يقول لخدعة خدعتم بها من في مدينتنا، لتخرجوهم منه (قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ) بالإيمان به، (إِنَّ هَٰذَا)، يقول: تصديقكم إياه، وإقراركم بنبوَّته، (فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ)، ما أفعل بكم، وما تلقون من عقابي إياكم على صنيعكم هذا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ، لَعَنَهُ اللهُ، السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى، عليه السلام، وَمَا

أَظْهَرُهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أَيْ: إِنَّ غَلَبَه لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضا مِنْكُمْ لِذَلِك، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وَهُوَ يَعْلَمُ وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ "مَدْيَن" دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللهِ، وَأَظْهَرَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي مَدَائِنِ مُلْكِهِ وَمُعَامَلَةِ سَلْطَنَتِهِ، فَجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِبِلَادِ مِصْرَ، مِمَّنِ اخْتَارَ هُوَ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ. وَقَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ، وَمُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ وَلَا رَآهُ وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسَتُّرًا وَتَدْلِيسًا عَلَى رَعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهَلَتِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ مِنْ أَجْهَلِ خَلْقِ اللهِ وَأَضَلِّهِمْ.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتُخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع لكم.

س: ما المراد بقول فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾.

ج: المراد، قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل فرعون للسحرة إذ آمنوا بالله وصدقوا رسوله موسى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطْع، فمخالفته في ذلك بينهما هو "القطع من خلاف".

ويقال: إن أوّل من سن هذا القطع فرعون.

س: وضح معنى قول السحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ).

ج: المعنى، إنا إلى ربنا راجعون، وصائرون إليه.

قد أيقنا بالبعث بعد الموت، وما الذي ننكره علينا يا فرعون ما تُنكر علينا شيئًا إلا أننا صدقنا بأن الآيات التي جاء بها نبي الله موسى عليه السلام آيات من عند الله ودلالات ظاهرات على نبوة موسى عليه السلام، ثم سأل السحرة ربهم عز وجل أن ينزِّل عليهم صبرًا وثباتًا على الإسلام يمنعهم به من الكفر عند تعذيب فرعون لهم، وسألوا ربهم عز وجل أن يوفاهم على الإسلام والإيمان.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وَقَوْلُ السَّحَرَةِ: (إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) أَيْ قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَعَذَابُهُ أَشَدُّ من عذابك ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أَعْظَمُ مِنْ نكالك فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص عن عذاب الله ولهذا قالوا (رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا) أَيْ عُمَّنَا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ (وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ) أَيْ مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عليه السلام وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ (فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ) فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً، فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ كَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بررة.

وقال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال السحرة مجيبة لفرعون، إذ توعَّدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب: (إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) يعني بالانقلاب إلى الله، الرجوع إليه والمصير وقوله: (وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا)، يقول: ما تنكر منا، يا فرعون، وما تجد علينا، إلا من أجل أن آمنا، أي، صدقنا (بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا)، يقول: بحجج ربّنا وأعلامه وأدلته التي لا يقدر على مثلها أنت ولا أحد، سوى الله، الذي له ملك السموات والأرض. ثم فزعوا إلى الله بمسألته الصبرَ على عذاب فرعون، وقبض

أرواحهم على الإسلام فقالوا: (رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا)، يعنون بقولهم: (أَفۡرِغۡ)، أنزل علينا حَبْسًا يحبسنا عن الكفر بك، عند تعذيب فرعون إيانا (وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ)، يقول: واقبضنا إليك على الإسلام دين خليلك إبراهيم ﷺ، لا على الشرك بك.

س: هل صحيح أن موسى عليه السلام التقى مع أمير السحرة قبل المبارزة بإلقاء العصيِّ، ووعده أمير السحرة أن يؤمن إذا انتصر عليه موسى؟

ج: لا يصح بذلك سند فيما علمتُ وكذا لا يصح ما أورده الطبري بإسناده عن السّدي في حديث ذكره، عن أبي مالك،وعلى بن أبي طلحة، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: التقى موسى وأميرُ السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أنَّ ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك، ولأشهدن أنك حق! وفرعون ينظر إليهم، فهو قول فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾، إذ التقيتما لتتظاهر افتخرجا منها أهلها.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وقال الأشراف ووجهاء الناس من قوم فرعون لفرعون: أتترك موسى يا فرعون يفعل في الناس ما يشاء ويحولهم عن دينهم إلى دينه ويفسدوا في الأرض ويتركوا عبادتك آلهتك.

معنى آخر: أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وقد ترك عبادتك وعبادة آلهتك.

والمعنى الثالث: أتترك موسى يا فرعون يفسد في الأرض وتظن أنه سيتركك ويترك آلهتك التي تعبد، أي: أنك إذا تركته فلن يتركك هو، ولن يترك آلهتك.

قال الطبري رحمه الله:

وفي قوله: (وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ)، وجهان من التأويل:

أحدها: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وقد تركك وترك عبادتك وعبادة آلهتك= وإذا وجه الكلام إلى هذا الوجه من التأويل، كان النصبُ في قوله: (وَيَذَرَكَ)، على الصرف، لا على العطف به على قوله: (لِيُفْسِدُوا).

والثاني: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وليذرك وآلهتك = كالتوبيخ منهم لفرعون على ترك موسى ليفعل هذين الفعلين. وإذا وجّه الكلام إلى هذا الوجه، كان نصب: (وَيَذَرَكَ) على العطف على (لِيُفْسِدُوا) .

قال الطبري:

والوجه الأول أولى الوجهين بالصواب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ، وَمَا أَظْهَرُوهُ لِمُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبِغْضَةِ: (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ) أَيْ: لِفِرْعَوْنَ (أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ) أَيْ: أَتَدَعُهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، أَيْ: يُفْسِدُوا أَهْلَ رَعِيَّتِكَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ، يَالَلَّهِ لِلْعَجَبِ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَقَوْمِهِ! أَلَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ؛ وَلِهَذَا قَالُوا: (وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ) قَالَ بَعْضُهُمْ: "الْوَاوُ" هُنَا حَالِيَّةٌ، أَيْ: أَتَذَرُهُ وَقَوْمَهُ يُفْسِدُونَ وَقَدْ تَرَكَ عبادتك؟ وَقَرَأَ ذَلِكَ أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ: "وَقَدْ تَرَكُوكَ أَنْ يَعْبُدُوكَ وَآلِهَتَكَ"، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ عَاطِفَةٌ، أَيْ: لَا تَدَعْ مُوسَى يَصْنَعُ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ الْفَسَادِ مَا قَدْ أَقْرَرْتَهُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى تَرْكِهِ آلِهَتَكَ.

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: "إِلَاهَتَكَ" أَيْ: عِبَادَتَكَ، ورُوِي ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ.

وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ لِفِرْعَوْنَ إِلَهٌ يَعْبُدُهُ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ لِفِرْعَوْنَ إِلَهٌ يَعْبُدُهُ فِي السِّرِّ. وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: كَانَ لَهُ جُمَانة فِي عُنُقِهِ مُعَلَّقَةٌ يَسْجُدُ لَهَا.

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ) وَآلِهَتُهُ، فِيمَا زَعَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ، كَانَتِ الْبَقَرُ، كَانُوا إِذَا رَأَوْا بَقَرَةً حَسْنَاءَ أَمَرَهُمْ فِرْعَوْنُ أَنْ يَعْبُدُوهَا، فَلِذَلِكَ أَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا.

س: كيف الجمع بين الآيتين: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ وبين قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وكذا قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

ج: مفادُ الآية الأولى عند قومٍ أن قوله: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ يُفيد أن فرعون كان يعبد إلهًا، فكيف يلتئم هذا مع قول فرعون: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

أجاب على ذلك بعض العلماء بقولهم: إن آلهتك معناها عبادتك، وعليه فلا إشكال.

وقال آخرون: إن فرعون كان له إلهٌ يعبده في السر، والله تعالى أعلم.

س: أهل الشر والفساد يزعمون أنهم أهل خيرٍ وصلاح ويصفون مُخالفهم بالجنون والإفساد دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك قول قوم فرعون لفرعون لعنه الله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.

وقول فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ).

س: ماذا يصنع الشخص أمام تهديد من هدده وترهيب من أرهبوه؟

ج: عليه أن يلجأ إلى الله ﷻ ويستعين به، ويسأله أن يحفظه فضلًا عن الأخذ بالأسباب التي شرعها الله ع.

وها هو نبي الله موسى عليه السلام يأمر قومه بذلك لما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ ثم- وبعد ذلك- أمر موسى عليه السلام بأن يسرى بعباد الله ليلًا كما أفادته الآيات الأُخر الواردة في قصة موسى عليه السلام مع فرعون. والله أعلم.

س: وضح معنى قوله: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- اطلبوا العون من الله ﷻ كي يعينكم على الصبر والثبات وكي ينجيكم من فرعون وقومه، فكما هو معلوم أن الصابر من صبَّره الله ﷻ، ولن يستطيع أحدٌ أن يصبر إلا إذا صبره الله، ولقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ:

﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾، والله أعلم.

س: قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ على ماذا؟

ج: اثبتوا على إيمانكم ولا تجزعوا بسبب ما ينالكم من المكروه والسوء في أنفسكم وأبنائكم وأموالكم من فرعون وقومه.

والمراد بالصبر الحبس كما هو معلوم، فالمعنى: احبسوا أنفسكم على الإيمان بالله والرضا بقضائه ولا تجزعوا ولا تتركوا إيمانكم.

س: ما المراد بالأرض في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾؟

ج: المراد ها هنا، والله أعلم، الأرض التي نعيش عليها في دينانا وقد وُعد الإسرائيليون- إن هم صبروا وآمنوا- بذلك كما قال تعالى: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ).

وأما الأرض التي وُعد بها الإسرائيليون فهي أرض مصر.

هذا، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الأرض ها هنا أرض الجنة، ولا شك ولا ريب أن الله ﷻ يورث أرض الجنة أيضًا من يشاء من عباده، فأهل الإيمان يقولون: (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ).

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

ج: المراد بالعاقبة النهاية وعاقبةُ كل شيء آخره والمراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ النهاية الحسنةُ والختام الطيب المحمود للذين اتقوا ربهم فاجتنبوا معصيته وعملوا بأوامره ولزموا طاعته وأدوا فرائضه.

والنهاية الحسنة في هذا المقام- التي هي العاقبة- قيل: كونهم ورثوا أرض مصر، وسلمهم الله وأغرق عدوهم، وقيل: إنها الجنة، والله أعلم.

(٢٢٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى قول قوم موسى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

ج: معنى ذلك، والله تعالى أعلم، أنهم شكَوْا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حالهم وما حلَّ بهم من البلاء من قبل أن يُرسل إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن بعد ما أرسل إليهم.

أوذوا من قبل أن يبعث موسى بالرسالة، وذلك أن فرعون كان يذّبح أبناءهم ويستحي نساءهم ويسخرهم للأعمال الشاقة المُرهقة ويسومهم سوء العذاب، وأوذوا من بعد ما جاءهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا التهديد الذي سمعوه من فرعون إذ قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ فتوقعوا أن يُجدد عليهم العذاب وأن يُنزل بهم النَّكال.

ولقد قيل: إنهم قالوا ذلك لما خشوا أن يدركهم فرعون فقالوا: (إنا لمدركون)، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

ج: ذلك تحضيض وحثٌّ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه على الصبر والثبات والشكر عند النعماء وبشارةٌ لهم أيضًا بأن الله سيهلك عدوهم ويَنْصرهم على عدوهم ويورثهم الأرض ويختبرهم ويبتليهم بالسراء ويبتليهم بالتمكين في الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها.

فالمعنى لعلَّ الله عَزَّ وَجَلَّ –الذي هو ربكم ورب الخلق كلهم- أن يهلك عدوكم فرعون وقومه، وكل من يعاديكم- ويجعلكم خلفاء في الأرض فينظر عملكم الذي ستعملون هل تقومون فيها بأمر الله أم أنكم ستعصونه وتبارزونه بالمعاصي؟!!

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، يقول جل ثناؤه: قال موسى لقومه: لعل ربكم أن يهلك عدوكم: فرعون وقومه (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ)، يقول: يجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم، لا تخافونهم ولا أحدًا من الناس غيرهم (

(٢٢٩) أحمر
أسود

فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)، يقول: فيرى ربكم ما تعملون بعدهم، من مسارعتكم في طاعته، وتثاقلكم عنها.

(٢٣٠) أحمر
أسود

قَالَ تَعَالَىٰ:

وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ
يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ
سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ
لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ
ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ
عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا
كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥
فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ
عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ
مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ
فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧

الكلمة	معناها
﴿أَخَذْنَآ﴾	ابتلينا- عَذَّبْنَا.
﴿بِٱلسِّنِينَ﴾	المراد: سنوات الشدة والجدب وعدم إخراج الأرض ثمرتها إلا القليل.
﴿يَذَّكَّرُونَ﴾	ينزجرون وينتهون عما هم فيه من المعاصي ويتعظون.
﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾	العافية والرخاء وسعة الرزق.
﴿يَطَّيَّرُوا﴾	يتشاءموا.
﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾	نصيبهم والمقدر لهم من الخير والشر.
﴿ءَايَةٍ﴾	معجزة ودلالة.
﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾	لتصرفنا وتحولنا عما نحن فيه.
﴿فَأَرْسَلْنَا﴾	سلَّطنا عليهم.
﴿ٱلطُّوفَانَ﴾	السيل الشديد الجارف- المطر الشديد- الموت – بلاءً حلَّ بهم وطاف بهم.
﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾	قيل: السوس- وقيل: القَمْل المعروف- وقيل: الجراد الصغير- وقيل: دواب سوداء صغار.
﴿ءَايَٰتٍ﴾	علامات ودلالات.
﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾	بينها فواصل زمنية، بعضها يتلو بعضًا.
﴿فَٱسْتَكْبَرُوا﴾	فامتنعوا عن الإيمان وتعالوا عن الامتثال لأمر الله ﷻ.
﴿مُّجْرِمِينَ﴾	مجترمين للذنوب والكبائر والكفر والمعاصي، عاملين بما يكرهه الله ﷻ من المعاصي والذنوب والكبائروالكفر
﴿وَقَعَ عَلَيْهِمُ﴾	نزل بهم- حلَّ بهم.
﴿ٱلرِّجْزُ﴾	العذاب- الطاعون- ما سلِّط عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وسائر صور العذاب.
﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾	بما أوصاك وأمرك به- بما خصَّك به من العلم بما استودعك من العلم- نسألك بعهده عندك.

الكلمة	معناها
﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾	لئن رفعت عنا العذاب بدعاء ربك ﷻ.
﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾	لنصدقنك بما جئت به.
﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ﴾	نترك لك بني إسرائيل تسافر بهم وتهاجر بهم كيف تشاء.
﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾	رفعنا عنهم العذاب.
﴿يَنكُثُونَ﴾	ينقضون العهود.
﴿ٱلْيَمِّ﴾	البحر.
﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾	يُستذلون ويهانون ويُمتهنون.
﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾	أكثرنا فيها من الخيرات بإخراج الثمار والزروع والنباتات وأجرينا فيها من الأنهار.
﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾	الوعد الحسن الذي وعدهم به، وقيل: إنه قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الآية.
﴿يَعْرِشُونَ﴾	يبنون من القصور وسائر الأبنية، وقيل: ما كانوا يعرشون من الحدائق كتعريش العنب في حدائق الأعناب، وعموم ما يحتاج إلى تعريش.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ولقد ابتلينا آل فرعون وهم أتباعه وشيعته- بسنوات الشدة والجدب والقحط، وكذا اختبرناهم بنقص الثمرات فكانت الأرض لا تكاد تنبت إلا قليلًا ابتليناهم بذلك لعلهم يتعظون ويعتبرون وينزجرون عما هم فيه من الغي والضلال والكفر والفساد.

فالسنين المراد بها سنوات الشدة والفقر والجدب ومنه دعاء النبي ﷺ على

القرشيين بقوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ».

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾، يقول: بالجُدوب سنة بعد سنة، والقحوط. يقال منه: "أَسْنَتَ القوم"، إذا أجدبوا. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، يقول: واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، يقول: عظة لهم وتذكيرًا لهم، لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾.

ج: المعنى، الله تعالى أعلم، أن آل فرعون إذا صرف الله عنهم المكروه وأبدلهم مكان الضيق سعة ورزقًا واسعًا ومكان الضر في الأبدان عافية وصحة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ أي: نحن جديرون بهذا وبأن يكون لنا مثل هذا فنحن أولى بها من غيرنا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: إن حلَّ بهم بلاء وضيق في الأرزاق وعدم إخراج الأرض ثمرتها ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ أي: يتشاءموا بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبالمؤمنين به فيقولون: ما أصابتنا هذه المصائب، وما حلَّ بنا هذا الجدب إلا بعد أن جاءنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والله أعلم.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ وهي الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ ﴾ أي: نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروا عليه. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ وهي القحط والجدب والبلاء﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ ﴾ أي: يتشاءموا بهم. وكانت العرب تزجر الطير، فتتشاءم بالبارح، وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتتبرك بالسانح، وهو الذي يأتي من جهة اليمين.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قال أبو عبيدة: «ألا» تنبيه وتوكيد ومجاز. ﴿طَٰٓئِرُهُمْ ﴾ حظهم ونصيبهم، وقال ابن عباس ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: إن الذي

أصابهم من الله.

وقال الزجاج: المعنى: ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وُعدوا به في الآخرة، لا ما ينالهم في الدّنيا.

س: أهل الكفر يتشاءمون ويتطيرون بأهل الإيمان في كثير من الأحيان اذكر ما يدل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول أصحاب القرية المذكورون في سورة يس للمرسلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾.

وقول قوم ثمود لصالح عليه السلام: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾.

وقوله تعالى في شأن قول قوم موسى لموسى عليه السلام: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ج: المعنى –والله أعلم– إن ما يصيبهم من الخير أو الشر أو السعة أو الضيق أو الشدة أو الرخاء كل ذلك مقدر عند الله ومكتوب.

النهي عن التطير وبيان بعض صوره

س: ما معنى الطيرة، اذكر بعض الأحاديث الواردة في شأنها؟

ج: أما التطير، فمن معانيه التشاؤم وترك الإنسان فعل شيءٍ معين تشاؤمًا ومن صور التطير أن شخصًا ما على سبيل المثال يريد سفرًا فيأتي بطائر بطيرِّه إن طار يمينًا سافر وإن طار شمالًا لم يسافر، بل وتشاءم بالسفر.

۞ ومن صورة أن يترك حاجته تشاؤمًا بسماع بعض الكلمات القبيحة أو التي تحمل شرًّا، فقد يخرج لعمل من الأعمال فيسمع كلمة: يا هالك أو يا خائب، يا خاسر فيترك الذهاب للعمل.

۞ ومنه التشاؤم بأصوات بعض الطيور كالبومة مثلًا.

۞ ومنه التشاؤم بملاقاة شخصٍ أعمى أول النهار مثلًا أو امرأة عجوز شمطاء أو شيخ هرم.

۞ ومنه التشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو الأعوام أو الساعات.

۞ ويدخل فيه الاستقسام بالأزلام كما بيناه في سورة المائدة.

أما الأحاديث الواردة في هذا الصدد فمنها قوله ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ» قالو: وما الفألُ؟ قال: «كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ»(١).

أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

۞ ومنه قوله ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ»(٢).

وحديث: «لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الفَأْلُ»(٣).

ومنه قوله: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»(٤).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، ولكن أكثر هؤلاء المتشاءمين بموسى عليه السلام لا يعلمون أن الأمور مقدرة ومكتوبة، وقد قدرها الله وكتبها.

من جهل شيئًا عاداه

س: من جهل شيئًا فإنه يُعاديه اذكر من معنى الآية ما يدل على ذلك؟

ج: ذلك، والله أعلم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلكون القوم كانوا لا يعلمون أن الأمور مقدَّرة فإنهم تطيروا بموسى عليه السلام وتشاءموا به.

هذا، وثمَّ آيات على أن من جهل شيئًا عاداه كقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ والله أعلم.

---

(١) البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٢) البخاري (٥٧٠٧).

(٣) البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤) وغيرهما.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أن قوم فرعون قالوا لموسى عليه السلام: مهما تأتنا به من معجزة لتصرفنا عما نحن فيه وما نحن عليه فما نحن لك بمصدقين وما نحن لك بمتبعين. أو بسياق آخر: وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام: إذا جئتنا بأيَّة آية أو بآية معجزة، فما نحن لك بمصدقين ولا بمقرنين ولا متبعين.

س: أهل الكفر لا تنفعهم الآيات ولا يهتدون بها ولا يصدقونها دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾.

وقوله تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ).

س: ما المراد بالطَّوفان؟

ج: لأهل العلم جملة أقوال في المراد بالطوفان:

أولها وأشهرها: أنه المطر الغزير المتلف للزروع والثمار والمُهدم للبيوت والمساكن والمهلك للحرث والماشية والمغرقُ.

الثاني: أن المراد بالطوفان الموت.

الثالث: أن المراد بالطوفان شيءٌ من أمرِ الله عز وجل طاف بهم وأهلكهم كما في قوله تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾.

قال الطبري مختارًا القول الأخير:

والصواب من القول في ذلك عندي، ما قاله ابن عباس، على ما رواه عنه أبو ظبيان أنه أمر من الله طاف بهم، وأنه مصدر من قول القائل: "طاف بهم أمر الله يطوف طُوفَانًا"، كما يقال: " نقص هذا الشيء ينقُص نُقْصَانًا ". وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد = وجاز أن يكون الموتَ الذريعَ.

۞ وأورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ شواهد على أن الطوفان يطلق ويُراد به المطر الشديد.

قلت: (مصطفى): وقد أورد الطبري في «تفسيره» وبسنده حديثًا عن عائشة **ف** قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الطُّوفَانُ الموْتُ**»، إلا أن هذا الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ. ففي سنده ضعف واختلاف. والله أعلم.

س: هل يجوز أكل الجراد؟

ج: نعم يجوز أكل الجراد فلا دليل يمنع، بل ففي «الصحيحين»[(١)] من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه.

س: هل يجوز أكل الجراد الميت؟

ج: نعم يجوز أكل الجراد الميت، وقد قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(٢)]: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ، وَدَمَانِ. فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ**».

وهذا الذي ذكره ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يُقال من قبيل الرأي بل يأخذ حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ هذا، وقد روي الخبر عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ مرفوعًا ولا يصح مرفوعًا لكنه صحيح موقوفًا وله حكم المرفوع، والله أعلم.

س: هل يجوز قتل الجراد إذا أتلف الزروع والثمار أو إذا حلَّ بأرض فأفسد؟

ج: نعم يجوز قتله، فالله لا يحب الفساد، وعلى هذا جماهير العلماء وإذا كانت النملة المؤذية تقتل مع ورود النهي عن قتل، النمل فالجراد الذي لم يرد نهي صحيح عن قتله إذا أفسد يُقتل والحديث الوارد في النهي عن قتل الجراد ضعيف غير ثابت

---

(١) البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١٩٥٢).

(٢) صحيح موقوفًا: وله حكم المرفوع، وقد تقدم في تفسير سورة المائدة.

عن رسول الله ﷺ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَتْلِ الْجَرَادِ إِذَا حَلَّ بِأَرْضٍ فَأَفْسَدَ، فَقِيلَ: لَا يُقْتَلُ. وَقَالَ أَهْلُ الْفِقْهِ كُلُّهُمْ: يُقْتَلُ. احْتَجَّ الْأَوَّلُونَ بِأَنَّهُ خَلْقٌ عَظِيمٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَأْكُلُ مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ الْقَلَمُ. وَبِمَا رُوِيَ (لَا تَقْتُلُوا الْجَرَادَ فَإِنَّهُ جُنْدُ اللهِ الْأَعْظَمُ). وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ بِأَنَّ فِي تَرْكِهَا فَسَادَ الْأَمْوَالِ، وَقَدْ رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ بقتال المسلم إذا أراد أخذ مال، فَالْجَرَادُ إِذَا أَرَادَتْ فَسَادَ الْأَمْوَالِ كَانَتْ أَوْلَى أَنْ يَجُوزَ قَتْلُهَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ؟ لِأَنَّهُمَا يُؤْذِيَانِ النَّاسَ فَكَذَلِكَ الْجَرَادُ.

س: ما مدى صحة هذا الحديث: كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق؟

ج: هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ، وقد رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي سنده أبو سعد البقَّال وهو ضعيف، والله أعلم.

س: ما المراد بالقُمَّل؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن القمل هو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له.

الثاني: أن القمل هو السُّوس الذي يكون بالحنطة -بحبة القمح- وغيره.

الثالث: أن القُمَّل هو البراغيث.

الرابع: أن القُمَّل هو القمل المعروف الذي يكون بالرؤوس وفي الشعور.

الخامس: أن القمل دواب صغيرة سوداء.

السادس: أن القمل دواب صغار تأكلها الإبل.

السابع: أنها دواب صغيرة تلازم الجلود والزروع فتتلفها وتلازم الجلود كأنها الجدري.

والحاصل: أنها دواب صغار سلطها الله ﷻ على القوم آذتهم وأضرتهم في

معايشهم وأبدانهم، والله أعلم.

س: كيف سُلِّطت الصفادع على قوم فرعون؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن الضفادع سلطت عليهم فكانت تسقط -من كثرتها- في أطعمتهم التي في بيوتهم وفي أشربتهم.

وقال بعض العلماء: إنهم كانوا لا يعجنون عجينًا إلا سقطت فهي الضفادع وفردت رجليها فيه، وكان الرجل إذا نام ركبته الضفادع ولا يكاد يُقرَّب له طعام إلا سقطت الضفادع فيه، بل وتكاد أن تقذف بنفسها في فمِه إذا أراد الأكل.

ولا يكاد أحدهم يكشف ثوبًا ولا طعامًا ولا إناء إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، والله أعلم.

س: كيف أُرسل الدم على قوم فرعون؟

ج: في ذلك أقوال:

أحدها: أنه سُلِّط عليهم الرِّعاف، الذي هو نزيف الأنف.

الثاني: أن الاستحاضة(١) -نزول الدم من الفرج- سلِّطت على نسائهم فكانت المرأة تنزل عليها الدماء غزيرة وبصورة كبيرة وزمن طويل.

الثالث: أن المياه تحولت إلى دم فلا ينزعون دلوًا من بئرٍ إلا وجدوا فيه الدماء بدلًا من الماء. ولا يستسقون من نهر إلا خرج الدلاء بالدماء بدلًا من الماء، بل ويتحول الماء الذي في البيوت إلى دمٍ، و الله تعالى أعلم.

س: قد يبتلي الله ﷻ أقوامًا بتسليط الأوبئة والدواب عليهم وضح ذلك؟

ج: نعم قد يبتلي الله ﷻ بعض الخلق بذلك، يبتليهم بتسليط الدواب والهوام عليهم، فالدواب مسخرةٌ وجنود ربنا لا يعلمها إلا هو، فقد ابتلى قوم فرعون بتسليط الضفادع عليهم، وابتلاهم بالجراد والقمل وغير ذلك.

---

(١) كما هو معلوم أن الاستحاضة غير الحيضة، فالاستحاضة دم يخرج كنزيف من فرج المرأة لونه لون دم الجروح وليست رائحته كرائحة دم الحيض ويخرج في أي وقت.

ولقد طاف على جنة البخلاء (الحديقة والبستان) الذين أقسموا ليَصْرمنها مصبحين طائف من ربك وهم نائمون.

فعلى الخلق إذا ابتُلوا بشيء من ذلك كالبعوض (الناموس) مثلًا، أو البراغيث أو الديدان والحشرات التي تحل بالزروع والبيوت والأجسام أن يحسنوا التضرع إلى الله ﷻ وأن يراجعوا أنفسهم ويقلعوا عن ذنوبهم، ويسألوا ربهم ﷻ رفع البلوى وكشف الضر؛ فما يعلم جنود ربك إلا هو. والله أعلم.

بعض صور البلاء والعذاب التي أرسلت على قوم فرعون

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم- أن الله ﷻ نوَّع الابتلاءات على قوم فرعون لعلهم يقلعون عما هم فيه من غيٍّ وشرٍّ وفساد، فابتلاهم بابتلاء، ثم عافاهم فلم يُقلعوا عن غيِّهم ولم ينتهوا عن كفرهم فابتلاهم بابتلاء آخر لعلهم يرجعون فلم يرجعوا ولم ينتهوا فعافاهم ثم ابتلاهم وهكذا فلم تُجدِ معهم تلك الابتلاءات.

۞ لقد ابتلاهم الله ﷻ بالطوفان فأرسله عليهم فسألوا موسى عليه السلام كي يسأل ربَّه ﷻ أن يكشف عنهم البلاء ووعدوه فسأل ربَّه ﷻ فكشف عنهم البلاء، ولكنهم نكثوا العهود ونقضوا المواثيق فسلط الله عليهم الجراد يأكل أخضرهم ويابسهم ويتلف زروعهم فسألوا موسى عليه السلام أن يدعوا ربه أن يكف عنهم العذاب ويُذهب عنهم الجراد فدعا ربه فأذهبه عنهم فنقضوا العهود والمواثيق فسلَّط الله عليهم القمل يلازم أبدانهم وشعورهم ويتلف ثمارهم ومواشيهم فسألوا موسى عليه السلام، فدعا ربَّه فأذهب ذلك عنهم فرجعوا إلى غيِّهم وكفرهم، فأرسل الله عليهم الضفادع كثيرة كثيرة تقفز عليهم وهم نيام وفي طعامهم وهو يأكلون وتملأ عليهم البيوت والحقول والطرقات، فسألوا موسى أن يدعو ربه بصرف هذا عنهم، فدعا فصرفه الله فلم يرجعوا ولم يُقلعوا عن كفرهم فسلط عليهم الدم، فتحولت مياههم إلى دماء وكثرت الاستحاضة في نساءهم وأصيبوا بالرعاف (النزيف) الشديد الحاد وهكذا تنوعت البلاءات فلم يرجعوا، وكما قال تعالى

في شأن أقوامٍ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

أورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة قال:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ قَالَ: أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ حَتَّى قَامُوا فِيهِ قِيَامًا، فَدَعَوْا مُوسَى فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، ثُمَّ عَادُوا بِشَرٍّ مَا يَحْضُرُ بِهِمْ، ثُمَّ أَنْبَتَتْ أَرْضُهُمْ. ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ، فَأَكَلَ عَامَّةَ حُرُوثِهِمْ وَثِمَارِهِمْ، ثُمَّ دَعَوْا مُوسَى فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ. ثُمَّ عَادُوا بِشَرٍّ مَا يَحْضُرُ بِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ، هَذَا الدَّبَى الَّذِي رَأَيْتُمْ، فَأَكَلَ مَا أَبْقَى الْجَرَادُ مِنْ حُرُوثِهِمْ، فَلَحَسَهُ. فَدَعَوْا مُوسَى، فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَهُ عَنْهُمْ، ثَمَّ عَادُوا بِشَرٍّ مَا يَحْضُرُ بِهِمْ.

ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ، حَتَّى مَلَأَتْ بُيُوتَهُمْ وَأَفْنِيَتَهُمْ، فَدَعَوْا مُوسَى، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ. ثُمَّ عَادُوا بِشَرِّ مَا يَحْضُرُ بِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ، فَكَانُوا لَا يَغْتَرِفُونَ مِنْ مَائِهِمْ إِلَّا دَمًا أَحْمَرَ، حَتَّى لَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ عَدُوَّ اللهِ فِرْعَوْنَ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ عَلَى الْإِنَاءِ الْوَاحِدِ، الْقِبْطِيِّ وَالْإِسْرَائِيلِيِّ، فَيَكُونُ مِمَّا يَلِي الْإِسْرَائِيلِيَّ مَاءً، وَمِمَّا يَلِي الْقِبْطِيَّ دَمًا. فَدَعَوْا مُوسَى، فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَهُ عَنْهُمْ فِي تِسْعِ آيَاتٍ: السِّنِينَ، وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَأَرَاهُمْ يَدَ مُوسَى عليه السلام وَعَصَاهُ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

ج: الظاهر، والله تعالى أعلم، أن المراد علامات ودلالات يُستدل بها على نبوة موسى عليه السلام، وذلك لكونه دعا الله لهم فاستجاب الله دعاءه، أما ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: بينها فواصل زمنية، فبين كل ابتلاء وابتلاء فاصلٌ زمني كي يراجعوا أنفسهم ويرجعوا عن غيِّهم ويفكروا فيما هم عليه من باطلٍ؛ لعلهم أن يقلعوا عنه.

س: هل كان موسى عليه السلام يطالب بني إسرائيل كي يخرج بهم من بلاد مصر إلى بلاد أُخر؟

ج: نعم، قد كان يُطالب بذلك، فقد أَمرهُ ربُّه بذلك، قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦،

١٧].

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

ج: المعنى الإجمالي، والله أعلم، أن آل فرعون لما نزل بهم من العذاب والبلاء ما قد نزل، من الطاعون أو الموت أو الابتلاءات المذكورة في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ ﴾، اتجهوا إلى موسى عليه السلام يطلبون منه أن يسأل ربَّه ويدعوه-بما علمه من دعاءٍ وعلمٍ ولما اختصه به من النبوة- أن يكشف عنهم البلاء الذي هم فيه وأن يرفع عنهم العذاب ووعدوه أن ذلك إذا حصل وكُشف عنهم البلاء وُرفع عنهم العذاب أن يؤمنوا به ويصدقوه ويتبعوه على ما جاء به وأيضًا أن يتركوا له بني إسرائيل يخرج بهم من أرض مصر التي كانت محلًّا لاضطهادهم وتعذيبهم.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

أحدها: أن معناه: بما أوصاك أن تدعوه به.

الثاني: بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك.

والثالث: بما عهد عندك في كشف العذاب عمن آمن.

والرابع: أن ذلك منهم على معنى القسم، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- قوم فرعون لما سألوا موسى عليه السلام أن يدعوا ربه بكشف البلاء والعذاب عنهم وعاهدوه أن يؤمنوا له ويرسلوا معه بني إسرائيل، فحينئذٍ دعا موسى عليه السلام ربَّه وجلَّ فكشف الله عنهم البلاء ورفع عنهم العذاب، ولكنهم نقضوا العهود مع موسى عليه السلام واستمروا على كفرهم وغيِّهم وضلالهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ هم بالقوة؟

ج: معنى ذلك أننا رفعنا عنهم العذاب إلى وقت انقضاء آجالهم، فلكل آمةٍ أجل أجَّلها الله لها.

أهل الكفر لا عهد لهم ولا ميثاق

س: كثيرًا ما بعدُّ أهل الكفر أنبياءهم أنهم إذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا فإذا جاءتهم آية كفروا وعاندوا، دلِّل على ذلك؟

ج: ذلك من أدلته ما ذُكر في الآيات المباركات: إذ قال قوم فرعون لموسى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾. وطلب قوم صالحٍ من صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعو ربه أن يأتيهم بآية فدعا ربه فأخرج لهم الناقة فكذبوه فعقروها.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله فقال الذين كفروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقال فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣١-٣٣].

قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾. والأدلة على هذا كثيرة جدًّا.

س: قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ غافلين عن ماذا؟

ج: قال بعض أهل العلم: كانوا عن الآيات غافلين وقال آخرون: كانوا عن النقمة غافلين.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن قوم فرعون لما نقضوا العهود والمواثيق التي

أعطوها لنبي الله ﷺ، فقد أعطوه عهودًا ومواثيق أن يؤمنوا إذا كشف عنهم العذاب فكشف الله عنهم العذاب فنقضوا العهود والمواثيق فأحلَّ الله بهم نقمته، وأنزل الله عليهم عذابه فأغرقهم في البحر، وذلك أيضًا لتكذيبهم بآيات الله وإنكارهم لها واتهامهم موسى عليه السلام بالسحر، ولكونهم تغافلوا عن الآيات والنِّقم التي يُمكن أن تحلَّ بهم وأن تنزل عليهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فلما نكثوا عهودهم "انتقمنا منهم"، يقول: انتصرنا منهم بإحلال نقمتنا بهم، وذلك عذابه ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، وهو البحر، كما قال ذو الرمة:

دَاوِيَّةٌ وَدُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا ... يَمٌّ تَرَاطَنُ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ

وكما قال الراجز:

كَبَاذِخِ الْيَمِّ سَقَاهُ الْيَمُّ

﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يقول: فعلنا ذلك بهم بتكذيبهم بحججنا وأعلامنا التي أريناهموها ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾، يقول: وكانوا عن النقمة التي أحللناها بهم، غافلين قبل حلولها بهم أنّها بهم حالَّةٌ.

و"الهاء والألف" في قوله: ﴿عَنۡهَا﴾، كناية من ذكر "النقمة"، فلو قال قائل: هي كناية من ذكر "الآيات"، ووجّه تأويل الكلام إلى: وكانوا عنها معرضين = فجعل إعراضهم عنها غفولا منهم إذ لم يقبلوها، كان مذهبًا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوَا وَتَمَرَّدُوا، مَعَ ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُمْ بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَاحِدَةٍ بَعْدَ وَاحِدَةٍ، أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْيَمِّ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى، فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَهُ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَى أَثَرِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، فَغَرِقُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَتَغَافُلِهِمْ عَنْهَا.

شيء من ذكر نبي الله موسى عليه السلام
وقصته مع بني إسرائيل

س: من القوم الذين كانوا يُستضعفون؟

ج: القوم هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه.

س: ما المراد بالأرض في قوله تعالى: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾؟

ج: من أهل العلم من ذهب إلى أن هذه الأرض هي أرض مصر بدليل قوله تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

وقوله تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾.

ومن المعلوم أن فرعون وقومه كانوا يسكنون مصر.

ولكن قد يشكل عل هذا القول أمران:

أحدهما: هل أرض مصر بُورك فيها؛ إذا قال الله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾؟

والآخر: كيف قيل ذلك، وموسى ومعه قومه الإسرائيليون قد تجاوزا البحر؟

والجواب على الأول: أن معنى باركنا فيها المراد بالبركة فيها: كثرة ما أخرج الله فيها من الثمار والنبات والفواكه وعموم الحدائق والبساتين والمزارع الأنهار، فالبركة بهذا الاعتبار.

والجواب على الثاني: أنه لا يمتنع أن يكون موسى عليه السلام ومن معه رجعوا ثانية إلى مصر فكانوا بينها وبين الشام، والله أعلم.

القول الثاني: أن الأرض التي بُورك فيها للعالمين هي أرض الشام وعلى هذا القول كثير من أهل العلم.

س: ما وجه هذا الاستضعاف الذي كان يعيشه الإسرائيليون؟

ج: هذا الاستضعاف يتمثل فيما كانوا يُعانون منه من السُّخرة عند الفراعنة، ومن ذبح الأبناء واستحياء النساء، وغير ذلك من صور العذاب.

س: ما المراد بكلمة ربنا الحسنى؟

ج: هي قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ)، فإنه يقول: وَفَي وعدُ الله الذي وعد بني إسرائيل بتمامه، على ما وعدهم، من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عدوّهم فرعون، و«كلمته الحسنى»، قوله جل ثناؤه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾. [القصص: ٥، ٦].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

ج: أي: بسبب صبرهم على الأذى الذي لحقهم من فرعون وقومه وكذا صبرهم بعد الإيمان بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ما كُلِّفوا به من تكاليف وأُمروا من أوامر، والله أعلم.

س: الصبر على البلاء ابتغاء وجه الله، وكذا الصبر على أوامر الله والانتهاء عما نهى، كل ذلك عاقبته خير، دلِّل على ما تقول؟

ج: من الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾. وقوله تعالى: (فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ). وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إلى غير ذلك.

قَالَ تَعَالَىٰ: وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ

سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١

الكلمة	معناها
﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾	قطعنا (جعلناهم يمرون) سلمناهم حتى جاوزوا البحر.
﴿فَأَتَوۡاْ﴾	فمرُّوا.
﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾	يقيمون على العبادة ويلازمون المكان والعكوف: طول المُكْث والإقامة، والأصنام: تماثيل، وقيل: تماثيل لبقرٍ.
﴿إِلَٰهٗا﴾	معبودًا.
﴿مُتَبَّرٞ﴾	مُهلك؛ والتبار: الهلاك.
﴿وَبَٰطِلٞ﴾	مضمحلٌّ وذاهب.
﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾	ألتمس لكم.
﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾	أتباع فرعون ومن هم على طريقته، وأهله الذين على دينه وملته.
﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾	يحملونكم - يُذيقونكم.
﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾	أسوأ العذاب وأشده وأقبحه.

الكلمة	معناها
﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾	ناثكم، ويتركون البنات أحياء زيادة في الامتهان والإذلال.
﴿بَلَآءٞ﴾	اختبار، وقيل: نعمة من الله عظيمة (أي: إنجاء الله لكم نعمة عظيمة من الله أنعم بها عليكم).

مرور نبي الله موسى عليه السلام ببني إسرائيل على عباد الأصنام وبيان بعض جهالات بني إسرائيل

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ) الآية؟

ج: يخبر الله ﷻ أنه سلَّم بني إسرائيل ونجَّاهم من عدوهم بل وأغرق فرعون وقومه أمام أعينهم، كل ذلك رحمة منه بهم وفضلًا منه عليهم ودلالة على صحة ما يدعو إليه موسى عليه السلام من وحدانية الله ﷻ، فلما سلمهم الله ونجاهم ووصلوا إلى البرِّ بسلام وأمانٍ مروا على قومٍ يقيمون -ويطيلون المكث والقيام- حول أصنام لهم قد اتخذوها للعبادة يعبدونها ويرجونها ويعظمونها فقال قوم موسى لموسى عليه السلام لما رأوا ذلك: اجعل لنا إلهًا نعبده ونسأله ونتبرك به كما أن لهؤلاء آلهة، وكان هذا منهم جهل عظيمٌ – خاصة بعد أن رأوا آيات الله ﷻ على يد موسى عليه السلام، وبعد أن سلَّمهم الله من عدوهم لما دعوه فأجابهم، فقال لهم موسى عليه السلام إنكم قوم تجهلون، تجهلون عظمة ربكم ووحدانيته وما أوجبه عليكم، والله أعلم.

س: من هؤلاء القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم؟

ج: لم يرد ذكرهم -فيما علمت- في آية من كتاب الله ﷻ ولا في حديثٍ عن رسول الله ﷺ، ومن ثمَّ لزمنا الإمساك، والعبرة حاصلة -ولله الحمد- على كل حال، ولو كان في تسميتهم نفع لنا لذُكر اسمهم.

هذا أقوله مع أن هناك من العلماء من قال: إنهم الكنعانيون الذي أُمر موسى عليه السلام بقتالهم، ومن العلماء من قال: إنهم من قبيلة لخم، وثمَّت أقوال أُخر ليس عليها دليل، والله أعلم.

س: استدل بعض العلماء بهذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وبما ورد عن رسول الله ﷺ لأصحابه لما قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط..الحديث، على العذر بالجهل، فما وجه هذا الاستدلال؟

ج: وجهه: أن النبي ﷺ لم يحكم بكفر الذين قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط[1]؛ لكونهم قالوا ذلك عن جهل، ولو كانوا خرجوا من الملَّة بهذ القول الذي قالوه عن جهل – لأمرهم النبي ﷺ بدخول الإسلام من جديد، والله أعلم.

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٨٠) وأحمد (٥/٢١٨) وغيرهما.

س: ورد أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية الكريمة في موطن من المواطن اذكر الحديث الوارد بذلك؟

ج: قد تلاها رسول الله ﷺ لما خرج مع أصحابه إلى حنين، وكان للكفار شجرة (شجرة سدرٍ) يقال لها: ذات أنواط يعلقون بها أسلحتهم ويعكفون عندها، فقال بعض أصحابه: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لموسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إِنَّكُم سَتَرْكَبُونَ سَنَنَ الذِينَ مِنْ قَبْلِكُم....»(١).

س: قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تجهلون ماذا؟

ج: قيل: تجلهون عظمة الله ﷻ، وتجهلون ما أوجبه الله ﷻ عليكم من توحيده، وإفراده بالعبادة فلا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيءٍ سوى الله ﷻ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ج: المعنى- و الله أعلم- أن نبي الله موسى عليه السلام لما سأله قومه أن يجعل لهم إلهًا كما للقوم آلهة وحذَّرهم وزجرهم وذكَّرهم، أخبرهم بمصير هؤلاء القوم الذين يعكفون على أصنام لهم فقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي أن الله ﷻ مهلك هذه الأصنام والأعمال التي هم فيها ومُفسدها ومُخسرهم فيها ومجازيهم عليها بالعذاب المهين، ثمإن أعمالهم عمومًا ذاهبة وباطلة لا ثواب لهم فيها ولا أجر لهم عليها فكل أعمالهم تحبط كما قال تعالى في شأن أهل الشرك عمومًا: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

وكما قال سبحانه: (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ).

وكما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

(١) أخرجه الطبري (١٥٠٦٥/ ١٥٠٦٦/ ١٥٠٦٨) وغيره كما تقدم قريبًا.

س: هل هناك فرق بين معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

ج: يبدو، والله تعالى أعلم، أنه ثمَّ فارقٌ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ متعلق بهم وبالعمل الذي يعملونه وقت أن رآهم بنو إسرائيل، أما قوله: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أن الشرك الذي يصنعونه يبطل كل أعمالهم التي يعملونها.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم أفغير الله ألتمس لكم معبودًا تعبدونه، والله قد منَّ عليكم بالنعم التي منها تفضيلكم على العالمين، فكيف أعدل عن عبادة ربي ﷻ الذي لا يستحق العبادة سواه، والذي منَّ عليكم بالنعم العظيمة التي منها تفضيلكم على العالمين، فكيف أعدل عن عبادته وأبحث عن ربٍّ سواه ليعُبد؟!! وكما هو معلوم فإن المعبودات سوى الله ﷻ لا تنفع ولا تضر كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾.

س: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كيف يجمع بينه وبين قوله تعالى لأمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾.

ج: الظاهر، والله أعلم، أن قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: على العالمين في زمانهم.

وثمَّ وجهٌ آخر أنهم فضلوا على العالمين كلهم بكثرة الأنبياء فيهم، أي: بشيء مخصوص، وهو كثرة الأنبياء فيهم كما قال موسى عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وفي الحديث: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ»(١) الحديث، والله أعلم.

(١) البخاري (حديث ٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. واللفظ لمسلم.

وقيل: فضَّلَهم بإهلاك عدوهم، وبالآيات التي أُيِّد بها نبيهم ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال موسى لقومه: أَسِوَى الله ألتمسكم إلهًا، وأجعل لكم معبودًا تعبدونه، والله الذي هو خالقكم، فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟ يقول: أفأبغيكم معبودًا لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه، وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل!

|

س: كيف خُوطِبَ اليهود الموجودون بمدينة رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم ﴾، وهم لم يعايشوا فرعون ولم يسكنوا معه في بلدةٍ؟

ج: المراد بقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم ﴾ أي: أنجينا أجدادكم وأسلافكم، فإنجاء الاجداد إنجاء وللأبناء كما قد سلف بيانه في سورة البقرة، والله أعلم.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ الآية؟

ج: هذا، والله تعالى أعلم، تذكيرٌ لبني إسرائيل بنعم الله ﷻ حتى يثبتوا على الإيمان،ويقدموا لتلك النعم شكرًا فيقول تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم ﴾ أي: واذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون، وهم أتباعه وأنصاره ومن هم على دينه وملته، فقد كانوا ﴿يَسُومُونَكُمۡ ﴾ أي: يُذيقونكم ويحملونكم ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أسوأ العذاب وأقبحها ومنها أن كانوا ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾ أي: الذكور.

﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ ﴾ أي: ويتركون النساء أحياء للخدمة والامتهان، وفي ذلكم ﴿بَلَآءٞ ﴾ قيل: المراد به أنه كان اختبارًا عظيمًا، وقيل: (بلاء) المراد به هنا النعمة فقد كان إنجاؤكم نعمة عظيمة أنعم الله بها عليكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجَر رسول الله ﷺ: واذكروا مع قيلكم هذا الذي قلتموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر،

وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدمت فعلكم ما فعلتم (وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ)، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه (يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ)، يقول: إذ يحملونكم أقبح العذاب وسيئه.

وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا ما كان العذاب الذي كان يسومهم سيئه.

(يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾، الذكورَ من أولادهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾، يقول: يستبقون إناثهم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾، يقول: وفي سومهم إياكم سوء العذاب، اختبار من الله لكم ونعمة عظيمة.

قَالَ تَعَالَى:
وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ
أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي
وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ
لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي
وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا
تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ
سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي
ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن
مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ
مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ
بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ
ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا
يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن
يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ
حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧

الكلمة	معناها

الكلمة	معناها
﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾	للموعد الذي وقتناه له- الزمن الذي حُدد له كي يكلمه الله.
﴿دَكًّا﴾	مُفَتَّتًا- تُرابًا- مستويًا بالأرض.
﴿وَخَرَّ﴾	سقط.
﴿صَعِقًا﴾	مغشيًّا عليه.
﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾	تنزيهًا لك وتبرئةً أن يراك أحدٌ في الدنيا.
﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾	رجعت إليك عن مسألتي التي سألتها وعن غيرها مما لا يُرضيك.
﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾	فضلتك- اخترتك. بجعلك رسولًا إلى خلقي، وبما حبيتك به من جعلك رسولًا، وبما أنزلته عليك من التوراة.
﴿بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾	بتكليمي لك.
﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾	ما أعطيتك.
﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾	ألواح أنزلها الله لموسى عليه السلام فيها هدايةٌ وأحكامٌ وشرائع لبني إسرائيل.
﴿مَّوۡعِظَةً﴾	تذكيرًا.
﴿وَتَفۡصِيلًا﴾	تبيانًا.
﴿بِقُوَّةٍ﴾	بجدٍّ واجتهادٍ ونشاط- بعزمٍ أكيد على الطاعة- بطاعةٍ وامتثال.
﴿يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾	يعملوا بأحسن ما فيها – بالعزيمة – بأشد مما أمر به قومه.
﴿سَأُوْرِيكُمۡ﴾	سأطلعكم (على دار الفاسقين).
﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾	مصير الفاسقين- جهنم- وقيل: مساكن الفراعنة- وقيل: مساكن الجبابرة بالشام.
﴿ءَايَٰتِيَ﴾	حُجَجِي وبراهيني- وقيل: التوراة- وقيل: المعجزات.
﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾	كل معجزة- كل دليل- كل حجة على وحدانية الله.
﴿سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾	طريق النجاة والسلامة والهداية – الرشد في الدين الصلاح والاستقامة – الحق والرشاد

﴿سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾	طريق الهلاك والضلال والغواية.
﴿غَـٰفِلِينَ﴾	لاهين - مهملين - تاركين.
﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾	بطلتْ وذهب ثوابها.

ذهاب موسى عليه السلام لتكليم ربه عز وجل وما كان منه في ذلك وماذا صنع قومه من بعده

س: لماذا كان هذا الوعد؟

ج: هذا الوعدُ كان لتكليم موسى عليه السلام وإعطائه التوراة التي فيها الأحكام وتفصيل الشرائع، كذا قال غير واحد من أهل العلم، وهذا القول صحيح فيما يبدو، والله أعلم، وذلك لقوله تعالى - وسيأتي قريبًا إن شاء الله- ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؟

ج: المعنى: أنه أتمَّ المدة والوقت الذي واعده ربُّه عز وجل، وهو أربعين ليلة.

س: ما هذه الليالي الثلاثون والعشرة؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى أنها ذو القعدة والعشر الأُول من ذي الحجة.

ولا أعلم شيئًا ثابتًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.

هذا، ومن العلماء من قال: إن هنا مناسبةٌ بين اليوم الذي تمَّ فيه الميقاتُ وبين اليوم الذي أكمل الله لهذه الأمة دينها يوم عرفة وفيه نزل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾، والله أعلم.

س: قد عُلم أن الثلاثين والعشر أربعون فلماذا قال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: قد ذُكرت الأربعين؛ لدفع توهم حاصله أنه قد يظن أن العشر داخلة في الثلاثين، ومن تمام الثلاثين فَذُكرت الأربعونه لبيان أن العشر كانت بعد الثلاثين.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعون؛ لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشرٍ منها، فبين أن العشر سوى الثلاثين. هذا، والله أعلم.

س: في الآية جواز تذكير المؤمنين، وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذكَّر هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مع كون هارون نبيًّا كريمًا، ذكَّره بالإصلاح في قوله: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾ ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين.

ولقد قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وصية موسى لأخيه هارون ث بالإصلاح.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

ج: المعنى، الله تعالى أعلم، أن نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أراد الذهاب لتكليم ربِّه عَزَّ وَجَلَّ وتلقَّى الأوامر والشرائع أوصى أخاه هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال له: كن خليفتي من بعدي في قومي- الذين هم بنو إسرائيل- وأمرهم بطاعة الله وأرفق بهم وانظر ما ينفعهم فافعله وامرهم به، وانظر ما يضرهم فابتعد عنه وانهاهم عنه ولا تسلك سبيل العصاة والغُواة ولا تكن عونًا للظالمين على ظلمهم.

س: لقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض أصحابه: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تكونَ مِنِّي بمنزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟» من أخرج هذا الحديث؟ وما وجهه؟ ومن الصحابي؟ وهل فيه مستندٌ لمن قال بأحقِّيتِهِ بالخلافة بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ج: هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليًّا فقال: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: «أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي»(١).

والصحابي الجليل الذي قال له رسول الله ذلك هو عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

والحديث ليس بصريح في استخلاف عليٍّ؛ لأن ذلك كان في بعض مغازي النبي ﷺ، وليس بعد موته، ثم إنه قد وردت أحاديث أُخر تشعر - وليست صريحه أيضًا - بأحقية غير عليٍّ رضي الله عنه بالخلافة، وذلك كما قال النبي ﷺ في مرض موته «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»(٢).

وقوله للمرأة التي سألته إن جئت فلم أجدك؛ قال: «إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِ أَبَا بَكْرٍ»(٣).

ثم إن عمر رضي الله عنه لما طعن، وقيل له: استخلف يا أمير المؤمنين، قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني (يعني: أبا بكر) وإن أتركْكم فقد تركَكم من هو خيرٌ مني رسول الله ﷺ(٤)، فدلّ ذلك على أن رسول الله ﷺ لم يستخلف بعد موته أحدًا، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾

ج: هذا معناه، والله أعلم، أن الله عز وجل واعد موسى عليه السلام أن يأتيه موسى في مكان حدده الله له ليكلم موسى فيه، وذلك بعد مضى زمنٍ معين (أربعين ليلة) فلما جاء موسى عليه السلام عند انقضاء الزمن الذي حُدِّد له، وتفضَّل الله عليه بان كلمة ومنَّ عليه بهذه الفضيلة العظمى (تكليم الله له) طلب موسى عليه السلام أن يرى ربَّه عز وجل فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فسأل الله هذه الفضيلة العظمى الأخرى، وهي النظر

(١) البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).
(٢) البخاري (٦٧٩)، ومسلم (٤١٨).
(٣) البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦).
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (حديث ١٨٢٣).

إلى وجه الله فقال الله له ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾

س: هل قول الله ﷻ لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يفيد أن المؤمنين لن يروا ربهم ﷻ؟

ج: يفيد ذلك في الدنيا، أما في الآخرة فلا، وذلك لورود النصوص الصريحة برؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وتفسير الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله ﷻ (١) وكقوله ﷺ: «إنكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم عَيَانًا» (٢).

وكقوله ﷺ: «إنكمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ» (٣) ......الحديث.

وقد أوردت كمًّا من الاستدلالات على ذلك في تفسير سورة القيامة.

ومن الدليل على ذلك أيضًا: قوله تعالى في شأن اهل الكفر: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فدلَّ ذلك على أن أهل الإيمان ليسوا بمحجوبين، والله أعلم.

س: هل وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث صحيحة الإسناد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ وهل وردت عن رسول الله ﷺ كذلك أحاديث صحيحه في قوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

ج: وردت بعض الأحاديث في هذا الباب في كل منها مقال، لكن ثَمَّ حديث بإسنادٍ على شرط مسلم أخرجه أحمد وعدد من أهل العلم (٤) من طرق كثيرة عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: «أَخْرَجَ خِنْصَرَهُ فَضَرَبَ عَلَى إِبْهامِهِ فَسَاخَ فِي الجَبَلِ» قال حميد لثابت تُحدث بمثل هذا، فضرب بيده في صدره وقال يقوله أنس ويقوله رسول الله ﷺ وأكتمه.

وكما أسلفت فسند الحديث على شرط مسلم، لكن أورده ابن الجوزي في

(١) انظر صحيح مسلم (١٨١).
(٢) البخاري (٧٤٣٥).
(٣) البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).
(٤) انظر أحمد في «المسند» (٣/ ٢٠٩/ ١٢٥) والترمذي (٣٠٨٥)، والحاكم (١/ ٢٥) والطبري عند تفسير الآية وغير هؤلاء جمٌّ غفير، ولمزيد «القول المسدد في الذب عن مسند أحمد».

«الموضوعات» ونقل كلام ابن عدي قال: كان ابن أبي العوجاء ربيب حماد بن سلمة فكان يدس في كتبه هذه الأحاديث.

لكن تعقب هذا القول من غير واحد من أهل العلم بما حاصله: أن السند الذي فيه أن ابن أبي العوجاء كان يدس هذه الأحاديث سند ضعيف، وإذا سلمنا به رددنا كمًّا كبيرًا من الأحاديث في صحيح مسلم.

س: قوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من ماذا؟

ج: قال فريق من أهل العلم: تبت إليك عن مسألة رؤيتك.

وقال آخرون: تبت إليك لكوني سألت من غير استئذان.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون.

س: كيف قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد كان هنالك مؤمنون قبله؟

ج: وجَّه العلماء ذلك بتوجيهات:

أحدها: وأنا أول المؤمنين بأنه لن يراك أحدٌ في الدنيا.

الثاني: وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل، وهذا القول به ضعف؛ لأن بني إسرائيل كان منهم الأنبياء ورسل قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثالث: وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل بأنه لن يراك أحد في الدنيا.

الرابع: أن ذلك قيل على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات.

س: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُخَيِّرُونِي بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»[1] ما وجهه، وقد علمنا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد ولد آدم؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِمِ ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: «مَنْ؟»، قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «ادْعُوهُ»، فَقَالَ: «أَضَرَبْتَهُ؟»، قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، قُلْتُ: =

ج: له وجوه وجَّهه بها العلماء:

منها: أن الرسول ﷺ قال ذلك تواضعًا وتعليم أمته التواضع.

ومنها: أن الأنبياء في أصل النبوة سواء، ولكن التفاضل بينهم بما وراء ذلك من أعمال.

الثالث: أن النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم.

الرابع: أنه نهى أن يُفضَّل بينهم على وجه الغضبية والتعصب، أو على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي.

س: وضح متى الصعق في قوله ﷺ: «فَإِنَّ الناسَ يَصْعقُونَ»؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الصَّعْقَ يَكُونُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، يَحْصُلُ أَمْرٌ يُصْعَقُونَ مِنْهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ. وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ إِذَا جَاءَ الرَّبُّ ع لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَجَلَّى لِلْخَلَائِقِ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ، كَمَا صَعِقَ مُوسَى مِنْ تَجَلِّي الرَّبِّ، عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ».

دفعُ إشكال

س: كيف اصطفى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على الناس برسالاته وبكلامه، وقد أرسل غيره من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه؟

ج: أجاب بعض العلماء على ذلك بما حاصله أن الله عَزَّوَجَلَّ اصطفاه على الناس

= أَيْ خَبِيثُ، عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى**».

وكذا عند البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ المُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ المُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ المُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ**».

الذي أُرسل إليهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ تَعَالَى وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ والآخرين؛ ولهذا اختصه الله بأن جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الَّتِي تَسْتَمِرُّ شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَتْبَاعُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قلت: (مصطفى):

فيكون قوله ع: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ناسٍ مخصوصين وهم الذين أُرسل إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن الناس أحيانًا يأتي ذكرها يُراد بها ناسٌ مخصوصون، ليسوا الخلق أجمعين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، فالمقول لهم ناس وهم المؤمنون، والقائلون لهم ناس وهم المنافقون، والذين جمعوا لهم ناس، وهم الكفار، والله أعلم.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما طلب من ربِّه عَزَّ وَجَلَّ الرؤية ولم يُجب إلى هذا الطلب بل وخرَّ موسى صعقًا لما تجلي ربُّه للجبل ناداه ربُّه عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ أي يا موسى إني قد فضلتك على الناس- وهم الناس الذين أُرسل إليهم- بأن جعلتك رسولًا من بينهم، وفضَّلتك عليهم بتكليمي لك فخذ ما آتيتك من هذه الفضائل واعمل بما أمرتك به من الأوامر وانتهِ عما نهيتك عنه، وأحمد الله على هذه الفضائل التي فضَّلتك بها والشرائع التي بيَّنتها لك.

س: هل من كلَّمه الله عَزَّ وَجَلَّ غير موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ج: نعم قد ورد ذلك، فمن ذلك تكليم الله عَزَّ وَجَلَّ لآدم وحواء، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وكذا فقد كلَّم النبي ﷺ في

رحلة المعراج عند فرض الصلوات.

وقد ورد في صحيح السنة أن الله ﷻ نادى أيوب عليه السلام: «أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ؟». فقال: «بَلَى وَلَكِنْ وعِزَّتُكَ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»(١).

وفي شأن النداء أيضًا: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾(٢).

|

س: ما الذي آتاه الله موسى عليه السلام؟

ج: آتاه الله التوراة والألوح والصحف، وقد قيل: إنها كلها مسمى لشيء واحد فالله أعلم، كما أوتي التكليم والرسالات وغير ذلك من الآيات، وقد ذُكرت قبل.

|

س: في الآية الكريمة: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إرشاد إلى القناعة وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن الله ﷻ أمر موسى عليه السلام أن يقبل على ما آتاه الله إياه ولا يسأل ما ليس له (من الرؤية) وليقدم شكرًا لله ﷻ على ما تفضَّل به عليه، وعلى ما منَّ الله به عليه.

|

س: ما هذه الألواح؟ ومن أي شيء كانت؟ وما موضوعها؟ وما الأشياء التي كتبها الله فيها؟

ج: ابتداءً لم أقف على خبر ثابتٍ عن رسول الله ﷺ في شأن هذه، وإنما غاية ما فيها من الوارد في كتاب الله ﷻ أنها ألواحٌ كتب الله فيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من الأوامر والنواهي والشرائع والأحكام والتوحيد وسائر أمور الدين، وتفصيلات كل ذلك منَّ الله ﷻ بها على موسى عليه السلام، وأعطاه إياها.

هذا وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ (لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ)

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**بينما أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه رجلٌ من جرادٍ من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربُّه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك**».

(٢) وقد يقال إن هذا عن طريق الملك، وسيأتي إن شاء الله بتفصيل.

قِيلَ: كَانَتِ الْأَلْوَاحُ مِنْ جَوْهَرٍ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا مُفَصَّلَةً مُبَيِّنَةً لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَاحُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَاةِ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ).

وَقِيلَ: الْأَلْوَاحُ أُعْطِيَهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ، فَاللهُ أَعْلَمُ. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ كَانَتْ كَالتَّعْوِيضِ لَهُ عَمَّا سَأَلَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَمُنِعَ مِنْهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

هذا، وقد قال غير الحافظ ابن كثير: إنها كانت من زُمُردة خضراء وقيل: من ياقوتة حمراء، وقيل: من خشب وقيل: من زبرجد وأقوال كثيرةٌ فيها، فالله أعلم بالصواب.

س: ما معنى قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؟

ج: المعنى -والله أعلم- أقبل عليها بجدٍ واجتهاد ونشاط واعمل بأشد مما أمرت به قومك.

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن يعملوا بما أمرهم الله به ويتركوا ما نهاهم الله عنه فالعمل بالمأمور به أحسن من العمل بالمنهي عنه.

الثاني: أن الأمر هنا أمر ندبٍ وإرشاد، وأيضًا فهناك حسنٌ وهناك أحسن، فمثلًا هناك قصاص وهناك عفو، والعفو أفضل من القصاص، وإن كان القصاص جائزًا.

وهناك صبرٌ وهناك انتصارٌ من الظالم، والصبرُ- في الجملة- أفضل من الانتصار.

وهذا المعنى كالوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، فالعدل القصاص والإحسان العفو.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا) إن قيل: كأن فيها ما ليس بحسن؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن المعنى: يأخذوا بحسنها، وكلها حَسَن، قاله قطرب، وقال ابن

الأنباري: ناب «أحسن» عن «حسن» كما قال الفرزدق:

إِنَّ الَّـذِي سَـمَكَ السَّـمَاءَ بَنَـى لَنَـا بَيْتـــًا دَعَائِمُـــهُ أَعَـــزُّ وأَطْـــوَلُ

أي: عزيزة طويلة. وقال غيره: «الأحسن» ها هنا صلة، والمعنى أن يأخذوا بها.

والثاني: أن بعض ما فيها أحسن من بعض. ثم في ذلك خمسة أقوال: أحدها: أنهم أُمروا فيها بالخير ونُهوا عن الشر، فَفِعْلُ الخير هو الأحسن. والثاني: أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر، فأُمِروا أن يأخذوا بالأحسن، ذكر القولين الزجاج.

فعلى هذا القول، يكون المعنى: انهم يتبعون العزائم والفضائل، وعلى الذي قبله، يكون المعنى: أنهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة، ويجتنبون الموصوف بالقبح وهو المعصية. والثالث: أحسنها: الفرائض والنوافل، وأدونها في الحسن: المباح. والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة، فتصرف إلى الاشبه بالحق. والخامس: أن أحسنها: الجمع بين الفرائض والنوافل.

س: ما المراد بدار الفاسقين؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن دار الفاسقين هي جهنم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لموسى، إذ كتب في الألواح من كل شيء: خذها بجدّ في العمل بما فيها واجتهاد، وأمر قومك يأخذوا بأحسن ما فيها، وانههم عن تضييعها وتضييع العمل بما فيها والشرك بي، فإن من أشرك بي منهم ومن غيرهم، فإني سأريه في الآخرة عند مصيره إليّ، (دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ)، وهي نار الله التي أعدها لأعدائه.

وإنما قال: (سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ)، كما يقول القائل لمن يخاطبه: "سأريك غدًا إلامَ يصير إليه حال من خالف أمري!"، على وجه التهدُّد والوعيد لمن عصاهُ وخالف أمره.

القول الثاني: أن المراد بدار الفاسقين هي الشام وقيل: هي مصر، واختار ابن كثير

الأول.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أَيْ: مِنْ أَهْلِ الشَّام، وَأُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا. وَقِيلَ: مَنَازِلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، وَاللهُ أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ انْفِصَالِ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَنْ بِلَادِ مِصْرَ، وَهُوَ خِطَابٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ دُخُولِهِمُ التِّيهَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

القول الثالث: أنها مساكن عادٍ وثمود التي كانوا يمرون عليها صباحًا ومساءً.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنها جهنم، قاله الحسن، ومجاهد. والثاني: انها دار فرعون وقومه، وهي مصر، قاله عطية العوفي. والثالث: أنها منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة، يريهم إياها عند دخولهم الشام، قاله قتادة. والرابع: أنها مصارع الفاسقين، قاله السدي. ومعنى الكلام: سأُرِيكم عاقبة من خالف أمري، وهذا تهديد للمخالف، وتحذير للموافق.

س: ما المراد بالآيات في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بالآيات آيات القرآن الكريم.

الثاني: أن المراد بذلك عموم الآيات الدالة على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، وصدق رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيما أخبروا به عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إلى غير ذلك والله أعلم.

س: ما المراد بصرف الكفار عن الآيات؟

ج: المراد بصرفهم عن الآيات عدم فهمها وعدم الانتفاع منها والله أعلم.

س: الذي يأتيه الحق فيرفضه، يصرفه الله عَزَّوَجَلَّ إلى الباطل ويزيد انصرافًا، والذي يقبل على الحق ييسر الله عَزَّوَجَلَّ له سبل ذلك، دلِّل على ذلك.

ج: نعم، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠] الآيات.

عقوبة من عقوبات الكبر والإعراض

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

ج: معنى ذلك -والله تعالى أعلم- أن الله ﷻ بأنه سيصرف الكفار المتكبرين في الأرض عن فهم الآيات وتدبرها، فإذا قرؤوا القرآن أو استمعوه فلن يفهموا ولن يستفيدوا ولن يعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾.

وكذلك سيصرفهم عن تعقّل الآيات الكونية وفهمها والاعتبار منها والاتعاظ، فليسوا كأولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه.

والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه، فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفِّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم، لأنه جلّ ثناؤه قال: (وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ)، فلا

تبديل لكلمات الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى: (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) أَيْ: سَأَمْنَعُ فهم الحجج وَالْأَدِلَّةِ عَلَى عَظْمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَيْ: كَمَا اسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللهُ بِالْجَهْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وَقَالَ تَعَالَى: (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا يَنَالُ الْعِلْمَ حَيِيٌّ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ.

وَقَالَ آخَرُ: مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذُلِّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً، بَقِيَ فِي ذُلِّ الْجَهْلِ أَبَدًا.

وقال الشافعي:

مَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً ... تَجَرَّعَ ذُلَّ الجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - يتعالون على الخلق ويظنون أنهم أفضل الخلق ويتعالون على الأوامر فيرفضون أمر الله ﷻ ويُقْبِلُونَ على ما نهى عنه.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الآيات.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله ﷻ صرف المتكبِّرين في الأرض عن الدلالات على وحدانيته، وعن فهم كتابه، فمن ثَمَّ لم يفهموا القرآن ولم تُجدِ معهم ولم تؤثِّر فيهم الآيات فكلما جاءتهم آيةٌ ازدادوا ضلالًا إلى ضلالهم وفجورًا إلى فجورهم، فكانوا كلما عُرض عليهم طريق الحق والصواب، ذلكم الطريق الموصل إلى جنة الله ومرضاته رفضوا أن يسلكوه، وإذا عُرض عليهم طريق الشر والفساد الموصل إلى جهنم -والعياذ بالله- سلكوه واختاروه، وذلك منهم؛ لكونهم كذبوا بآيات الله وأنكروها ولم يعتبروا بها ولم يتعظوا فزُيِّن لهم الباطل وأعمالهم الله عن الحق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقـول تعـالى ذكـره: وإن يـر هـؤلاء الـذين يتكـبرون في الأرض بغيـر الحـق و= "وتكبرهم فيها بغير الحق"، تجبرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله، والإذعان لأمره ونهيه، وهم لله عبيدٌ يغذوهم بنعمته، ويريح عليهم رزقه بكرة وعشيًّا، ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾، يقول: كل حجة لله على وحدانيته وربوبيته، وكل دلالة على أنه لا تنبغي العبادة إلا له خالصة دون غيره. ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾، يقول: لا يصدقوا بتلك الآية أنها دالة على ما هي فيه حجة، ولكنهم يقولون: "هي سحر وكذب" ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، يقول: وإن ير هؤلاء الذين وصف صفتهم طريق الهدى والسداد الذي إن سلكوه نجوا من الهلكة والعطب، وصاروا إلى نعيم الأبد، لا يسلكوه ولا يتخذوه لأنفسهم طريقًا، جهلا منهم وحيرة ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾، يقول: وإن يروا طريق الهلاك الذي إن سلكوه ضلّوا وهلكوا.

وقد بينا معنى ﴿ٱلْغَىِّ﴾ فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته. ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، يقول: يسلكوه ويجعلوه لأنفسهم طريقًا، لصرف الله إياهم عن آياته، وطبعه على قلوبهم، فهم لا يفلحون ولا ينجحون ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها ويذكروا فينيبوا، عقوبةً منا لهم على تكذيبهم بآياتنا ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾، يقول: وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه ﴿غَـٰفِلِينَ﴾، لا يتفكرون فيها، لاهين عنها، لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا فعَطِبوا.

س: أهل الباطل لا ينتفعون بالآيات، بل تزيدهم ضلالًا دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا

خَسَارًا ﴾.

وقولــه تعــالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والذين كذبوا بالقرآن وبالدلالات على وحدانية الله ﷻ وقدرته وصدق رسله وكذا كذبوا بالبعث والحساب والثواب والعقاب وماتوا على ذلك أحبط الله ﷻ أعمالهم، فإنهم يجازون بما قدموا من عمل، وكما يدين الشخص يدان.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق، وكلّ مكذِّبٍ حججَ الله ورسله وآياته، وجاحدٍ أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته، ومنكرٍ لقاء الله في آخرته، ذهبت أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها فثبتت، لأنهم عملوا لغير الله، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضى الله، فصارت أعمالهم عليهم وبالا. يقول الله جل ثناؤه: (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)، يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم الخلودَ في نار أحاط بهم سرادقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه.

قَالَ تَعَالَى:

وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ
خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ
وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ
ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ
بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ
وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ
ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا
تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي
وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ
١٥٣ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي
نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤

(٢٧١) أحمر
أسود

الكلمة	معناها
﴿حُلِيِّهِمْ﴾	الذهب الذي يتحلون به ويتزينون به.
﴿جَسَدًا﴾	جسمًا- مُجسمًا.
﴿خُوَارٌ﴾	صوت (صوت العجل).
﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾	لا يرشدهم إلى الخير ولا يدلهم عليه ولا يبين لهم طريق الشرك.
﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾	ندموا، وهي كلمة تُقال عن كل نادم.
﴿أَسِفًا﴾	شديد الغضب- الأسف: أشد الغضب- حزينًا.
﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ﴾	بئس الصنيع الذي صنعتموه بعد مفارقتي لكم، وبئس العمل الذي عملتموه.
﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾	أسبقتم أمر ربكم- أستعجلتم مجيئه إليكم.
﴿اسْتَضْعَفُونِي﴾	رأوني ضعيفًا فاستذلوني ولم يُبالوا بقولي وتركوا طاعتي واتباع أمري.
﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾	تجعل الأعداء مسرورين بالشر الذي يحدث لي فالشماتة: السرور بما يصيب الشخص من المصائب في الدنيا والدين.
﴿وَذِلَّةٌ﴾	هوان- إهانةٌ.
﴿الْمُفْتَرِينَ﴾	الكاذبين على الله.
﴿سَكَتَ﴾	سكن- انكف- ذهب.
﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾	فيما كُتب فيها- فيما نُسخ فيها (أي: كتب).
﴿هُدًى﴾	بيان الحق.
﴿يَرْهَبُونَ﴾	يخافون الله ويخشون عقابه.

بنو إسرائيل و عبادتهم العجل

س: في قولـه تعـالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾ وكذا في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ مقدرٌ مفهوم من السياق وضح هذا المقدر.

ج: هذا المُقدر، والله أعلم، هو (إلهًا) فالمعنى واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِّيهم عجلًا جسدًا إلهًا يعبدوه، وكذا قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي: اتخذوه إلهًا، والله أعلم وهذا التقدير لابد منه؛ لأن من اقتنى عجلًا لتربيته لا يُلام ولكن من اتخذه إلهًا يعبده فهو الذي ضلَّ ضلالًا مبينًا وعليه كلُّ اللوم. والله أعلم.

س: وضح المعنى الإجمالي لقولـه تعـالى: (وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ)

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن قوم موسى لما خرج من عندهم نبيهم كليم الله ورسول الله موسى عليه السلام المناجاة ربَّه عز وجل وأخذ شرائع الدين، فلما تركهم موسى وخرج لهذا الغرض صنع السامري لهم عجلًا من الذهب الذي كان عند بني إسرائيل للفراعنة والقبط، فقد كانوا حُملوا أمانات من هؤلاء وأولئك، فلما أغرق الله الفراعنة والقبط، ورأى الإسرائيليون أن هذه الأمانات لا تحل لهم ولا يحل لهم الاستمتاع بها قذفوها وألقوا بها كما ذكر ذلك ربنا فقد قال تعالى في شأنهم لما قال موسى عليه السلام: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ - ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فيحينئذ، ولما ألقوا ما معهم من حُليٍّ أخذه السامري فصنع منه عجلًا جسدًا ثم إن السامري- على ما ذكره كثيرٌ من المفسرين- كان قد رأى جبريل عليه فرسه- بتمكين الله له من هذه الرؤية- فأخذ قبضة من التراب الذي مرَّ عليه جبريل بفرسه- كما قال عن نفسه: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ [طه: ٩٦]، فألقى السامري هذه القبضة من التراب على العجل فسُمِعَ له صوت كصوت البقرة وهو الخوار فقال لقومه: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي: ولكن موسى نسي أن ربَّه هذا العجل فخرج وترككم.

فحينئذ عبد قوم موسى العجل كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾ الآية.

۞ أما قوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾ أي: له صوت.

۞ أما هل تحول العجل الذهبي - بعد أن ألقى السامري القبضة عليه في قوله: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا ﴾- إلى لحم ودم وعجل حقيقي أم كان على حاله من ذهبٍ ولكن سمع له صوت؟ الله أعلم بكل ذلك.

۞ **والحاصل**: أن قوم موسى، وهم بنو إسرائيل اتخذوا العجل الذي صنعه لهم السامري من هذا الحلي إلهًا يعبدونه فهذا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾.

ثم إن الله ﷻ ينقم عليهم صنيعهم هذا فيقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ﴾ أي: ألم ير هؤلاء الإسرائيليون أن هذا العجل لا يرشدهم إلى الخير ولا ينهاهم عن الشر ولا يدلهم على الطريق المستقيم الذي يقربهم إلى الله ﷻ وإلى مرضاته؟!!

كلا فلم يعقل الإسرائيليون حين اتخذوا العجل إلهًا، بل عبدوه وهم ظالمون لأنفسهم قد بخسوها حقها وأردوها سوء المنازل بعبادتهم العجل.

هذا، وقد قال الطبري خ في شأن ذلك:

يقول تعالى ذكره: واتخذ بنو إسرائيل قومُ موسى، من بعد ما فارقهم موسى ماضيًا إلى ربه لمناجاته، ووفاءً للوعد الذي كان ربه وعده (مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا)، وهو ولد البقرة، فعبدوه.

ثم بين تعالى ذكره ما ذلك العجل فقال: (جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ) و"الخوار": صوت البقر = يخبر جل ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل. وذلك أن الرب جلّ جلاله الذي له ملك السموات والأرض، ومدبر ذلك، لا يجوز أن يكون جسدًا له خوار، لا يكلم أحدًا ولا يرشد إلى خير. وقال هؤلاء الذين قص الله قَصَصهم لذلك: "هذا إلهنا وإله موسى"، فعكفوا عليه يعبدونه، جهلا منهم، وذهابًا عن الله وضلالا.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا)، يقول: ألم ير الذين عكفوا على العجل الذي اتخذوه من حليهم يعبدونه، أن العجل لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا؟ يقول: ولا يرشدهم إلى طريق؟ وليس ذلك من صفة ربهم الذي له العبادة حقًا، بل صفته أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير، وينهاهم عن سبيل المهالك والردى. يقول الله جل ثناؤه:(ٱتَّخَذُوهُ)، أي: اتخذوا العجل إلهًا، وكانوا باتخاذهم إياه ربًّا معبودًا ظالمين لأنفسهم، لعبادتهم غير من له العبادة، وإضافتهم الألوهة إلى غير الذي له الألوهة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجلَ، الَّذِي اتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّ الْقِبطِ، الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ، فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَصَارَ عِجلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، وَ"الْخُوَارُ" صَوْتُ الْبَقَرِ. وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى، وَأَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ:(قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ).

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجلِ: هَلْ صَارَ لَحمًا وَدَمًا لَهُ خُوَارٌ؟ أَوِ اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مَنْ ذَهَبٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيُصَوِّتُ كَالْبَقَرِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمَّا صَوَّتَ لَهُمُ الْعِجلُ رَقَصُوا حَوْلَهُ وَافْتَتَنُوا بِهِ، (هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ) فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا) يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجلِ، وذُهُولهم عَنْ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَار لَا يُكَلِّمُهُمْ، وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ. وَلَكِنْ غَطَّى عَلَى أعيُن بَصَائِرِهِمْ عَمَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ

۞ وهذا، وقد أورد القرطبي خ كلامًا في هذا الصدد أيضًا بعضه يشهد له التنزيل وبعضه يفتقر إلى الدليل فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَرُوِيَ فِي قَصَصِ الْعِجْلِ: أَنَّ السَّامِرِيَّ، وَاسْمُهُ مُوسَى بْنُ ظَفَرَ، يُنْسَبُ إِلَى قَرْيَةٍ تُدْعَى سَامِرَةَ.

وُلِدَ عَامَ قَتْلِ الْأَبْنَاءِ، وَأَخْفَتْهُ أُمُّهُ فِي كَهْفِ جَبَلٍ فَغَذَّاهُ جِبْرِيلُ فَعَرَفَهُ لِذَلِكَ، فَأَخَذَ حِينَ عَبَرَ الْبَحْرَ عَلَى فَرَسٍ وَدِيقٍ لِيَتَقَدَّمَ فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ- قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ حَافِرِ الْفَرَسِ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ) [طه: ٩٦].

وَكَانَ مُوسَى وَعَدَ قَوْمَهُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، فَلَمَّا أَبْطَأَ فِي الْعَشْرِ الزَّائِدِ وَمَضَتْ ثَلَاثُونَ لَيْلَةً قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ مُطَاعًا فِيهِمْ: إِنَّ مَعَكُمْ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَتَزَيَّنُونَ فِيهِ وَيَسْتَعِيرُونَ مِنَ الْقِبْطِ الْحُلِيَّ فَاسْتَعَارُوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلَمَّا أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْ مِصْرَ وَغَرِقَ الْقِبْطُ بَقِيَ ذَلِكَ الْحُلِيُّ فِي أَيْدِيهِمْ، فَقَالَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ: إِنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، فَهَاتُوا مَا عِنْدَكُمْ فَنُحَرِّقُهُ.

وَقِيلَ: هَذَا الْحُلِيُّ مَا أَخَذَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ الْغَرَقِ، وَأَنَّ هَارُونَ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْحُلِيَّ غَنِيمَةٌ، وَهِيَ لَا تَحِلُّ لَكُمْ، فَجَمَعَهَا فِي حُفْرَةٍ حَفَرَهَا فَأَخَذَهَا السَّامِرِيُّ.

وَقِيلَ: اسْتَعَارُوا الْحُلِيَّ لَيْلَةَ أَرَادُوا الْخُرُوجَ مِنْ مِصْرَ، وَأَوْهَمُوا الْقِبْطَ أَنَّ لهم عرسا أو مجتمعا، وَكَانَ السَّامِرِيُّ سَمِعَ قَوْلَهُمْ (ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ).

[الأعراف: ١٣٨]

وَكَانَتْ تِلْكَ الْآلِهَةُ عَلَى مِثَالِ الْبَقَرِ، فَصَاغَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا، أَيْ مصمتا، غير أنهم كانوا يسمعون منه خوار.

وَقِيلَ: قَلَبَهُ اللهُ لَحْمًا وَدَمًا.

وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا أَلْقَى تِلْكَ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ فِي النَّارِ عَلَى الْحُلِيِّ صَارَ عِجْلًا لَهُ خُوَارٌ، فَخَارَ خَوْرَةً وَاحِدَةً وَلَمْ يُثَنِّ ثُمَّ قَالَ لِلْقَوْمِ: (هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ) [طه: ٨٨].

يَقُولُ: نسيه هاهنا وَذَهَبَ يَطْلُبُهُ فَضَلَّ عَنْهُ- فَتَعَالَوْا نَعْبُدُ هَذَا الْعِجْلَ.

فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى وَهُوَ يُنَاجِيهِ: (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

ج: معنى ذلك- والله تعالى أعلم- أن قوم موسى لما عبدوا العجل ورجع إليهم نبي الله موسى ﷺ وبيَّن لهم خطأ ما هم فيه طريق والضلال الذي سلكوه وصاروا فيه ندموا ندمًا شديدًا على ما صنعوه من عبادة العجل، والنادم يُعبر عنه بأنه قد سُقط في يده، فلما تبين لهم أنهم قد ضلوا بعبادتهم العجل سألوا الله ﷻ الرحمة والمغفرة بقولهم: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾،: ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته، عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم.

وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف، وعاجز عن شيء: "قد سُقِط في يديه" و"أسقط"، لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره، فيكتفه. فالمرميّ به مسقوط في يدي الساقط به. فقيل لكل عاجز عن شيء، وضارع لعجزه، متندِّمٍ على ما قاله: "سقط في يديه" و"أسقط".

وعنى بقوله: ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ ﴾، ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم، قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أَيْ: نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا، ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: «لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا» بِالتَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فَوْقُ، «رَبَّنَا» مُنَادًى، «وتَغْفِر لَنَا»، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ: مِنَ الْهَالِكِينَ وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِذَنْبِهِمْ وَالْتِجَاءٌ إِلَى اللهِ ﷻ.

س: وضح معنى قول الإسرائيليين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، لئن لم يتفضل علينا ربنا ويرحمنا برحمته ويتجاوز عن سيئاتنا وعن جرمنا الذي اجترمناه بعبادتنا العجل واتخاذنا له إلهًا لنكونن من الهالكين الذين خسروا أنفسهم فأوردوها اللظى والجحيم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعنى قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لئن لم يتعطف علينا ربنا بالتوبة برحمته ويتغمد بها ذنوبنا لنكونن من الهالكين الذي حبطت أعمالهم.

س: ذكر بعض العلماء قراءة أُخرى في قولهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، فما القراءة وما وجهها؟

ج: نعم قد ذكر البعض هذه القراءة، فقالوا: (لَئِنْ لَم تَرْحَمْنَا) فجعلوها بالتاء بدلًا من الياء، وجعلوا ربَّنا منادى، فالمعنى على هذا الوجه: (لئن لم ترحمنا يا ربنا لنكونن من الخاسرين).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم اختلفت القرأة في قرأة ذلك.

فقرأه بعض قرأة أهل المدينة ومكة والكوفة والبصرة: (لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا) بالرفع، على وجه الخبر.

وقرأ ذلك عامة قرأة أهل الكوفة: (لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا)، بالنصب، بتأويل: لئن لم ترحمنا يا ربنا= على وجه الخطاب منهم لربهم. واعتلّ قارئو ذلك كذلك بأنه في إحدى القراءتين: (قَالُوا رَبَّنا لئنْ لَمْ تَرْحَمْنَا وَتَغْفِرْ لَنَا)، وذلك دليل على الخطاب.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى بالصواب من القراءة في ذلك، القراءة على وجه الخبر بالياء في (يَرْحَمْنَا)، وبالرفع في قوله: (رَبُّنَا)، لأنه لم يتقدم ذلك ما يوجب أن يكون موجَّهًا إلى الخطاب.

والقراءة التي حكيت على ما ذكرنا من قراءتها: (قَالُوا رَبَّنَا لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا)، لا

نعرف صحتها من الوجه الذي يجب التسليم إليه.

أما القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال:

وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ: "لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا" بِالتَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ. وَفِيهِ مَعْنَى الِاسْتِغَاثَةِ وَالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ فِي السُّؤَالِ وَالدُّعَاءِ. "رَبَّنَا" بِالنَّصْبِ عَلَى حَذْفِ النِّدَاءِ. وَهُوَ أَيْضًا أَبْلَغُ فِي الدُّعَاءِ وَالْخُضُوعِ. فَقِرَاءَتُهُمَا أبلغ في الاستكانة والتضرع، فهي أولى. كذا قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

س: ما أخطأ أو أذنب وتبين له وجه خطئه عليه أن يبادر بالاستغفار والإنابة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك سبيل الصالحين، دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

۞ قول الإسرائيلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

۞ وقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قتل القبطي ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.

وقوله آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لما أكلا من الشجرة ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقول يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وعاتبة ربه عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية.

قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- ولما رجع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من سفره الذي فيه إذ كان قد ذهب لتكليم الله عَزَّ وَجَلَّ ومناجاته فذهب وتلقى الألواح وفي نسختها هدى ورحمة

وأوامره ونواهٍ وإرشادات وأحكام لبني إسرائيل، وكان موسى عليه السلام قد أخبره ربُّه عز وجل أن قومه عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان غضبًا شديدًا، وحزينًا بسبب ذلك، والله أعلم.

أما قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي: بئس العمل والصنيع الذي صنعتموه بعد فراقي لكم.

قال الطبري رحمه الله:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رَجَعَ غَضْبَانَ أَسِفًا؛ لِأَنَّ اللهَ كَانَ قَدْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدْ فَتَنَ قَوْمَهُ، وَأَنَّ السَّامِرِيَّ قَدْ أَضَلَّهُمْ، فَكَانَ رُجُوعُهُ غَضْبَانَ أَسِفًا لِذَلِكَ. وَالْأَسَفُ: شِدَّةُ الْغَضَبِ وَالتَّغَيُّظُ بِهِ عَلَى مَنْ أَغْضَبَهُ.

وقال أيضًا:

وقوله: (قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي)، يقول: بئس الفعل فعلتم بعد فراقي إياكم وأوليتموني فيمن خلفت ورائي من قومي فيكم، وديني الذي أمركم به ربكم. يقال منه: "خلفه بخير"، و"خلفه بشر"، إذا أولاه في أهله أو قومه ومن كان منه بسبيل من بعد شخوصه عنهم، خيرًا أو شرًّا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى، عليه السلام، رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ غَضْبَانُ أَسِفٌ.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ "الْأَسَفُ": أَشَدُّ الْغَضَبِ.

(ﭘ ﭙ ﭚ) يَقُولُ: بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ أَنْ ذَهَبْتُ وَتَرَكْتُكُمْ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئ إليكم وهو مقدرٌ من الله تعالى.

أما الطبري رَحِمَهُ اللهُ فقال: أسبقتم أمر ربكم في نفوسكم وذهبتم عنه.

قلت (مصطفى):

وأقول موضحًا ما ذكره أهل العلم والفضل: إن المعنى لما تأخرت عنكم بادرتم باتباع أوامر غير أوامر الله ﷻ وقدمتموها على أوامر الله ﷻ التي أتيتكم بها في الألواح فاتبعتم أوامر السامري الزائغ الذي أضلكم وفتنكم؟!! والله أعلم.

إلقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للألواح

س: لماذا ألقى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الألواح؟

ج: ألقى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الألواح؛ غضبًا على قومه وتضايقًا منهم، فكأن المعنى: قد كلمني ربي ﷻ وأعطاني الألواح فيها هدايةٌ لكم وإرشادٌ، وفيه الأوامر والنواهي، وفيها الحِكَمُ والمواعظ وفيها ما به ترحمون إن أنتم أتبعتموه، فإذا بكم تستبطئون رجوعي وتعبدون العجل، فغضب موسى منهم من أجل ذلك أشد الغضب وألقى الألواح.

۞ فإلقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الألواح كان بسبب غضبه على قومه.

۞ **وقال بعض العلماء:** وهو قتادة رَحِمَهُ اللهُ- إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ألقى الألواح؛ لكونه وجد فيها أن أمةً من الأمم لها من الفضائل أكثر من أمته، وهذه الأمة هي أمة محمد ﷺ وهذا القول الذي قاله قتادة رَحِمَهُ اللهُ في بيان سبب إلقاء عَلَيْهِ السَّلَامُ للألواح ليس له تعلقٌ بسياق الآيات ولا مناسبتها، والقول الأول هو الأول.

هذا بغضِّ النظر عن كون أمة محمد ﷺ أفضل الأمم فهي أفضل الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، لكن ليس لهذا تعلق بإلقاء الألواح، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك، أن يكون سبب إلقاء موسى الألواح كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجل، لأن الله جل ثناؤه بذلك أخبر في كتابه فقال: (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ

أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثُمَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ إِنَّمَا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ غَضَبًا عَلَى قَوْمِهِ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي هَذَا قَوْلًا غَرِيبًا، لَا يَصِحُّ إِسْنَادُهُ إِلَى حِكَايَةِ قَتَادَةَ، وَقَدْ رَدّه ابْنُ عَطِيَّةَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ جَدِيرٌ بِالرَّدِّ، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاه قَتَادَةُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَفِيهِمْ كَذَّابُونَ ووَضّاعون وَأَفَّاكُونَ وَزَنَادِقَةٌ.

س: وأورد بعض المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية حديثًا عن رسول الله ﷺ فيه «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»، فهل هو صحيحن وما لفظة؟

ج: حديث: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ؛ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ»(١) حديث صحيح الإسناد.

س: أخذ بعض العلماء من إلقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الألواح بعض الأحكام الفقهية، اذكر بعض هذه الأحكام؟

ج: أخذ العلماء من هذا مسائل تتعلق بالغضب فبعض أهل العلم لا يوقع طلاق الغضبان غضبًا شديدًا من أجل هذا، ووجه ذلك: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ألقى الألواح،وهذا أمرٌ عظيمٌ بلا شك، ولكنه ألقاها وقت غضبه الشديد لما وجد قومه يعبدون العجل، فعفي له عن ذلك، قالوا: فمن ثَمَّ لا يقع طلاق الغضبان غضبًا شديدًا أفقده التحكم في عقله وتصرفه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾.

ج: ذلك، والله تعالى أعلم، أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رجع إلى قومه غضبان غضبًا شديدًا، حزينًا كذلك لكونهم عبدوا العجل واتخذوه إلهًا حزن من أخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ ووجد في نفسه عليه ظنًّا منه أن قصَّر في نصحهم وتذكيرهم ونهيهم، كما قال: ﴿يَـٰهَـٰرُونُ

(١) أخرجه ابن حيان (بذل الإحسان ١٤/٦٢١٤) والحاكم (٣٨٠/٢) وكذا أحمد (٢١٥/١، ٢٧١) وغيرهم.

مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ فحينئذ أقبل على هارون عليه السلام فأمسكه من لحيته ورأسه يجره إليه، كما في الآية الكريمة:

﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾، وكما ها هنا: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾.

قال الطبري رحمه الله:

وأما قوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾، فإن ذلك من فعل نبي الله ﷺ كان لموجدته على أخيه هارون في تركه أتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل ثناؤه مخبراً عن قيل موسى عليه السلام له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣]، حين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قيله لموسى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤]، وقال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الآية.

أما القرطبي رحمه الله: فقد أورد أقوالًا أُخر في هذا المقام فقال:

وللعلماء في أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات:

الْأَوَّلُ- أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُتَعَارَفًا عِنْدَهُمْ، كَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ مِنْ قَبْضِ الرَّجُلِ عَلَى لِحْيَةِ أَخِيهِ وَصَاحِبِهِ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الْإِذْلَالِ. الثَّانِي- أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِيُسِرَّ إِلَيْهِ نُزُولَ الْأَلْوَاحِ عَلَيْهِ، لِأَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمُنَاجَاةِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْفِيَهَا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ التَّوْرَاةِ. فَقَالَ لَهُ هَارُونُ: لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي، لِئَلَّا يُشْتَبَهَ سِرَارُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِإِذْلَالِهِ. الثَّالِثُ- إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ هَارُونَ مَائِلٌ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ أَمْرِ الْعِجْلِ. وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ. الرَّابِعُ- ضَمَّ إِلَيْهِ أَخَاهُ لِيَعْلَمَ مَا لَدَيْهِ، فَكَرِهَ ذَلِكَ هَارُونُ لِئَلَّا يَظُنَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ أَهَانَهُ، فَبَيَّنَ لَهُ أَخُوهُ أَنَّهُمُ اسْتَضْعَفُوهُ، يَعْنِي عَبَدَةَ الْعِجْلِ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ أَيْ قَارَبُوا. فَلَمَّا سَمِعَ عُذْرَهُ قَالَ: (رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى)، أَيِ اغْفِرْ لِي مَا كَانَ مِنَ الْغَضَبِ الَّذِي أَلْقَيْتُ مِنْ أَجْلِهِ الْأَلْوَاحَ، وَلِأَخِي لِأَنَّهُ ظَنَّهُ مُقَصِّرًا فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ تَقْصِيرٌ، أَيِ اغْفِرْ لِأَخِي إِنْ قَصَّرَ.

قلت:

وما قاله الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر تمشيًا مع السياق وأصوب، والله أعلم.

س: لماذا قال ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ولم يقل: ابن أبي؟

ج: قال العلماء: إن ذلك أشد استدرارًا للعطف والرحمة، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل: إن هارون إنما قال لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (يا ابن أم)، ولم يقل (يا ابن أبي) وهما الأب واحدٍ وأم واحدة استعطافًا له على نفسه برحم الأم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما قال: (ابن أم) لتكون أرأف وأنجع عنده،وإلا فهو شقيقة لأمه وأبيه.

وقال القرطبي:

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ وكان ابن أمه وأبيه، ولكنها كلمة لينٍ وعطفٍ.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ج: هذا استعطاف من نبي الله هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبيانٌ لعذره أمام أخيه نبي الله وكليمه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال مستعطفًا مُذكرًا بالرحم التي تربطهما وبالآخوة لأمٍ التي أقرب في الاسترحام والاستعطاف: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾ أي: رأوني ضعيفًا فاستذلوني ولم يبالوا بقولي، بل ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ لما أصرت على تذكيرهم ونهيهم، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فلا تجعل أعدائي وأعداءك مسرورين بما يحدث لي من أذى من قِبَلَكَ إن أنت آذيتني، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولا تأخذني بجريرة هؤلاء فتعاقبني كما يُعاقبون فأنا لم أعبد العجل ولم أقرهم بحالٍ من الأحوال على عبادته، والله أعلم.

س: في الآيات المباركات ما يدل على أن أهل الفضل والصلاح، بل الأنبياء لهم اعداء، وضح هذا مع مزيدٍ من الاستدلالات.

ج: من الأدلة على هذا قول هارون لموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فدل عل أن هناك أعداءٌ لموسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

وكذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: (لم يأت أحدٌ قطّ بمثل ما جئت به إلا عُودِي).

والأدلة في هذا الباب كثيرة جدًّا.

س: هل ورد حديث في التعوذ بالله من شماته الأعداء؟

ج: نعم، قد ورد هذا في الصحيح وغيره، ففيه من طريق سفيان حدثني سُميٌّ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يتعوَّذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء (١).

قال سفيان: الحديث ثلاث زدتُ أنا واحدة لا أدري أيتهن هي.

قلت (مصطفى):

قد أشار بعض أهل العلم إلى أن هذه الواحدة هي شماتة الأعداء، أي أن الحديث بدون هذه الزيادة، ولمزيدٍ انظر ما قاله الحافظ في «الفتح» عند شرحه لهذا الحديث.

س: وضح معنى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ج: هذا دعاءٌ وسؤال من موسى عليه السلام لربِّه ﷻ أن يغفر له ولأخيه وأن يدخلهما برحمته مع عبادة المرحومين.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال موسى، لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله، في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾، مستغفرًا من فعله بأخيه، ولأخيه من سالفٍ سلف له بينه وبين الله:

(١) البخاري (مع الفتح ١١/١٤٨) ومسلم (مع النووي ١٧/ص ٣٠).

تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها بـه ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾، يقـول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئًا.

س: هـل كـان هـارون عليه السلام أذنـب حتـى قـال موسـى عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾؟

ج: الظاهر، والله أعلم، أن ذلك تواضعًا مـن موسـى عليه السلام لربِّه عز وجل، وهكـذا شـأن المتقين.

وقد يحتمل أيضًـا أنه سـأل المغفـرة لمـا عسـاه أن يكـون قـد صـدر مـن قصـور في النصح والتذكير والإنكار على بني إسرائيل، ولكنه أبعد من الأولى.

وأيضًا قد يحتمل أن يكون سأل عمـوم مغفـرة الـذنوب لـه ولأخيـه هـارون عليهما السلام. والله أعلم.

س: ما المراد بالغضب ها هنا، وما المراد بالذلة؟

ج: قال بعض أهل العلم المراد بالغضب ها هنا العقوبة، فلم تقبل توبتهم بمجرد الاستغفار، بل أُمروا أن يقتل بعضهم بعضًا كما قـال تعـالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، وأما المراد بالذلة فالهوان الذي لحقهم من جراء فعلهم، وما نالهم من قتل بعضهم بعضًا، وما وسموا به بعد ذلك من غيرهم.

وقال آخرون: إنها الجزية التي فرضت عليهم.

كذا قال بعض أهل العلم، وثَمَّ أقوالٌ أُخر والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

ج: المراد، والله أعلم، ان كلَّ مفترٍ يجازيه الله عز وجل بالغضب والذِّلَّة، كل مفترٍ يُذله الله ويهينه ويعاقبه.

قال أبو قلابة[١]: هو جزاء كلِّ مفترٍ يكون إلى يوم القيامة أن يُذله الله عز وجل.

وقد قال كثيرٌ من أهل العلم عندَ تفسير هـذه الآيـة: إن كـلَّ مبتدعٍ تعلـوه الذلة

(١) أخرج ذلك الطبري (١٥١٥٨) بسندٍ صحيح عنه.

وتصاحبه، فكل مبتدعٍ ذليل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويعني بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾، وكما جَزيت هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهًا، من إحلال الغضب بهم، والإذلال في الحياة الدنيا على كفرهم ربّهم، ورِدَّتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك نجزي كل من افترى على الله، فكذب عليه، وأقر بألوهية غيره، وعبد شيئًا سواه من الأوثان، بعد إقراره بوحدانية الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسله وقِيلَ ذلك، إذا لم يتب من كفره قبل قتله.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾.

ج: هذا إخبارٌ من الله ﷻ مصاحب بالتهديد لمن عبدوا العجل، ومن سار على نهجهم وسلك طريقهم فيقول تعالى ما معناه: إن الذين اتخذوا العجل إلهًا يعبدونه من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾ من جراء هذا الذنب الذي أذنبوا والجرم الذي ارتكبوا والشرك والكفر الذي وقعوا فيه ﴿غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ عقوبة على صنيعهم هذا ﴿وَذِلَّةٞ﴾ وذلٌّ وهوان: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ قبل الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ وبمثل هذا الجزاء وتلك العقوبة نجزي، نعاقب كل من افترى وكذب على الله وعبد مع الله إلهًا آخر.

س: كثيرًا ما يُخرج إلى التعميم بعد التخصيص في كتاب الله ﷻ وضح ذلك مع بيان الفائدة منه.

ج: نعم، كثيرًا ما يُخرج إلى التعميم من التخصيص حتى لا تقف العقوبات والجزاءات والإثابات على من ذُكروا بل تتعداهم إلى غيرهم، فإذا كان ثَمَّ طالحون ذكرهم الله وذكر ما حلَّ بهم يُذكرنا الله ﷻ بعد ذلك بأن العقوبة التي حلَّت بهم لا تقف عليهم بل تتعداهم إلى غيرهم ممن صنع صنعهم، وقد يكون وجه الشبه متعلقًا بالعقوبة نفسها، وقد يكون متعلقًا بأصلها، أي أنهم سيعاقبون كما عوقبت غيرهم،

بغض النظر على تشابه العقوبة، والله أعلم.

وكذا الصالحون الشاكرون، وما تفضل الله به عليهم من إجابة دعائهم ومن إنجائهم ورفعة درجاتهم لا يقف الأمر- أمر الإثابة والجزاء عليهم - بل من صنع صنيعهم يثاب هو الآخر.

۞ وكل ذلك من فوائده أن يُجدَّ المجدون في الطاعات، وأن يحذر الحذِرون من المعاصي وارتكاب المحرمات.

أما الأدلة على ما ذكر عمومًا فمنها ما يلي:

قوله تعالى في شأن قوم لوط وما أصابهم من جرَّاء عصيانهم من الحجارة التي نزلت عليهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ إشارة إلى أن العقوبة ليست ببعيدة عن كل ظالم سلك مثل هذا المسلك.

وقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ).

وكذا في باب الحسنات والإثابات:

قوله تعالى في شأن نبيه نوح عليه السلام وما منَّ به عليه من الإنجاء وإهلاك من عانده: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ وكذا قوله تعالى بعد ذكر نبيه موسى عليه السلام وكذا نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وكذا بعد ذكر نبيه أيوب عليه السلام وما منَّ عليه به من الشفاء: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ والأدلة في هذا الباب كثيرة جدًّا.

فتح أبواب التوبة أمام الجنة و العصاة

س: كثيرًا وبعد ذكر العقوبات-تفتح أبواب التوبة أمام التائبين حتى يرجع من عصى إلى طاعة ربه ﷻ دلّل على ذلك.

ج: الأدلة على ذلك كثيرة جدًّا في كتاب الله ﷻ منها قوله تعالى بعد أن ذكر ما أُعدَّ لعبدة العجل من العقوبة ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

وقوله تعالى في شأن الذين خدُّوا الأخاديد لأهل الإيمان وقذفوها فيها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ ﴾ أي: أنهم لو تابوا تاب الله عليهم.

وقوله تعالى في شأن تاركي الصلاة الذين جاءوا بعد القوم الصالحين، واتبعوا الشهوات: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾.

وكذا بعد ذكر أهل الشرك والقتلة والزناة ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾.

وكذا قوله تعالى في الأعراب الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

والآيات في هذا الصدد كثيرة جدًّا.

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والذين ارتكبوا المحرمات من المعاصي والمآثم وغير ذلك مما يسوء صاحبه وتسوؤه عقوبته من شك وكفر وفسق وظلم، ثم رجعوا إلى الله ﷻ وندموا على ما صنعوا وأخلصوا في توبتهم فإن الله ﷻ قابلٌ لتوبتهم غافرٌ

لذنوبهم وسائرٌ عليهم صنيعهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابلٌ من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرةً كانت معصيته أو كبيرةً، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قَبِلَ من عَبَدَة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل وارتدادهم عن دينهم.

يقول جل ثناؤه: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضى الله بإنابتهم إلى ما يحب مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط، من بعد سيئ أعمالهم، وصدَّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين، وتائبٌ على المنيبين، بإخلاص قلوبهم ويقين منهم بذلك (لَغَفُورٌ)، لهم، يقول: لساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها (رَّحِيمٌ)، بهم، وبكل من كان مثلهم من التائبين.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– ولما سكن غضب موسى على قومه، وهدأ عليه الصلاة والسلام واستقرت نفسه أخذ الألواح التي كان قد ألقاها فإذا به يجد المكتوب فيها هدى من الضلالات وإنقاذًا، وفيها أيضًا بيان لما يرحم الله به العباد وينجيهم به إن هم فعلوه وامتثلوه، ولكن هذه الهداية وتلك الرحمة لم يكن لينتفع بها إلا الذين يخافون الله ويمتثلون أمره ويجتنبون نواهيه، الشأن في ذلك شأن القرآن؛ إذ الله قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ).

قَالَ تَعَالَى:

وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ
ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ
وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ
ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ
إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي
وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ
ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ
يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي
كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ
ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ
ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ
١٥٨

الكلمة	معناها

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾	واختار موسى من قومه.
﴿لِّمِيقَـٰتِنَا﴾	للوقت والأجل الذي وعده الله أن يأتيه فيه.
﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾	الزلزلة التي أهلكتهم- رجفةٌ حلَّت بهم فماتوا بسببها.
﴿فِتْنَتُكَ﴾	اختبارك-ابتلاؤك- عذابك.
﴿وَلِيُّنَا﴾	ناصرنا.
﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾	فاستر علينا ذنوبنا بتركك عقابنا.
﴿وَٱرْحَمْنَا﴾	تعطف علينا برحمتك.
﴿خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾	خيرُ من صفح عن جُرْمٍ وستر على ذنبٍ.
﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾	أثبت لنا (في صحائفنا) - أوجب لنا.
﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾	تبنا إليك- رجعنا إليك.
﴿يُؤْمِنُونَ﴾	يصدقون.
﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾	الذي لا يقرأ ولا يكتب.
﴿إِصْرَهُمْ﴾	العهود والمواثيق الثقيلة التي أُخذت عليهم على لسان أنبيائهم.
﴿وَٱلْأَغْلَـٰلَ﴾	الأثقال والأحكام الثقيلة الشاقة.
﴿وَعَزَّرُوهُ﴾	وَقَّروه- دافعوا عنه- أعانوه.
﴿وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾	آياته (قيل: منها عيسى ابن مريم فهو: كلمة الله، وقيل: التوراة والإنجيل والزبور والكتب التي أنزلها الله عمومًا).

موقف آخر لموسى عليه السلام مع بني إسرائيل

س: لماذا اختار موسى عليه السلام سبعين رجلًا من قومه؟

ج: قال بعض أهل العلم: اختارهم موسى عليه السلام كي يخرج بهم في الموعد الذي وعده ربُّه أن يأتي فيه كي يستغفروا الله عز وجل من الذنب العظيم الذي وقع فيه بعضهم بعبادتهم العجل واتخاذه إلهًا.

۞ وقال آخرون: بل خرج بهم لدعاء ربهم عز وجل وسؤاله وتلقي الأوامر والنواهي.

۞ وذكر البعض أثرًا وشبير (رجلان) فانطلقوا إلى سفح جبل فنام هارون عليه السلام فمات فرجع موسى عليه السلام إلى قومه فسألوه عن هارون عليه السلام قال: توفاه الله، قالوا: أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه، قال: فاختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلًا......الأثر.

وهذا الأخير يبدو عليه الضعف، ففي سنده عمارة بن عبد السلولي لا يرتقي حديثه للحسن، ثم إن الأثر فيه أن موسى عليه السلام قال لهم: اختاروا من شئتم، والآية فيها واختار موسى قومه سبعين رجلًا.

فالذي يظهر: أن القول الأول والثاني أقوى من الأخير، والله أعلم.

س: ما المراد بالميقات المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا﴾؟

ج: قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وفي هذا الميقات أربعة أقوال:

أحدها: أنه الميقات الذي وَقَّتَهُ الله لموسى ليأخذ التوراة، أُمر أن يأتيَ معه بسبعين، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال نوف البِكَاليُّ.

والثاني: أنه ميقات وَقَّتَهُ الله تعالى لموسى، وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلا ليدعوا ربّهم، فدعوا فقالوا: اللهمّ أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا، ولا تعطيه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك، وأخذتهم الرجفة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: أنه ميقات وَقَّتَهُ الله لموسى، لأن بني إسرائيل قالوا له: إن طائفة تزعم أن

الله لا يكلمك، فخذ معك طائفة منا ليسمعوا كلامه فيؤمنوا فتذهب التهمة، فأوحى الله اليه ان أختر من خيارهم سبعين، ثم ارتقِ بهم على الجبل انت وهارون، واستخلف يوشع بن نون، ففعل ذلك قاله وهب بن منبه.

والرابع: أنه ميقات وَقَّتَهُ الله لموسى ليلقاه في ناس من بني إسرائيل، فيعتذر إليه من فِعْل عبدة العجل، قاله السدي. وقال ابن السائب: كان موسى لا يأتي ربّه إلا بإذن منه.

س: لماذا أخذتهم الرجفة؟

ج: قال بعض أهل العلم: إنما أخذتهم الرجفة؛ لأنهم سألوا الهل ﷻ ما ليس لهم، وكان مما ذُكر في هذا الصدد- ولا يثبت له سند عن رسول الله ﷺ أنهم قالوا: اللهم أعطنا ما لم تُعطه احدًا قبلنا ولا أحدًا بعدنا.

۞ وقال آخرون: إن الرجفة أخذتهم لكونهم طلبوا أن يروا الله ﷻ جهرةً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وهذا القول الأخير أقرب الأقوال -فيما أرى- من الصحة، والله أعلم بالصواب. وثمَّ قول آخر وهو أن الرجفة أخذتهم؛ لأنهم ادعوا على موسى عليه السلام قتل أخيه هارون، وقد بينت من قبل ضعف هذا الوجه والله أعلم.

س: وضح معنى قوله نبي الله موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ وما المستفاد من ذلك؟

ج: المعنى، والله تعالى يا رب لوشئت أهلكتني وهؤلاء السبعين من قبل أن نأتي لتكيمك في هذا المكان.

أما المستفاد من ذلك- كما أشار إليه بعض أهل العلم- هو أن موسى عليه السلام أراد أن يدفع عن نفسه الشبهة، فقد يتهم بأنه قتل السبعين، فقال من ثَمَّ: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي.

س: وضح معنى قول نبي الله موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

ج: قال بعض أهل العلم: هذا معناه: لا تهلكنا بفعل السفاء منا، فالمعنى الدعاء والطلب.

وقيل: المعنى إنك يا رب لا تفعل ذلك، وكأن الأولى أولى، والله أعلم.

س: من هؤلاء السفهاء؟ وماذا فعلوا؟

ج: قيل: إن السفاء هم عبدة العجل.

وقيل: إنهم الذين اتهموا موسى بقتل هارون.

وقيل: إنهم الذين سألوا موسى أن يريهم الله جهرةٌ.

وقيل: إنهم من السبعين.

وقيل: هم الساكتون عن تغيير المنكر لما راوه.

سكتوا عن النهي عن المنكر لما وجدوا القوم يعبدون العجل، والله أعلم.

وقيل: إن السبعين عوقبوا لكونهم لم يزايلوا المنكر حين رأوه (أي لم يتركوا مكان المنكر.....).

س: هل يردُ أن قومًا يجالسون أهل المعاصي فيحل عليهم عقابٌ كالذي يحلُّ بأهل المعاصي أم أن هذا غير وارد؟

ج: قد يرد ذلك، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وسُئِلَ النبيُّ ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»(١).

س: وضح معنى قول موسى عليه السلام: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ ﴾.

ج: قال كثير من أهل العلم: إن المعنى إن هذه الفَعْلَة التي فعلها قومي، وهي عبادتهم العجل إلا ابتلاء منك واختبار تضل بها من تشاء وتصرفه عن طريق الحق وتزيغه، وتهدي من تشاء على عبادتك وحدك لا شريك لك.

(١) البخاري (حديث ٧٠٥٩) ومسلم (٢٨٨٠).

هذا، وقد قال آخرون من أهل العلم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ إن هذا إلا عذابك تعذِّب به من تشاء وتهدي من تشاء، إلا أن القول الأول أشهر وعليه الأكثر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أَي: ابْتِلَاؤُكَ وَاخْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَرَبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَلَا مَعْنَى لَهُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ يَقُولُ: إِنِ الأمرُ إِلَّا أمرُك، وَإِنِ الحكمُ إِلَّا لَكَ، فَمَا شِئْتَ كَانَ، تَضِلُّ مَنْ تَشاءُ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِل لِمَنْ هَدَيت، وَلَا مُعطِي لِمَا مَنَعت، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، فَالْمُلْكُ كُلُّهُ لَكَ، وَالْحُكْمُ كُلُّهُ لَكَ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: ما هذه الفعلة التي فعلَها قومي، من عبادتهم ما عبَدُوا دونك، إلا فتنة منك أصَابتهم= ويعني ب"الفتنة"، الابتلاء والاختبار يقول: ابتليتهم بها، ليتبين الذي يضلَّ عن الحق بعبادته إياه، والذي يهتدي بترك عبادته. وأضاف إضلالهم وهدايتهم إلى الله، إذ كان ما كان منهم من ذلك عن سببٍ منه جل ثناؤه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أَيْ مَا هَذَا إِلَّا اخْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ.

وَأَضَافَ الْفِتْنَةَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يُضِفْهَا إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فَأَضَافَ الْمَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ وَالشِّفَاءَ إِلَى اللهِ تَعَالَى: وَقَالَ يُوشَعُ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وَإِنَّمَا اسْتَفَادَ ذَلِكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قوله تعالى له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥].

فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ وَرَأَى الْعِجْلَ مَنْصُوبًا لِلْعِبَادَةِ وَلَهُ خُوَارٌ قَالَ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا﴾ أَيْ بِالْفِتْنَةِ. ﴿مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ وهذا رد على القدرية.

س: اذكر بعض أقوال أهل العلم في تفسير قول موسى عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله:

وقوله: (أَنتَ وَلِيُّنَا)، يقول: أنت ناصرنا.(فَاغْفِرْ لَنَا)، يقول: فاستر علينا ذنوبنا بتركك عقابنا عليها(وَارْحَمْنَا)، تعطف علينا برحمتك (وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)، يقول: خير من صَفَح عن جُرم، وسَتر على ذنب.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وَقَوْلُهُ: (أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) الغَفْر هُوَ: السَّتْرُ، وَتَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا قُرِنَتْ مَعَ الْغَفْرِ، يُرَادُ بِهَا أَلَّا يُوقِعَهُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، (وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) أَيْ: لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ) هُنَاكَ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ مِنَ الدُّعَاءِ دَفْعُ الْمَحْذُورِ، وَهَذَا لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ.

س: ما المراد بالحسنة في قول موسى عليه السلام: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؟

ج: قال كثير من العلماء: إن المراد بها الأعمال الصالحة مع قول: لا إله إلا الله.

س: وضح معنى قوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

ج: المعنى، الله تعالى أعلم، وفقنا للأعمال الصالحة التي تكتب لنا بها حسنات وأثبت لنا جزاءها حتى نلقاه في الآخرة.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله عز وجل يخبر أنه يعذب بعذابه من يشاء من خلقه لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه فهو يفعل ما يريد ويقضي بما يشاء ، والله أعلم.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

ج: قال بعض أهل العلم: إن هذه الرحمة في الدنيا على العموم، أما في الآخرة

فمخصوصة بالمؤمنين.

ويشهد لهذا المعنى ما أخرج مسلم من حديث سلمان الفارسيِّ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية أُخرى عند مسلم: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»[1].

قال ابن كثير:

وقوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم؛ كقوله تعالى إخبارًا عن حَمَلَة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

۞ ومن العلماء من قال: إن مخرج الآية عام، لكن المراد منه أمة محمد ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وقد أورد الطبري ها هنا آثارًا منه ما صح عن قتادة في قوله: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، فقال إبليس: أنا من ذلك «الشيء»! فأنزل الله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ معاصي الله، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فتمنتها اليهود والنصارى، فأنزل الله شرطًا وثيقًا بيِّنًا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، فهو نبيُّكم، كان أميًّا لا يكتُب ﷺ.

وثمَّ قولٌ ثالث: ألا وهو أن المراد بالرحمة هنا التوبة، وأورد الطبري بإسناد حسن عن ابن زيد في قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، فقال: سأل موسى هذا، فقال الله: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ العذاب الذي ذكر ﴿وَرَحۡمَتِي﴾، التوبةُ ﴿وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾

(١) مسلم (٢٧٥٣).

فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، قال: فرحمته التوبةُ التي سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كتبها الله لنا.

وأما قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فإنه يقول: فسأكتب رحمتي التي وسعت كل شيء= ومعنى «أكتب» في هذا الموضع: أكتب في اللوح الذي كُتِب فيه التوراة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يقول: للقوم الذين يخافون الله ويخشون عقابه على الكفر به والمعصية له في أمره ونهيه، فيؤدُّون فرائضه، ويجتنبون معاصيه.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

أحدها: أن مخرجه عام ومعناه خاص، وتأويله: ورحمتي وسعت المؤمنين من أمّة محمّد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، قاله ابن عباس. والثاني: أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا، والخصوص في الآخرة وتأويلها: ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا، البرَّ والفاجر، وفي الآخرة هي للمتقين خاصة، قاله الحسن، وقتادة. فعلى هذا، معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يُرزق ويُدفع عنه، كقوله في حقّ قارون: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: ٧٧].

والثالث: أن الرحمة: التوبة، فهي على العموم، قاله ابن زيد.

والرابع: أن الرحمة تَسَع كل الخلق إلا أن أهل الكفر خارجون منها، فلو قدِّر دخولهم فيها لوسعتهم، قاله ابن الانباري. قال الزجاج: وسعت كل شيء في الدنيا.

شيء من صفة أمة محمد ﷺ وفضل نبيهم الكريم محمد ﷺ

س: قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يتقون ماذا؟

ج: قيل: يتقون الشرك.

وقيل: يتقون المعاصي ويتقون الشرك.

وقد قال بعض العلماء: إن المراد بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أمة محمد ﷺ.

بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ والنبي الأمي هو رسول الله محمد ﷺ.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: لما قيل: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ

(١) الطبري بإسنادٍ حسن إلى قتادة (١٥٢٣٤).

هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تمنتها اليهود والنصارى فأنزل الهل شرطًا بيِّنًا وثيقًا فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ وهو نبيُّكم ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

س: المراد بالزكاة في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد زكاة الأموال، وهذا قول الجمهور.

الثاني: وأن المراد طاعة الله ورسوله، وتزكية النفس وطهارتها من الشرك والمعاصي.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾.

ج: معناه والمراد به: أن النبي ﷺ مكتوبٌ في التوراة والإنجيل أنه سيخرج رسولًا نبيًّا إلى الناس، موصوفًا في التوراة موصوفًا في الإنجيل، وكذا موصوفة أمته في التوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ ﴾.

۞ وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري والطبري وغيرهما من طريق عطاء ابن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِي فِي القُرْآنِ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»(١).

س: ما المراد بالمعروف هنا، وما المراد بالمنكر؟

ج: أعظم المعروف الإيمان بالله ورسله والامتثال لأمر الله ﷻ وأعظم المنكر هو

---

(١) البخاري (٤٨٣٨/٢١٢٥)، والطبري (١٥٢٣٦).

الشرك بالله ثم الكبائر والموبقات، وارتكاب ما نهى الله عنه وما نهت عنه رسله عليهم الصلاة والسلام. والله أعلم.

س: هل كانت الطِّيبات محرمةً حتى قبل: يحلُّ لهم الطيبات؟

ج: في ذلك وجوه:

أحدها: أن المراد بالطيبات هي الأنعام التي أحلها الله، فقد كان المشركون حرموها على أنفسهم، فقالوا: هذه بحيرةٌ وتلك سائبةٌ، وذاك حام، وذلك لأصناف من البقر والإبل تقدم بيانها في سورة المائدة فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

الثاني: أن المراد تحليل ما قد حُرِّم على بني إسرائيل بذنوبهم، فقد قال تعالى: (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ).

س: هل الطيبات المراد بها الطيبات من جهة كونها حلال أم أنها طيبات لطيب طعمها؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدها: أنها الطيبات لكونها حلال والآخر لكونها حلال بضميمة أُخرى وهي طيب طعمها.

قال القرطبي في «تفسيره»:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ) مَذْهَبُ مَالِكٍ أَنَّ الطَّيِّبَاتِ هِيَ الْمُحَلَّلَاتُ، فَكَأَنَّهُ وَصَفَهَا بِالطِّيبِ، إِذْ هِيَ لَفْظَةٌ تَتَضَمَّنُ مَدْحًا وَتَشْرِيفًا. وَبِحَسَبِ هَذَا نَقُولُ فِي الْخَبَائِثِ: إِنَّهَا الْمُحَرَّمَاتُ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْخَبَائِثُ هِيَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَالرِّبَا وَغَيْرُهُ. وَعَلَى هَذَا حَلَّلَ مَالِكٌ الْمُتَقَذَّرَاتِ كَالْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ وَالْخَنَافِسِ وَنَحْوِهَا. وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الطَّيِّبَاتِ هِيَ مِنْ جِهَةِ الطَّعْمِ، إِلَّا أَنَّ اللَّفْظَةَ عِنْدَهُ لَيْسَتْ

عَلَى عُمُومِهَا، لِأَنَّ عُمُومَهَا بِهَذَا الْوَجْهِ مِنَ الطَّعْمِ يَقْتَضِي تَحْلِيلَ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ، بَلْ يَرَاهَا مُخْتَصَّةً فِيمَا حَلَّلَهُ الشَّرْعُ. وَيَرَى الْخَبَائِثَ لَفْظًا عَامًّا فِي الْمُحَرَّمَاتِ بِالشَّرْعِ وَفِي الْمُتَقَذَّرَاتِ، فَيُحَرِّمُ الْعَقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَالْوَزَغَ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى. وَالنَّاسُ عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وفي الطيبات أربعة أقوال:

أحدها: أنها الحلال، والمعنى يُحل لهم الحلال.

والثاني: أنها ما كانت العرب تستطيبه.

والثالث: أنها الشحوم المحرَّمة على بني إسرائيل.

والرابع: ما كانت العرب تحرِّمه من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام).

س: ما المراد بالخبائث؟ وهل كانت حلالًا؟ هل قيل: ويحرم عليهم الخبائث؟

ج: لم تكن الخبائث حلالًا، وإنما كان القوم قد استحلوها فأحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير، وكلها خبيثة، فحرمها الله ﷻ على لسان نبيه محمد ﷺ فيما أنزل عليه من كتاب.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وفي الخبائث ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الحرام، والمعنى: ويحرِّم عليهم الحرام.

والثاني: أنها ما كانت العرب تستخبثه ولا تأكله، كالحيات، والحشرات.

والثالث: ما كانوا يستحلُّونه من الميتة والدم، ولحم الخنزير.

س: وضح المراد بـ ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

ج: المراد الأثقال التي كانت عليهم من التكاليف الشاقة التي كلفوا بها فأورثهم عدم الوفاء بها وعدم القيام بها وزرًا، فحملوا أوزارًا وأثقالًا لاقترافهم كبائر الذنوب بانتهاكهم حرمات الله وعدم قيامهم بما كلفوا به.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال، ومن الأثقال ترك الاشتغال يوم السبت؛ فإنه يُروى أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى يوم السبت رجلًا يحمل قصبًا فضرب عنقه.

هذا قول جمهور المفسرين: ولم يكن فيهم الدِّية، وإنما كان القصاص. وأُمروا بقتل أنفسهم علامة لتوبتهم، إلى غير ذلك. فشبه ذلك بالأغلال؛ كما قال الشاعر:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ

وَعَادَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ ... سِوَى الْحَقِّ شَيْئًا وَاسْتَرَاحَ الْعَوَاذِلُ

فشبه حدود الإسلام وموانعه عن التخطِّي إلى المحظورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب. ومن هذا المعنى قول أبي أحمد بن جحش لأبي سفيان:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا ... طُوِّقْتَهَا طَوقَ الحَمَامَهْ

أي: لزمك عارها. يقال: طوَّق فلان كذا إذا لزمه.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما: ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، فكان ابن زيد يقول بما:

(وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ)، قال: (وَٱلۡأَغۡلَٰلَ) قرأ: (غلت أيديهم)[المائدة:٦٤]

قال: تلك الأغلال. قال: ودعاهم إلى أن يؤمنوا بالنبيِّ فيضع ذلك عنهم.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

ج: المراد بقوله تعالى: ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾ أي: عهدهم وميثاقهم، وهذا يحتمل أمرين:

أولهما: ما أُخذ عليهم من العهود الشديدة والمواثيق الأكيدة على بعض الأعمال التي فيها مشقةً عليهم كقتل أنفسهم ككفارة من الذنب الذي ارتكبوه بعبادة العجل.

أو ما كان من شأن القصاص فلم تكن عندهم الدِّية بل كان من قتل يُقتل، وكالذي نقل عن بني إسرائيل من أن البول إذا أصاب جلد أحدهم قرضه بالمقْرَاضِ، وكتحريم العمل يوم السبت. ونحو ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

الثاني: ما كانوا قد ألزموا به أنفسهم إذ عاهدوا الله عهودًا ثقيلة عليهم فلم يفوا بها.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ) الإصر: الثقل، قال مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُبَيْرٍ.

وَالْإِصْرُ أَيْضًا: الْعَهْدُ، قال ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ.

وَقَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْمَعْنَيَيْنِ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ كَانَ أُخِذَ عَلَيْهِمْ عَهْدٌ أَنْ يَقُومُوا بِأَعْمَالٍ ثِقَالٍ، فَوُضِعَ عَنْهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ذَلِكَ الْعَهْدُ وَثِقَلُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ، كَغَسْلِ الْبَوْلِ، وَتَحْلِيلِ الْغَنَائِمِ، وَمُجَالَسَةِ الْحَائِضِ وَمُؤَاكَلَتِهَا وَمُضَاجَعَتِهَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَصَابَ ثَوْبَ أَحَدِهِمْ بَوْلٌ قَرَضَهُ.

وَرُوِيَ: جِلْدُ أَحَدِهِمْ. وَإِذَا جَمَعُوا الْغَنَائِمَ نَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْهَا، وَإِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ لَمْ يَقْرَبُوهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَغَيْرِهِ.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ "الإصر" هو العهد وقد بينا ذلك بشواهده في موضع غير هذا بما فيه الكفاية وأن معنى الكلام: ويضع النبيُّ الأميُّ العهدَ الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل، من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضةً، فنسخها حُكْم القرآن.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

وفي هذا قولان:

أحدهما: أنه العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة، قاله ابن عباس.

والثاني: التشديد الذي كان عليهم من تحريم السّبت، والشّحوم والعروق، وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله قتادة. وقال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب، فيصبح وقد كُتب على باب بيته: إن كفارته أن تنزِع عينيك، فيْنزِعهُما.

قوله تعالى: (وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ) قال الزجاج: ذِكر الأغلال تمثيل، ألا

ترى أنك تقول: جعلت هذا طوقًا في عنقك، وليس هناك طوق، إنما جعلت لزومه كالطوق. والأغلال: أنه كان عليهم أن لا يُقبَل منهم في القتل دية، وأن لا يعملوا في السبت، وأن يَقْرِضُوا ما أصاب جلودهم من البول.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن هذا النبي الكريم ﷺ أرسله الله ﷻ يحل الطيبات التي حرمها أقوامٌ على أنفسهم، ويحرِّم الخبائث التي قد أحلها أقوام لأنفسهم وكذا أرسله الله ﷻ بأحكام وشرائع فيها سماحة وتخفيف تنسخ تلك التي كانت شديدة وثقيلة على بني إسرائيل.

وقوله: (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) أي: أنه جاء بالتيسير والسماحة؛ كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله، ﷺ، أنه قال: «بُعِثْتُ بِالحنيفِيَّةِ السَّمحَةِ»(١).

وقال ﷺ لأميريْهِ معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»(٢).

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره.

وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ»(٣). وقال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه»(٤).

ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ

(١) في أسانيده مقال، ولكن معناه صحيح انظر مسند أحمد (٤/ ١٦-١٧ ط. أرنؤوط).
(٢) البخاري (٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣).
(٣) البخاري (٦١٦٨) و(٢٥٢٨)، ومسلم (٢٦٤٠)، (١٢٧).
(٤) في أسانيده مقال ولمعانيه شواهد. انظر بعض طرقه عند ابن ماجه (٢٠٤٣) (٢٠٤٥).

وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ).

وثبت في «صحيح مسلم»: أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه «قَدْ فَعَلْتُ قَدْ فَعَلْتُ»[(١)].

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عظموه ووقروه ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

س: وضح المراد بالنور الذي أُنزل معه؟

ج: المراد به القرآن وكذا الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ مبلغًا عن ربه ﷻ.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، فالذين صدقوا هذا الرسول الكريم النبي الأمي الأمين محمد ﷺ وأقروا له بالرسالة ودافعوا عنه وحموه من عدوه وجاهدوا معه حتى انتصر واتبعوا القرآن وأسلموا هم الفائزون بالجنة والناجون من النار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، فالذين صدَّقوا بالنبي الأمي وأقرُّوا بنبوَّته، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، يقول: وقَّروه وعظموه وحَمَوْهُ من الناس.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (وَنَصَرُوهُ)، يقول: وأعانوه على أعداء الله وأعدائه، بجهادهم ونصب الحرب لهم (وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ)، يعني القرآن والإسلام (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)، يقول: الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصف بها جل ثناؤه أتباع محمد ﷺ، هم المنجحون المدرِكون ما طلبُوا ورجَوْا بفعلهم ذلك.

حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: فما نقموا-

---

(١) مسلم (حديث ١٢٦).

يعني اليهود- إلا أن حسدوا نبيَّ الله، فقال الله:(فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ) فأما نصره وتعزيره فقد سبقتم به، ولكن خياركم من آمن بالله واتَّبع النور الذي أنزل معه.

يريد قتادة بقوله "فما نَقَموا إلا أن حسدوا نبي الله"، أن اليهودَ كان محمَّد ﷺ بما جاء به من عند الله رحمةً عليهم لو اتبعوه، لأنه جاء بوضع الإصر والأغلال عنهم، فحملهم الحسد على الكفر به، وترك قبول التخفيف، لغلبة خِذْلانِ الله عليهم.

عموم رسالة النبي محمد ﷺ

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

ج: المعنى، الله أعلم، قل يا رسول الله للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم وكان لليهود والنصارى، قل لهؤلاء جميعًا: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا، لست بمبعوث للعرب خاصة بل للناس كلهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ قل لهم: إني رسول الله الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو لا تنبغي أن تكون العبادة إلا له فهو الذي يحي ويميت فصدقوا بآيات الله الذي هذه صفته، وأقروا له بالوحدانية، وكذا صدقوا برسالة نبيه ﷺ ذلكم النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب الذي يصدق بوحدانية الله، وكذا يصدق بكلمات الله ﷻ التي هي آياته، والتي منها أيضًا عيسى ابن مريم عليه السلام، واتبعوا أيها الناس هذا النبي الكريم لعلكم باتباعه تسلكوا السبيل الموصل إلى مرضاة الله ﷻ وإلى جنته.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: (قُل)، يا محمد للناس كلهم(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)، لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرُّسل، مرسلا إلى بعض الناس دون بعض. فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾، من نعت اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ وإنما معنى الكلام: قل: يا أيها الناس إني رسول الله، الذي له ملك السموات والأرض، إليكم.

ويعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الذي له سلطان السَّموات والأرض وما فيهما، وتدبير ذلك وتصريفه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يقول: لا ينبغي أن تكون الألوهة والعِبادة إلا له جل ثناؤه، دون سائر الأشياء غيره من الأنداد والأوثان، إلا لمن له سلطان كل شيء، والقادر على إنشاء خلق كل ما شاء وإحيائه، وإفنائه إذا شاء إماتته ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، يقول جل ثناؤه: قل لهم: فصدِّقوا بآيات الله الذي هذه صفته، وأقِرُّوا بوحدانيته، وأنه الذي له الألوهة والعبادة، وصدقوا برسوله محمد ﷺ أنَّه مبعوث إلى خلقه، داع إلى توحيده وطاعته.

وقال أيضًا:

والصواب من القول في ذلك عندنا، أنَّ الله تعالى ذكره أمرَ عباده أن يصدِّقوا بنبوَّة النبيّ الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، ولم يخصص الخبرَ جل ثناؤه عن إيمانه من "كلمات الله" ببعض دون بعضٍ، بل أخبرهم عن جميع "الكلمات"، فالحق في ذلك أن يعمَّ القول، فإن رسول الله ﷺ كان يؤمن بكلمات الله كلِّها، على ما جاء به ظاهرُ كتابِ الله.

وأما قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فاهتدوا به أيها الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحقّ في اتّباعكم إيّاه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَالْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيْ: جَمِيعُكُمْ، وَهَذَا مِنْ شَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وَالْآيَاتُ فِي هَذَا

كَثِيرَةٌ، كَمَا أَنَّ الْأَحَادِيثَ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ضَرُورَةً أَنَّهُ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ.

وقال الحافظ ابن كثير كذلك:

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صِفَةُ اللهِ تَعَالَى، فِي قَوْلِهِ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ، وَلَهُ الْحُكْمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلۡأُمِّىِّ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلۡأُمِّىِّ﴾ أَيْ: الَّذِي وُعِدْتُمْ بِهِ وَبُشِّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُ مَنْعُوتٌ بِذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أَيْ: يُصَدِّقُ قَوْلَهُ عَمَلُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أَيْ: اسْلُكُوا طَرِيقَهُ وَاقْتَفُوا أَثَرَهُ، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أَيْ: إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

أدلة أخر على عموم بعثة النبي محمد ﷺ

س: اذكر مزيدًا من الأدلة على عموم بعثة النبي ﷺ.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾.

۞ قوله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»(٢).

---

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) مسلم (حديث ٢٤٠).

وما أخرجه البخاري من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رضي الله عنهما، مُحَاوَرَةٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، فَانْصَرَفَ عُمَرُ عَنْهُ مُغْضَبًا، فَأَتْبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رسول الله ﷺ -فقال أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَنَحْنُ عِنْدَهُ -فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فقد غامر**» -أي: غَاضَبَ وَحَاقَدَ -قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخَبَرَ -قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَاأَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ**»(١).

---

(١) البخاري (٤٦٤٠).

(٣١٠) أحمر
أسود

قال تعالى:

وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩
وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ
ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ
ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ
قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ
حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ
لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ
١٦٢

الكلمة	معناها
﴿قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾	بني إسرائيل.
﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾	يهتدون بالحق- يرشدون الناس إلى طريق الحق- يدعون الناس إلى الهداية- يتبعون الحق (يستقيمون عليه ويدعون الناس إليه).
﴿يَعۡدِلُونَ﴾	ينصفون- لا يجورون- يعدلون في حكمهم.
﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾	فرقناهم.
﴿أَسۡبَاطًا﴾	قبائل- أُممًا- جماعات كل قبيلة عليها نقيب، كما قال تعالى: ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾.
الكلمة	معناها

﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾	طلبوا منه أن يسأل ربَّه عزَّ وجلَّ السُّقيا (الماء).
﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾	فانصبت - فانفجرت.
﴿وَظَلَّلۡنَا﴾	جعلناه عليهم كالظلة.
﴿ٱلۡغَمَٰمَ﴾	السحاب.
﴿ٱلۡمَنَّ﴾	طعامًا مَنَّ الله به عليهم، قيل: إنه يشبه العسل.
﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾	طائر السمان.
﴿رِجۡزٗا﴾	عذابا.
﴿يَظۡلِمُونَ﴾	يخرجون عن الطاعة.

مزيدَ من الحديث عن بني إسرائيل، وبيان أن فيهم بعض أهل الصلاح

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

ج: هذا ثناءٌ من الله ﷻ على طائفة من بني إسرائيل، فكما أن هناك من قوم موسى من حاد عن طريق الهداية الغواية، ومنهم من عبد العجل واتخذه إلهًا، ثم تاب من ذلك فكذلك هنالك فئامٌ من أهل الصلاح والفضل من بني إسرائيل الذين هم قوم موسى عليه السلام.

فقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ شاهدٌ لهذا المعنى الذي ذكرته.

وكذا قوله تعالى: (لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ).

وقوله تعالى: (وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ)، فقوله تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ

﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ) الآيـة، وقولـه تعـالى: (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ) الآيـة، وقولـه تعـالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩).

۞ فقولـه تعـالى: (وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ) أي: ومـن بنـي إسـرائيل (أُمَّةٌ) جماعـة (يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ) يرشـدون النـاس إلـى طريـق الحـق والهـدى، وهـم أيضـًا يهتـدون بالحق (وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ) وبالحق يحكمون فينصفون ولا يجورون.

بنو إسرائيل ومعجزة انفجار الحجر على يد نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بإذن الله

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) الآية؟

ج: المعنى-والله تعالى أعلم- أن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر بأنه فرَّق بني إسرائيل فجعلهم اثنتي عشرة قبيلة وجماعة على كل قبيلة وجماعة نقيبٌ من النُّقباء كما قال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ).

ثم إن هذه القبائل سألوا نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يطلب من الله عَزَّ وَجَلَّ السُّقيا لهم فأوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إلى موسى أن يضرب الحجر بعصاه، وتلك آية عظيمة للدلالة على وحدانية الله وقدرته ونبوة نبيه موسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضرب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الحجر بعصاه فانفجر انفجارًا شديدًا وخرجت منه عيون، اثنتا عشرة عينًا، كل عين لقبيلة من القبائل، وذلك- والله أعلم- حتى لا يحدث اختلاف بين القبائل، بل كل قبيلة عليها نقيب تعلم العين التي لها، ثم إن الله عَزَّ وَجَلَّ منَّ على هؤلاء القوم الإسرائيليين بمنةٍ أُخرى وهي

تظليل الغمام عليهم، وذلك لما ضرب عليهم التيه لكونهم تخلفوا ونكلوا عن الجهاد فقال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، فضُرب عليهم التيه ولكن رحمةً من الله ﷻ بهم أنه سبحانه ظلل عليهم الغمام، أي جعل السحاب فوقهم كالظلة يستظلون بالسحاب من حرِّ الشمس.

وتفضَّل الله عليهم بإنزال المن وهو طعام يشبه العسل ينزل على ورق الشجر دون كدٍّ منهم أو تعب، وذكرت في وصف المنِّ أقوال أُخر، وكذا أنزل الله عليهم السلوى، وهي طائر يشبه السمان، فكانوا يأكلون من هذا وذاك ويشربون من الماء العذب الطيب.

فقال لهم الله ﷻ: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: كلوا من الحلال الطيب الذي رزقكم الله إياه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: وما نقصونا من مُلكنا شيئًا بتخلفهم عن طاعتنا، وذلك كما في الحديث القدسي: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا**»[(١)].

﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ولكن بخسوا أنفسهم حقوقها وحظوها من الخير بعصيانهم وتمردهم على أوامر الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى)، إذ فرّقنا بني إسرائيل قومه اثنتي عشرة فرقة، وتيَّهناهم في التيه، فاستسقوا موسى من العَطَش وغَوْر الماء (أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ).

وقد بينا السبب الذي كان قومه استسقوه وبينا معنى الوحي بشواهده.

(فَانبَجَسَتْ﴾، فانصّبت وانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عينًا من الماء، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾، يعني: كل أناس من الأسباط الاثنتي عشرة ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾، لا يدخل سبط على غيره في شربه ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾، يكنُّهم من حرّ الشمس وأذاها.

وقد بينا معنى (الْغَمَامَ) فيما مضى قبل، وكذلك: (الْمَنَّ وَالسَّلْوَى).

---

(١) مسلم (حديث ٢٥٧٧).

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ طعامًا لهم﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يقول: وقلنا لهم: كلوا من حلال ما رزقْناكم، أيها الناس، وطيّبناه لكم﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وفي الكلام محذوف، ترك ذكره استغناءً بما ظهَر عما ترك، وهو: «فأجِمُوا ذلك، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، يقول: وما أدخلوا علينا نقصًا في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا وفعلهم ما فعلوا ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ينقصونها حظوظَها باستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ يعني قوم موسى، يقول: فرَّقناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ يعني أولاد يعقوب، وكانوا اثنى عشر ولداً، فولد كل واحد منهم سبطاً.

قال الفراء: وإنما قال ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ والسبط ذكر، لأن بعده ﴿أُمَمًا﴾ فذهب بالتأنيث إلى الأمم، ولو كان ﴿اثْنَيْ عَشَرَ﴾ لتذكير السبط، كان جائزاً.

وقال الزجاج: المعنى: وقطَّعناهم اثنتي عشرة فرقة، ﴿أَسْبَاطًا﴾ نعت «فرقة» كأنه يقول: جعلناهم أسباطاً، وفرَّقناهم أسباطاً، فيكون ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدلاً من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ و ﴿أُمَمًا﴾ من نعت أسباط. والأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل ليُفصل بين ولد إسماعيل وبين ولد إسحاق. وقال أبو عبيدة: الأسباط:

قبائل بني إسرائيل، أحدهم: سبط. ويقال: من أي سبط أنت؟ أي: من أي قبيلة وجنس؟

عناد بني إسرائيل وتعمدهم المعصية والشقاق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– أن الله ﷻ يُذَكِّر بنعمه على بني إسرائيل وتمردهم على طاعته ومقابلتهم النعم بالكفران والفضل بالطغيان فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: واذكر حال بني إسرائيل لما قيل لهم اسكنوا هذه القرية، وقد قيل: إنها بيت القدس– ﴿وَكُلُوا﴾ من ثمارها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم، وادخلوا بابها ﴿سُجَّدًا﴾ أي: وأنتم ساجدين وقولوا يا رب حطِّ عنا خطايانا، فإذا قلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم وسنزيد المطيعين منكم من فضلنا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا، يا محمد، من خطأ فعل هؤلاء القوم، وخلافهم على ربهم، وعصيانهم نبيَّهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القولَ الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وهي قرية بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾، يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، منها، يقول: أنّى شئتم منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، يقول: وقولوا: هذه الفعلة "حِطّةٌ"، تحطُّ ذنوبنا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾، يتغمد لكم ربكم ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾، التي سلفت منكم، فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها. ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، منكم، وهم المطيعون لله، على ما وعدتكم من غفران الخطايا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

ج: المعنى –الله أعلم– أن فئةً ظالمةً من بني إسرائيل خالفت أمر الله لها لما أمرهم بدخول الباب سجدًا وأن يقولوا حطة أي: يا رب حط عنا خطايانا، فلم يفعلوا ذلك بل عاندوا وكابروا ودخلوا –عن عمدٍ وعن قصدٍ– يزحفون على أستاههم

ويقولون –بدلًا من حطه– حبَّة في شعره، وبعضهم قال: حنطة، فما كان إلا أن الله ﷻ أرسل عليهم عذابًا من السماء بسبب ظلمهم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فغيَّر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، فقالوا= وقد قيل لهم: قولوا: هذه حطة=: "حنطة في شعيرة".

وقولهم ذلك كذلك، هو غير القول الذي قيل لهم قولوه.

يقول الله تعالى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ)، بَعثنا عليهم عذابًا، أهلكناهم بما كانوا يغيِّرون ما يؤمرون به، فيفعلون خلاف ما أمرهم الله بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بفعله.

(٣١٧) أحمر
أسود

قصَّةُ أصْحَابِ القَرْيةِ التي كَانَتْ حَاضِرةَ البَحْرِ وَمَسَخ أهْلَهَا إلى قردة

قَالَ تَعَالَى: وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠

(٣١٨) أحمر
أسود

الكلمة	معناها

(٣١٩) أحمر
أسود

﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾	مجاورة البحر – على شاطئ البحر.
﴿يَعْدُونَ﴾	يخالفون أمر الله – يعتدون – يصطادون في الوقت المحرم الذي يتجاوزون الحدَّ فيه ويخالفون أمر الله فيه.
﴿فِي ٱلسَّبْتِ﴾	يوم السبت.
﴿حِيتَانُهُمْ﴾	جمع حوت – وكذا الأسماك.
﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾	يوم راحتهم (اليوم الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه).
﴿شُرَّعًا﴾	ظاهرة على وجه الماء رافعة رؤوسها من كل طريق وناحية.
﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾	يوم لا يُحَرَّمُ عليهم العمل – لا يدخلون في السبت – لا يدخلون في يوم الراحة.
﴿نَبْلُوهُم﴾	نختبرهم – نشدِّد عليهم في العبادة.
﴿يَفْسُقُونَ﴾	يخرجون عن الطاعة – يعصون.
﴿أُمَّةٌ﴾	جماعة.
﴿تَعِظُونَ﴾	تُذكِّرون – تأمرون وتنهون – تخوِّفون.
﴿مُهْلِكُهُمْ﴾	مُميتهم.
﴿مَعْذِرَةً﴾	اعتذارًا (نعتذر إلى الله) وقيل: (معذرةٌ) بالضم؛ أي: هذه معذرةٌ أو هذا عذر نعتذر به إلى الله.
﴿يَتَّقُونَ﴾	يبتعدون عن الحرام – يتقون المعاصي – يتركون ما هم عليه من المعصية.
﴿نَسُوا﴾	تركوا.
﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾	وُعِظوا به.
﴿ٱلسُّوٓءِ﴾	المنكر – المعصية – المُحرَّم.
﴿بَـِٔيسٍۭ﴾	شديد – عظيم – أليم – موجع.
﴿عَتَوْا﴾	تمردوا – استحلُّوا ما حرَّم الله – استكبروا عن قبول الحق – تمادَوا في الغيِّ.

(٣٢٠) أحمر
أسود

الكلمة	معناها
﴿قِرَدَةً﴾	جمع قردٍ.
﴿خَٰسِـِٔينَ﴾	مطرودين – مُبعدين عن الخير – مُهانين ذليلين – حقيرين.
﴿تَأَذَّنَ﴾	أَخْبَرَ – أعْلَمَ.
﴿يَسُومُهُمْ﴾	يُذِيقُهُم.
﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾	أسوأ العذاب.
﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾	فرَّقناهم – مزَّقناهم.
﴿أُمَمًا﴾	جماعات – فرقًا.
﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾	غير ذلك (ليسوا صالحين).
﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾	اختبرناهم.
﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾	الرخاء والسعة في الرزق، والعافية في الأبدان والأولاد، والأمن في الأوطان.
﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	الشدة وضيق المعيشة والأمراض والموت.
﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾	جاء من بعدهم قوم سوء.
﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾	المراد به – هنا-: التوراة.
﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾	هذا المتاع العاجل القريب.
﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾	العهد المأخوذ عليهم الموجود في كتابهم التوراة، ففي التوراة عهود ومواثيق أُخذت على بني إسرائيل.
﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾	قرؤوا ما في التوراة.
﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾	يتبعون – يلتزمون – يعلمون بما في الكتاب.

س: اذكر كلمة موجزة عن هذه القصة قصة أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر.

ج: أقول- وبالله التوفيق-:

لقد حرَّم الله على بني إسرائيل الصيد يُوْمَ السبت، وغلَّظ عليهم في ذلك وشدَّد، ونهى أشد النهي عن الاعتداء يوم السبت.

ولقد كان هذا النهي شديدًا!!، والميثاق عليه غليظًا!!.

قال تعالى: (وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا).

لقد أُخِذَ عليهم هذا الميثاق على لسان أنبيائهم، وبيَّن لهم الأنبياء-عليهم السلام- خطورة نقض العهد والميثاق أكمل بيانٍ أتمَّ بيان!!.

لقد حذَّروهم أشد التحذير من الاعتداء يوم السبت!!.

ولكن ماذا كان من بني إسرائيل الذين غلب عليهم الشر والفساد؟!!

ماذا كان من هؤلاء الذين أَبَوْا إلا الشقاق والعناد؟؟!

لقد نقضوا العهد والميثاق!! لقد ارتكبوا ما نهاهم الله عنه، ووقعوا في المحظور عن علمٍ وعن عمدٍ!!

فمن ثَمَّ حلَّ من البلاء والعذاب والنكد والمسخ ما حلَّ، ونزل بهم من العقاب ما نزل.

لقد مُسخوا- عياذًا بالله- فأصبحوا قردة!

بل؛ ولعصيانهم أيضًا تحول فريق منهم إلى خنازير!!.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾.

ولقد كان يهود المدينة ومن حولها يتكاتمون ذلك، ولا يظهرون ما حلَّ بأسلافهم من النَّكَالِ ومن العقاب، حتى لا يُعيِّرُهم مُعيِّرٌ، ولا يُوَبِّخُهُم مُوَبِّخٌ.

بل، ولقد كان بعضُهم يوصِي بعضًا بهذا الكتمان، وإذا أفشَى بعضُهم ذلك أو شيئًا مما كتموه من العقوبات التي أنزلها الله بهم لاموه وعاتبوه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا

أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦].

إلا أن الله ﷻ كشف كثيرًا من فضائحهم وأسرارهم، ولكن رحمة منه بعباده، وسترًا منه عليهم لم يُبين كلَّ شيء صنعوه، بل ستر عليهم أشياء أيضًا.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ) [المائدة: ١٥].

وكان مما بينه الله ﷻ وأظهره أمر المعتدين يوم السبت، وما حلَّ بهم، وأوضح أن اليهود الذين كانوا يساكنون رسول الله ﷺ المدينة أو يجاورونها يعرفون ذلك، ولكنهم يتكاتمونه عن علم وعن عمدٍ.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٥].

أي: أن أمرهم لا يخفى عليكم ومسخهم لا يغيب عنكم. هذا، والله أعلم.

س: هل المراد السؤال عن القرية أم عن أهلها؟

ج: الذي يبدو، والله أعلم، أن المراد السؤال عن أهل القرية بدليل ذكر ما حدث لهم من كونهم مُسخوا قردة وتكون الآية كقوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ فالمراد واسأل أهل القرية وأهل العير، والله أعلم.

س: من هؤلاء الذين أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يسألهم، وما نوع السؤال هنا؟

ج: أمر الله نبيَّهُ ﷺ أن يسأل اليهود عنها سؤال توبيخ وتقرير، لعلهم يذكرون، لعلهم يتعظون، لعلهم أيضًا يصدقون نبوته، فكيف وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، كيف يخبرهم بهذه الأخبار، ويقص عليهم تلك القصص.

قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾.

اسأل هؤلاء اليهود عن أهل هذه القرية، تلك القرية التي كان يسكنها أسلافهم، اسألهم عن القرية وما حلَّ بأهلها بعد صنيعهم الذي صنعوا!!

س: لماذا أمر النبي ﷺ أن يسأل هؤلاء اليهود عن القرية التي كانت حاضرة البحر؟

ج: هذا الأمر بسؤالهم- والله تعالى أعلم- لتذكيرهم بعقوبة من خالف أمر الله ﷻ، تجاوز حدوده، وذلك حتى يحذر هؤلاء الإسرائيليون المعاندون المكذبون عقوبة تكذيبهم وعنادهم وكتمانهم ما علموه من أمر رسول الله ﷺ، فأخبروا بالذي حلَّ بمن كان قبلهم حتى يحذروه ويتقوه.

۞ والسؤال أيضًا لتوبيخهم وتقريرهم، فيكون المعنى إذا كنتم قد علمتم عقوبة من خالف أمر الله وعاند رسله وما حلَّ بأسلافكم فلمَ تحاربون رسول الله ﷺ وتكذبونه؟؟!!

۞ وأيضًا حتى يصدقوا أن محمدًا ﷺ رسولٌ من عند الله فكيف يخبرهم بهذه الأخبار التي يتكاتمونها وهو لا يقرأ ولا يكتب؟!!!

س: ما اسم هذه القرية، وما شأن أهلها؟

ج: أما عن القرية وأيُّ قرية هي ؟!! فلم يصح بذلك خبر عن النبي ﷺ.

ولقد قيل: إنها أيلة، وقيل: إنها مدين، وقيل غير ذلك.

فالله أعلم، والعبرة –ولله الحمد- حاصلة على كل حال لمن أراد الله به خيرًا.

والحاصل: أنها كانت قرية مجاورة للبحر، على شاطئ البحر أغلب عمل أهلها الصيد!!.

ولقد تفشَّى فيهم الفسق، وارتكبوا كثيرًا من المحرمات، فابتلاهم الله ﷻ بسبب فسقهم هذا، استدراجًا لهم بعد إمهالٍ، وكثيرًا ما يُبتلى الفسَّاق، يبتلون حتى يقعوا في المعاصي والكبائر، فيأخذهم الله بالعذاب.

ولقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٦].

لقد ابتلاهم الله بابتلاء عجيب، قلَّ من يتفطن له من الناس!! وقلَّ من يدرك منهم أنه ابتلاء!!.

۞ إن المريضَ قد يعلم أن الله ابتلاه بالمرض!!

۞ والفقيرَ قد يعلم أن الله ابتلاه بالفقر!!

۞ والذي أُصيبَ بخسارة في ماله قد يعلم أن الله ابتلاه بذلك!!
۞ لكن كثيرًا من الأغنياء لا يشعرون أنهم في ابتلاء بالغنى!!
۞ وكثيرًا ممن رُزقوا بالجاه والولد لا يشعرون أنهم في ابتلاء بهذا!!
۞ وهناك ابتلاء عجيبٌ قلَّ من يتفطن له، منه هذا الابتلاء الذي ابتلى به أهل هذه القرية.

إنه ابتلاء بتيسير أسباب المعصية!!

وذلك بتمكين الشخص منها، ليُعلم أيرتكبها ويقع فيها، أم أنه سيقاوم مستعينًا بالله حتى ينجو ويسلم.

س: ما المراد بالسبت في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾؟

ج: المراد بالسبت في الآية الكريمة: يوم السبت الذي يلي يوم الجمعة، أما أصل السبت فقد ورد في (لسان العرب): السِّبت والسُّباب: الدهر، السَّبتُ أيضًا برهة من الدهر، والسَّبتُ كذلك الراحة، وسبت استراح وسكن.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأصل "السبت" الهدوّ والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم "مسبوت" لهدوّه وسكون جسده واستراحته، كما قال جل ثناؤه: (وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا) [النبأ: ٩] أي راحة لأجسادكم. وهو مصدر من قول القائل: "سبت فلان يسبت سبتا".

وقد قيل: إنه سمي "سبتا"، لأن الله جل ثناؤه فرغ يوم الجمعة - وهو اليوم الذي قبله - من خلق جميع خلقه.

س: هذه الآيات هي تفصيل لآية أُجملت في سورة أخرى، ما الآية التي أجملت وفسرتها هذه الآيات؟

ج: الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

س: اذكر بعض الأدلة على تحريم العمل على اليهود يوم السبت؟

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤]، وكذا المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

س: هل لزامًا أن تكون - عندنا كمسلمين - إجازة، وتوقف على العمل يوم الجمعة؟

ج: أقول، وبالله التوفيق، إنما التوقف عن العمل يوم الجمعة، يكون عند النداء للصلاة وذلك إلى أن تنتهي الصلاة ويصلي المصلُّون، وأما قبل ذلك وبعده فلا بأس بالعمل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

فدل ذلك على أن هناك بيعًا قبل الصلاة.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

فدل ذلك عل أن بعد الصلاة عملًا وابتغاء فضلٍ من الله، والله أعلم.

وهذه لفتةٌ أُخرى: فحواها ومؤداها أن لحوم الحيتان ليست بأعظم حرمة من لحوم المسلمين.

فإذا كان الله ﷻ أخذ على قوم عهدًا وميثاقًا أن لا يعدوا في السبت ولا يصطادوا الحيتان، فقد أخذ عهودًا ومواثيق عليهم وعلى غيرهم ألا يقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، وتوعد أشد الوعيد مَنْ قتل مؤمنًا بغير حق، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فإذا كان ثمَّ قوم عجلت لهم العقوبة في دنياهم لكونهم اصطادوا الحيتان في اليوم حرم فيه عليهم الصيد ومُسِخُوا إلى قردة فأجدرُ بقوم قتلوا الأنفس المحرمة أن يحذروا غضب الله ويقلعوا عما هم فيه، وأن يتوبوا إلى الله ﷻ وينيبوا إليه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- يعتدون يوم السبت، فيرتكبون المحرمات ويخالفون أمر ربهم ﷻ.

س: كيف كانت صورة اعتدائهم يوم السبت؟

ج: حاصل تلك الصورة: أنهم تجاوزوا ما أمرهم الله به واعتدوا يوم السبت.

أما صورة تلك الاعتداء فلخص العلماء ذلك في أقوال:

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد روي في اعتدائهم في السبت روايات:

منها- أنهم تحيلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الحبائل والبرك قبل يوم السبت، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة، نشبت بتلك الحبائل، فلم تخلص منها يومها، فإذا كان الليل، أخذوها بعد انقضاء السبت.

ومنها- أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل، ولكن يأكلونها في غيره من الأيام، فتأول لهم الشيطان أن النهي عن الأكل فيه منها، لا عن صيدها. فنهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت: ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف، أو قذف، أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم، وإذا هم قردة.

س: ما مدى صحة هذا الحديث: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبْتِ اليَهُودُ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ الله بِأَدْنَي الحِيَلِ»؟

ج: الحديث في سنده ضعف، والله تعالى أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، أن الأسماك العظيمة والحيتان الكبيرة والصغيرة كانت تأتي يوم السبت شارعة ظاهرة باديةً على وجه الماء من كل صوبٍ وحدب.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

ج: المعنى –والله أعلم- أنه في اليوم الذي لا يسبتون فيه أي: الذي لم يمنعوا من

الصيد فيه، بل أبيح لهم فيه الصيد لا تأتيهم الحيتان.

وهذا ابتلاء واختبار بلا شك، فالأيام التي أُحل لهم فيها الصيد لا تأتيهم الحيتان واليوم الذي مُنعوا من الصيد فيه تأتيهم الحيتان، وذلك كما أسلفنا ابتلاء بتيسير أسباب المعصية.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

وقوله: (وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ)، يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت (لَا تَأْتِيهِمْ)، الحيتان (كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل صيده (كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم)، ونختبرهم (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها.

س: ما المراد بهذا الابتلاء المذكور في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؟

ج: ذلك الابتلاء بإرسال الحيتان إليهم ظاهرةً على وجه الماء في اليوم الذي حرِّم عليهم الصيد فيه.

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم) أي مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع، نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء، في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، أي نعاملهم معاملة من يختبرهم، بسبب فسقهم، فيظهر عدوانهم، فيستحقون المؤاخذة.

س: اذكر بمزيد من الإيضاح نوع الابتلاء الذي ابتلي به أصحاب القرية

ج: أما عن هذا الابتلاء الذي ابتُلي به أصحاب القرية:

فلقد كانوا يخرجون لعملهم كصيادين في أيام الأسبوع -سوى السبت- فيطرحون الشباك في البحر، فتهرب الحيتان، ولا يُرى لها أثر، وتخرج الشباك كما طُرحت ليس فيها سمكة واحدة، هكذا في كل أيام الأسبوع سوى السبت، أما يوم السبت الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه، فإن الأسماك كانت تأتيهم من كل صَوْبٍ وحَدَبٍ، تأتي شارعةً ظاهرةً على وجه الماء!!

حيتانٌ عظيمة تأتي فُرادَى وجماعات!!

تأتي ويضربها ضوء الشمس فتلمع في ضوء الشمس كالفضة!!

بل ومن العلماء من قال: إنها كانت ترمي بنفسها أحيانًا على البر، كأنها تقول لهم (خذوني، خذوني)!!

فماذا يصنع القوم أمام هذا الاختبار؟!!

إن الحيتان تأتيهم في اليوم الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه! وتختفي تمامًا في سائر الأيام!

فماذا يصنعون؟!!

لقد احتال منهم المحتال - كما قال بعض العلماء- نصب الشباك يوم الجمعة، فوقعت فيها يوم السبت، ثم أخذها يوم الأحد!! كذا قال البعض.

وآخرون لم يبالوا أصلًا بحرمة يوم السبت، فاصطادوا يوم السبت،وارتكبوا المحرماتن ووقعوا في المحظور، فماذا كان؟!!

|

س: اذكر بعض صور الابتلاء بتيسير أسباب المعصية.

ج: أقول، وبالله التوفيق:

إن هذا الابتلاء بتيسير أسباب المعصية قد ذكَّرنا الله به في عدة آيات ومواطن من كتابه العزيز، ولكن: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ **[العنكبوت: ٤٣]**.

فمن تلك الابتلاءات بتيسير أسباب المعصية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ....الآيـــــة

[المائدة: ٩٤]. وقول طالوت لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وسيأتي لذلك مزيد بيان في القوائد المستنبطة من هذه القصة- إن شاء الله تعالى-

س: ما المراد بالنسيان في قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾.

ج: المراد بالنسيان هنا الترك والإعراض، كقوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾.

هذا؛ وقد قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي: فلما تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم، ترك الناسي للشيء، وأعرضوا عنه إعراضًا كليًّا بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلًا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، فلما نسيت الفئة المعتدية العاصية التي اعتدت في السبت وخالفت أمر ربها، لما نسيت أي تركت تذكير المُذكرين، وأعرضت عن الذكرى أنجى الله عَزَّ وَجَلَّ الناهين عن المنكر، وأحلَّ الله عَزَّ وَجَلَّ بالظالمين المعتدين عذابًا شديدًا بئيسًا بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبت ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه، وضيَّعت ما وَعظتْها الطائفة الواعظة وذكَّرتها به، من تحذيرها عقوبةَ الله على معصيتها، فتقدّمت على استحلال ما حرم الله عليها أنجى الله الذين ينهون منهم عن "السوء"= يعني عن معصية الله، واسْتحلال حِرْمه ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، يقول: وأخذ الله الذين اعتدوا في السبت، فاستحلوا فيه ما حرَّم الله من صيد السمك وأكله، فأحلَّ بهم بأسَه، وأهلكهم بعذاب شديدٍ بئيس بما كانوا يخالفون أمر الله، فيخرجون من طاعته إلى معصيته، وذلك هو "الفسق".

س: انقسم أهل هذه القرية إلى ثلاثة أقسام مع هذا الابتلاء، وضح ذلك.

ج: أقول، وبالله التوفيق:

انقسم أهل القرية ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهم الأكثر والأغلب الأعم اعتدوا يوم السبت.

القسم الثاني: فريق موفَّقٌ مباركٌ قام ينهى عن المنكر، ويعظ ويُذكِّر.

القسم الثالث: لم يقع في المحظور، ولم ينه عن المنكر، وهم الساكتون.

سكتوا، بل وقالوا للفئة الموفَّقَة الناهية عن المنكر: لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذِّبُهم عذابًا شديدًا؟!! هكذا انقسم أهل القرية إلى هذه الأقسام.

س: ماذ كان من أمر هذه الأقسام وما مصيرهم؟!!

ج: قال الله ع: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾.

مصير الساكتين عن إنكار المنكر

س: لقد عذَّب الله ﷻ الفئة المعتدية في السبت وجعلهم قردة، وسلَّم الله ﷻ النُّهاة عن المنكر، فما مصير الفئة الثالثة الساكتة التي لم تقع في المحظور ولم تباشره ولكنها لم تنه عن المنكر؟

ج: أما عن هذه الفئة الثالثة التي لم تباشر ولم تنه عن المنكر فقد قال بعض أهل العلم: إن الله ﷻ لم يذكرها ها هنا؛ لأنها لا تستحق أن تذكر، لكونها سكتت، فسُكِتَ عن ذكرها.

وقال آخرون: إنهم عُذِّبوا مع من عُذِّب.

وذهب فريق ثالث من العلماء: إلى أنهم نجوا وسلموا؛ وذلك لأن الله قال: ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾.

وهؤلاء الساكتون لم يقعوا في الظلم.

وأيضًا لأن الله قال: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾، وهؤلاء -أعني الساكتين- ما عَتَوْا، والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ تَعَالَى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) أَيْ: فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ الْمُنْكَرَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ، (أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا) أَيْ: ارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ (بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) فَنَصَّ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ، وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيُمْدَحُوا، وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا، وَمَعَ هَذَا فَقَدِ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِيهِمْ: هَلْ كَانُوا مِنَ الْهَالِكِينَ أَوْ مِنَ النَّاجِينَ.

فهكذا مصير هذه الأقسام وهؤلاء الأقوام:

۞ الناهون عن المنكر سلمهم الله وحفظهم.

۞ مرتكبوا الجرائم المعتدون أهلكهم الله وعذبهم ومسخهم وحولهم إلى قردة.

۞ الساكتون سُكِتَ عنهم.

فسبحانك اللهم، فأنت الله لا إله إلا أنت!.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

ج: المعنى، والله أعلم، أن النهاة عن المنكر وهم الموفقون الفضلاء لما قاموا بما أوجبه الله عليهم من النهي عن المنكر والنهي عن مخالفة أمر الله عَزَّوَجَلَّ قامت فئةٌ (وهي الفئة الساكتة التي لم ترتكب المحظور ولم تنه عن المنكر) تعاتبهم وتقول لهم ما حاصله: لم تعظون هؤلاء الأقوام المعتدين، وقد علمتم أن الله عَزَّوَجَلَّ سيهلكهم أو يعذبهم عذابًا شديدًا، دعوهم ولا تنصحوهم، فأجاب الفضلاء الموفقون بقوله: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نعتذر إلى ربنا عَزَّوَجَلَّ، ونبين له اعتذارنا وعدم موافقتنا لهؤلاء القوم على صنيعهم، ونؤدي ما علينا من حق لهؤلاء من النصح والتذكير ثم نطمع في أن يهديهم الله ويقلعوا عما هم فيه من المنكر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا، يا محمد(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ)، جماعة منهم لجماعة كانت تعظ المعتدين في السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ)، في الدنيا بمعصيتهم إياه، وخلافهم أمره، واستحلالهم ما حرم عليهم(أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)، في الآخرة، قال الذين كانوا ينهونهم عن معصية الله مجيبيهم عن قولهم: عظتنا إياهم معذرةٌ إلى ربكم، نؤدّي فرضه علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، يقول: ولعلهم أن يتقوا الله فيخافوه، فينيبوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتهم إياه، وتعديهم على ما حرّم عليهم من اعتدائهم في السبت.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتِ الْمَحْذُورَ، وَاحْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَفِرْقَةٌ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنْكَرَتْ وَاعْتَزَلَتْهُمْ. وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ، وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ: (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)؟ أَيْ: لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنَ اللهِ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ إِيَّاهُمْ. قَالَتْ لَهُمُ الْمُنْكِرَةُ: (مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ) قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ، كَأَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِهِ: هَذَا مَعْذِرَةٌ وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ، أَيْ: نَفْعَلُ ذَلِكَ (مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ) أَيْ: فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ (وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) يَقُولُونَ: وَلَعَلَّ بِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرُكُونَهُ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ.

وقال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي جماعة من صلحائهم، يحاورون فريقا ممن دأب في عظتهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخترمهم ومطهّر الأرض منهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي بل معذبهم عذابا شديدا، إذ مجرد الإهلاك قد يوجد معه لطف، وأما شدة العذاب فتلك القاصمة ﴿قَالُواْ﴾ أي: الوعاظ ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي نعظهم معذرة إليه تعالى، لئلا ننسب إلى التفريط في وصيته بالنهي عن المنكر. وقرئ بالرفع. أي موعظتنا معذرة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ورجاء في أن يتقوا فيتوبوا فينجوا من الإهلاك.

مسخ القوم المعتدين إلى قردة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، فلما أعرض هؤلاء القوم الذين اعتدوا في السبت عن الذكرى، ولم يقبلوها، وتمادَوْا في غَيِّهم وعصيانهم، واستحلوا ما حرمه الله عليهم.

مسخهم الله ﷻ بقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: مُبْعَدِين عن الخير.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما تمرَّدوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حرَّم الله عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه (قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)، أي: بُعَداء من الخير.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قال: لما مرد القوم على المعصية ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فصاروا قردة أذناب تعاوي، بعدما كانوا رجالًا ونساءً.

س: هل مُسِخَ الذين اعتدوا في السبت قردة على الحقيقة؟

ج: نعم مُسِخُوا قردة على الحقيقة، وهذا ظاهر كلام الله ﷻ، فالله جل ذكره قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، والله قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقد قال جل ذكره أيضًا: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وهذا رأي جمهور المفسرين، رأيهم أن المعتدين في السبت مُسِخُوا قردةً على الحقيقة، وقد خالف في ذلك مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتعقبه الطبري تعقبًا قويًّا في «تفسيره»، وكذلك تعقبه الحافظ ابن كثير خ في «تفسيره»، والقول الذي ندين الله بصحته هو قول الجمهور لموافقته ظاهر الكتاب العزيز، والله تعالى أعلم.

س: هل الممسوخ يتناسل؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أن الممسوخ لا يتناسل وذلك لحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم وغيره، وفيه أن ابن مسعود قال: فقال رجل يا رسول

الله، القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا فَيَجْعَلُ لَهُمْ نَسْلًا وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٦٦٣)، وفي رواية لمسلم: «إن الله لم يجعل لمسخ نسلًا ولا عقبًا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك».

هذا وقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى بحثًا مختصرًا في ذلك قال رحمه الله (٢/ ٤٤١، ٤٤٢): ولم يبق لهم نسل؛ لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام، قال ابن عباس: لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل.

قال ابن عطية: وروي عن النبي ﷺ وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

قلت: هذا هو الصحيح من القولين: وأما ما احتج به ابن لعربي وغيره على صحة القول الأول من قوله ﷺ: «فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إسرائيل لا يدْرَى ما فعلتْ ولا أراها إلا الفأرَ ألا ترونها إذا وضع لَها أَلْبَانُ الإبلِ لَمْ تَشْرَبْهُ وإذا وضعَ لها ألبانُ الشَّاءِ شربتهُ». رواه أبو هريرة، أخرج مسلم.

وبحديث الضب رواه مسلم ايضًا عن أبي سعيد وجابر، وقال جابرُ بن عبد الله يقولُ: أُتِيَ رسُولُ الله ﷺ بضبٍّ فأبى أن يأكُلَ منْهُ وقال: «لا أدرِي لعلَّهُ مِنَ القُرُونِ التي مُسِخَتْ».

فمتأوَّلٌ على ما يأتي، قال ابن العربي: وفي البخاري عن عمرو بن ميمون أنه قال: رأيتُ في الجاهلية قردة قدْ زَنَتْ فرجمُوها فرجمتها معهُمْ، ثبت في بعض نسخ البخاري وسقط في بعضها، وثبت في نص الحديث «قد زنت» وسقط هذا اللفظ عند بعضهم.

قال ابن العربي: فإن قيل: وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خلفًا عن سلف إلى زمان عمرو؟

قلنا: نعم كذلك كان؛ لأن اليهود غيَّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه في مسوخهم حتى يكون أبلغ في الحجة على ما أنكروه من ذلك وغيَّروه، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويحصي ما يبدلون وما يغيرون ويقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون، وينصر نبيه عليه السلام وهم لا ينصرون.

قلت: هذا كلامه في الأحكام، ولا حجة في شيء منه، وأما ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدي في جمع الصحيحين: حكى أبو مسعود الدمشقي أن لعمرو بن ميمون الأودي في الصحيحين حكاية من رواي حُصين عنه قال: رأيت في الجاهلية قِرَدة اجتمع عليها قِرَدة فرجموها فرجمتها معهم.

كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر في أي موضع أخرجه البخاري في كتابه؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه في بعض النسخ لا في كلها؛ فذكر في كتاب أيام الجاهلية.

وليس في رواية النعيمي عن الفربري أصلًا شيء من هذا الخبر في القردة؛ ولعلها من المقحمات في كتاب البخاري.

والذي قال البخاري في «التاريخ الكبير»: قال لي نعيم بن حماد: أخبرنا هشيم عن أبي بلج وحصين عن عمرو بن ميمون قال: رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم. وليس فيه «قد =

س: كيف قيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وقد تقدم أنهم مُسِخُوا قردة؟

ج: قال عدد من أهل العلم أن هؤلاء الذين قال في شأنهم (لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ) هم الذين أتوا من بعدهم من اليهود الذين ساروا على طريقة سابقيهم في الغيِّ والضلال، والعناد والشقاق. والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ).

ج: معنى ذلك –والله أعلم-: واذكر يا رسول الله لقومك ومن حولك ومن يأتون

= زنت».

فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخاري دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية، ولم يبال بظنه الذي ظنه في الجاهلية.

وذكر أبو عمر في «الاستيعاب» عمرو بن ميمون وأن كنيته أبو عبد الله «معدود في كبار التابعين من الكوفيين،و هو الذي رأى الرجم في الجاهلية من القردة إن صح ذلك؛ لأن رواته مجهولون.

وقد ذكره البخاري عن نعيم عن هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون الأودي مختصرًا.

قال: رأيت في الجاهلية قِرْدة زنت فرجموها- يعني: القرَدة- فرجمتها معهم. ورواه عباد بن العوام عن حصين كما رواه هشيم مختصرًا.

وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حطان، وليسا ممن يحتج بهما، وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنا إلى غير مكلف، وإقامة الحدود في البهائم.

ولو صح لكانوا من الجن؛ لأن العباداات في الإنس والجن دون غيرهما.

وأما قوله ﷺ في حديث أبي هريرة «**وَلاَ أَرَاهَا إلاَّ الْفَأْرَ**»، وفي الضب: «**لاَ أَدْرِي لَعَلَّه مِنَ الْقُرونِ الَّتِي مُسِخَتْ**» وما كان مثله، فإنما كان ظنًّا وخوفًا لأن يكون الضب والفأر وغيرهما مما مسخ، وكان هذا حدسًا منه ﷺ قبل أن يوحي إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلاً؛ فلما أوحي إليه بذلك زال عنه ذلك التخوف، وعلم أن الضب والفأر ليسا مما مسخ، وعند ذلك أخبرنا بقوله ﷺ لمن سأله عن القردة والخنازير: هي مما مسخ فقال: «**إِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا، أَوْ يُهْلِكْ قَوْمًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً وَلاَ عَاقِبَةً، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ، وَالْخَنَازِيرَ قَدْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ**».

وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود رواه مسلم في كتاب «القدر».

وثبت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر؛ فدل على صحة ما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط. وردَّت أفهامهم كأفهام القردة. ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم. والله أعلم.

بعدك أن الله ﷻ أعلم وأخبر أنه سيبعث على هؤلاء اليهود المعاندين للرسل والمخالفين لأوامر ربهم ﷻ من يذيقهم أسوأ العذاب، ذلكم العذاب المتمثل في القتل والتشريد، وفرض الجزية، وكراهية الناس لهم، وذلك إلى يوم القيامة.

قال القاسمي رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

(﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي آذن، (كتوعد بمعنى أوعد) . من (الإيذان) بمعنى (الإعلام) أجري مجرى فعل القسم، كعلم الله، وشهد الله. ولذلك أجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله:﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ والمعنى: وإذ حتم ربك وحكم، ليسلطن على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه، واحتيالهم على المحارم. وقد بعث الله تعالى، بعد سليمان عليه السلام، بختنصر مالك بابل، فخرب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وضرب الجزية على من بقي منهم، وجلا كثيرا منهم إلى بابل- قصبة مملكته- وأقاموا فيها سبعين سنة، ثم تسلطت عليهم ملوك شتى، ولبثوا زمانا طويلا يكابدون بلاء عنيفا، من تواتر الحروب على بلادهم، إلى أن صاروا جميعا تحت سلطة الرومان، بعد ولادة عيسى عليه السلام بإحدى وسبعين سنة، واستؤصلوا من أرضهم، وتفرقوا في البلاد شذر مذر، صاغرين مقهورين.

ومن هاهنا، استدل من استدل بأنهم لا يكون لهم دولة ولا عز، وباتصال ذلهم. (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ) لمن أقام على كفره، ونبذ وصاياه (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) أي لمن تاب وآمن وعمل صالحا.

|

س: من هؤلاء الذين توعد الله ﷻ اليهود بهم أن يسوموا اليهود سوء العذاب؟

ج: قيل: إنهم أمة محمد ﷺ، وقيل: إنه بختنصر البابلي، وقيل غير ذلك، والحاصل: أن الله ﷻ سيسلط على اليهود من يذيقهم أسوأ العذاب.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: أعلم ربك ليبعثن على اليهود من يسومهم سوء

العذاب.

قيل: إن ذلك، العربُ، بعثهم الله على اليهود، يقاتلون من لم يسلم منهم ولم يعط الجزية، ومن أعطى منهم الجزية كان ذلك له صغارًا وذلة.

س: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ الآية ما يفيد أن رحمة الله واسعة وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن الله ﷻ ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ وذلك لمن خالف أمره وعاند رسله، ثم فتح باب التوبة أمام التائبين ومريدي الرجوع إلى طريق الله بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وَقَوْلُهُ: (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ) أَيْ: لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ [أَمْرَهُ وَ] شَرْعَهُ، (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ.

وَهَذَا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحْمَةِ مَعَ الْعُقُوبَةِ، لِئَلَّا يَحْصُلَ الْيَأْسُ، فَيَقْرِنُ [اللهُ] تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ كَثِيرًا؛ لِتَبْقَى النُّفُوسُ بين الرجاء والخوف.

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وفرقنا بني إسرائيل في الأرض وشتتناهم فيها، وكان منهم قوم من أهل الصلاح، وقوم ليسوا بصالحين.

س: الفرقة والاختلاف نوعُ عقاب، وكذا تمزيق القوم في الأرض وتشتتهم دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وقوله تعالى في بيان العقوبة التي أحلّها بالإسرائيلين المعتدين في السبت: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: مزقناهم وفرقناهم بعد اجتماع.

وتلك عقوبة طالما تكررت وحلت بأقوام، كما قال تعالى في شأن سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أننا نوعنا الابتلاء على بني إسرائيل، فأحيانًا نبتليهم بالشدة وأحيانًا نبتليهم بالرخاء، وأحيانًا نبتليهم بالصحة والعافية وأحيانًا نبتليهم بالأمراض والأسقام.

- أحيانًا نبتليهم بالأمن والطمأنينة.
- وأحيانًا نبتليهم بالفزع والجزع والهلع.

كل ذلك لعلهم يراجعون أنفسهم ويرجعون إلى طريق الله .

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي "الحسنات" التي ذكرها جل ثناؤه ويعني بـ"السيئات"، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه.

س: اذكر بعض الآثار الواردة عن السلف الصالح في شأن أصحاب السبت.

ج: ابتداءً، فلم أقف على أي خبر ثابت عن رسول الله ﷺ في شأن أصحاب السبت.

أما عن الآثار عن الصحابة والتابعين فمنها ما صحَّ، ومنها ما هو ضعيف.

أخرج الطبري بإسناد ضعيف عن عِكْرِمَةَ قال:

جئت ابن عباس يومًا وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدَّمت فجلستُ، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس، جعلني الله فداءك؟ فقال: هؤلاء الورقات! قال: وإذا هو في "سورة الأعراف"، قال: تعرف

أيلة! قلت: نعم! قال: فإنه كان حيّ من يهود، سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغُوصوا، بعد كدٍّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شرعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض، تنبطحُ ظهورُها لبطونها بأفنيتهم وأبنيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام! فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة منهم: بل نُهيتم عن أكلها وأخذِها وصيدها في يوم السبت. وكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فعدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحَّت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت.

وقال الأيمنون: ويلكم! اللهَ، اللهَ، ننهاكم أن تعترّضوا لعقوبة الله! وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

قال الأيمنون: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ينتهون، فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم.

فمضوا على الخطيئة، فقال الأيمنون: قد فعلتم، يا أعداء الله! والله لا نُبَايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصيبكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده بالعذاب! فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلّمًا، وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال: أي عبادَ الله، قردةٌ والله تعاوَى لها أذناب! قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القردةُ أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود تأتي نسيبها من الإنس فتشمّ ثيابه وتبكي، فتقولُ لهم: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: نعم!

ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

قال: فأرى اليهود الذين نَهَوْا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها فلا نقول فيها! قال قلت: إنَّ جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ قال: فأمرَ بي فكسيتِ بُرْدَين غليظين.

وأخرج الطبري[١] بإسناد صحيح إلى أيوب قال:

تلا الحسن ذات يوم: ﴿ وَسَـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾، فقال: حوتٌ حرمه الله عليهم في يوم، وأحله لهم فيما سوى ذلك، فكان يأتيهم في اليوم الذي حرَّمه الله عليهم كأنه المخاض، لا يمتنع من أحد.

وقلَّما رأيت أحدًا يكثر الاهتمامَ بالذنب إلا واقعه، فجعلوا يَهتمُّون ويمْسِكون، حتى أخذوه، فأكلوا أوْخَم أكلة أكلها قوم قطُّ، أبقاه خزيًا في الدنيا، وأشدُّه عقوبة في الآخرة! وايم الله، ما حوتُ أخذه قوم فأكلوه، أعظم عند الله من قتل رجل مؤمن! وللمؤمن أعظم حرمة عند الله من حوت، ولكن الله جعل موعدَ قومٍ الساعة﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦] .

وأخرج الطبري أيضًا بإسناد حسن عن قتادة، ﴿ وَسَـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ ﴾، ذُكر لنا أنه إذا كان يوم السبت أقبلت الحيتان، حتى تتبطَّح على سواحلهم وأفنيتهم، لما بلغها من أمر الله في الماء، فإذا كان في غير يوم السبت، بعدت في الماء حتى يطلبها طالبهم. فأتاهم الشيطان فقال: إنما حرم عليكم أكلها يوم السبت، فاصطادوها يوم السبت وكلوها فيما بعد! .....

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾، صار القوم ثلاثة أصناف، أما صنف فأمسكوا عن حرمة الله ونهوا عن معصية الله، وأما صنف فأمسك عن حرمة الله هيبةً لله، وأما صنف فانتهك الحرمة ووقع في الخطيئة.

س: ما وجه التذكير بالأمم التي قد خلت من قبلنا وما حلَّ بها من النكال والعقاب وما وجه التذكير بقصة أصحاب السبت؟

ج: يُذكِّر الله ﷻ عباده المؤمنين بما حل بالأمم المكذبة حتى يحذر العباد عقوبة الشقاق والعناد،وكيف أن النعم تتحول إلى نقم، وكيف أن الأمن يبدل خوفًا،

(١) الطبري (١٥٢٨٤) وهو من قول قتادة.

والاجتماع يؤول إلى فرقة واختلاف بسبب التمرد والعصيان!!

ولقد ذكَّر الله بأمر هؤلاء المعتدين في السبت، وذلك في سورة البقرة؛ إذ الله ﷻ قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، ففيه تحذير لبني إسرائيل، ووجهه أن الله ذكَّر بني إسرائيل بما صنع أسلافُهم وأجدّادُهم من نقض العهود والمواثيق، فلما اعتدى أسلافهم في يوم السبت الذي كان الصيد فيه محرمًا عليهم فاصطادوا وخالفوا أمر الله تعالى، وقد كانت العهود أُخذت عليهم ألا يعتدوا في السبت كما قال ربنا : ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ **[النساء: ١٥٤]**.

فلما خالفوا أمر الله ع مسخهم الله ﷻ قردة كما ذكر الله سبحانه في كتابه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ **[الأعراف: ١٦٦]**.

فأنتم يا معشر يهود يا من بُعِثَ محمد ﷺ بين أظهركم وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة، وقد أخذت عليكم العهود والمواثيق أن تؤمنوا به، وها هي صفاته مطابقة لما بين أيديكم من التوراة، فإن لم تؤمنوا به فقد نقضتم العهد المأخوذ عليكم، فعليكم حينئذ أن تنتظروا العقوبة التي تحل بكم كما حلت العقوبة بأسلافكم الذين نقضوا العهود والمواثيق كما قال الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ **[النساء: ٤٧]**.

جُملة مِنَ الفوائد والعبر المأخوذة من قصة أصحاب السبت

س: اذكر جملة من الفوائد المأخوذة من قصة أصحاب السبت.

ج: من الفوائد ما يلي:

۞ التذكير بأن الذي يُسَيِّرُ الأمورَ والأشخاصَ هو الله ﷻ، فكل شيء يجري بتقديره ، فليكن المُلْتَجأُ إليه دائمًا، فمن الذي يسُوقُ الحيتانَ يوم السبت حتى تأتي شُرَّعًا؟!! ومن الذي يصرفها؟! إنه الله .

۞ وكذا ترى من الذي ساق الحوت إلى يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أُلقي في اليمِّ، في نفس التوقيت الذي أُلقي فيه عَلَيْهِ السَّلَامُ دون أن يُتْرَكَ لحظةٌ للغرق؟!! إنه الله .

۞ وكذا من الذي جعل الحوت يضطرب في الزنبيل الذي يحمله فتى موسَى يُوشَعُ بنُ نُون، وجعله كذلك يشق طريقه ويتخذ سبيله في البحر سربًا وعجبًا؟! إنه الله ﷻ.

۞ وكذا كل الأشياء يُسَيِّرُها الله ويوقفها إن شاء.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **[هود: ٤١]**

وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ **[يونس: ٢٢]**.

وقال ﷻ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ **[الشورى: ٣٣]**.

فكل من له حاجة يريد قضاءها فليلجأ إلى الله وليسأله إياها، فقضاؤها عنده ﷻ.

۞ ومن الفوائد تقرير نبوة رسول الله ﷺ: والتأكيد على ذلك، ففي القصة دليل على ذلك، وذلك من كونه –صلوات الله وسلامه عليه- يخبر اليهود بما حدث من أسلافهم، وما حلَّ بهم من العقوبات والنكالن وهو نبيٌّ أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى معلِّمٍ.

وهذا الدليل من دلائل النبوة، قد أُشير إليه في عدة آيات من كتاب الله:

كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ **[القصص: ٤٤]**.

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ **[القصص: ٤٦]**.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ

لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٥].

ومن الفوائد تفسير القرآن بالقرآن:

فالآيات التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾.

تفسيرٌ لما أُجمل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾.

وهذا أصلٌ عظيمٌ من أصول التفسير، أن القرآن الكريم يُفسِّر بعضه بعضًا.

فعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٨]، فسره قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩].

ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا.

وثَمَّ فائدةٌ يُشار إليها:

مأخوذة من عدم تسمية القرية، مؤداها أن الله ﷻ لم يُسمِّ هذه القرية ولو كان عدم التسمية ضارًّا أو مؤثرًا لسماها ربنا ، ومن ثَمَّ فلا نجشِّم أنفسنا البحث الطويل وراء اسم القرية بما يخرج بنا عن مضمون القصة وعن الاعتبار بما فيها، فالعبرة حاصلة – ولله الحمد– على كل حال.

ومن ثَمَّ فلا يضر الخلاف في تحديد اسم القرية.

وكذلك القرية المذكورة في سورة (يس).

وكذلك لا يضر عدم ذكر أسماء أصحاب الكهف في سورة الكهف، ولا نتعب أنفسنا ونسود الصفحات بالبحث عن اسم قبيلتهم واسم كلبهم كما فعله بعض من تطرق إلى القصة.

ألا فليُحفظ الجهد، وليُحفظ الوقت، ولنحرص على ما هو نافعٌ لنا.

ومن الفوائد:

أن الله ﷻ جعل هذه العقوبة ومن حلَّت بهم عبرة يعتبر بها المعتبرون ويتعظ بها المتعظون، كي يحذر العصاة عقوبة مخالفة أمر الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٦٦]

والضمير في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ لأهل العلم فيه أقوال:

فمنهم من يقول: إن الضمير يرجع إلى العقوبة التي هي المسخ.

ومنهم من قال: يرجع إلى القرية، والمراد أهلها.

ومنهم من قال: إنها الحيتان.

وثَمَّ أقوال أُخر، وأقوى هذه الأقوال القول الأول والثاني.

أما النَّكال: فمعناه الزجر بالعقاب، والنكل والنكال: قيود الحديد، فالنكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل. قاله ابن عطية.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لأهل العلم فيه أقوالٌ:

منها: أن ما بين يديها الأمم التي ستأتي من بعدهم، وما خلفها الذين كانوا بقوا منهم.

ومنها: أن ما بين يديها الأمم التي ستأتي من بعدهم كما سبق، وما خلفها القرى المحيطة بهم.

ومنها: أن ما بين يديها الذنوب التي أصابوها بالاعتداء على الحيتان، وما خلفها الذنوب التي أصابوها قبل الاعتداء على الحيتان، فالمعنى أنهم أُخذوا بالأول والآخر.

والمُؤَدَّى واحدٌ، وهو أن العاصي المعتدي مسخ فأصبح قردًا، وفي هذا عبرة لكل معتبر، والله تعالى أعلم.

ومن الفوائد:

بيا أمر مهم، ألا وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أسباب السلامة والنجاة، خلافًا لما قد يظنه بعض الناس ويتصوره آخرون، وقد دلت على ذلك أدلة كثيرة جدًّا من كتاب الله ﷻ:

فمنها: ما ذُكر في هذه القصة المباركة من قوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وقد سبق بيانه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

وذلك بعد أن حلَّ بقوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم ثمود ما حل.

وهكذا أنجى الله عَزَّ وَجَلَّ أنبياءه ورسله وانتقم من أهل الظلم والشر والفساد.

وقال الله ع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالعصمة والحفظ مع البلاغ.

وفي الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»(١).

ومن الفوائد:

إبطال الحِيل التي يُتوصل بها إلى المحرم.

وذلك على وجه من وجوه المفسرين لكيفية الاعتداء الذي قام به أصحاب السبت، وذلك من نصبهم الشباك يوم الجمعة، واستخراجها يوم الأحد.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢):

أن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد. قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على

(١) البخاري (٢٤٩٣).
(٢) في كتابه: «إغاثة اللهفان» (ص ٣٧٨)

المناهى الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها، ليس المحتال على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه. ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبًا لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال، ظاهره ظاهر الاتقاء، وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مسخوا قردة، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان وفى بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له فى الحد والحقيقة. فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض ظاهره دون حقيقته، مسخهم الله تعالى قردة، يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقًا.

وقال في موطن آخر من نفس الكتاب:

ثم إنه ﷺ نهانا عن التشبه باليهود، وقد كانوا احتالوا فى الاصطياد يوم السبت، بأن حفروا خنادق يوم الجمعة تقع فيها الحيتان يوم السبت ثم يأخذونها يوم الأحد، وهذا عند المحتالين جائز. لأن فعل الاصطياد لم يوجد يوم السبت، وهو عند الفقهاء حرام لأن المقصود هو الكف عما ينال به الصيد بطريق التسبب أو المباشرة.

وفي باب الحيل المحرمة يرد ما بينه النبي ﷺ إذ قال في شأن اليهود: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا**»(١). وفي رواية: «**وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا**»(٢).

وفي ثالثة مطوّلة من حديث جابر رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ، وهو بمكة «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «**لَا، هُوَ حَرَامٌ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**»(٣).

---

(١) البخاري (٢٢٢٣)، وقوله: «فجملوها» أي: أذابوها. قال الحافظ ابن حجر: «حرمت عليهم الشحوم» أي: أكلها، وإلا فلو حرم عليهم بيعها لم يكن لهم حيلة فيما صنعوه من إذابتها.

(٢) البخاري (٢٢٢٤).

(٣) البخاري (٢٢٣٦).

ولكن ثَمَّ حيلٌ يتوصل بها إلى مباح كقوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

ولقد قال تعالى لنبيه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قد أقسم أن يضرب زوجته مائة جَلْدة، فقال الله له: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص: ٤٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

من أنواع مكايد الشيطان:

ومن مكايده التى كاد بها الإسلام وأهله: الحيل والمكر والخداع الذى يتضمن تحليل ما حرم الله، وإسقاط ما فرضه، ومضادته فى أمره ونهيه، وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه

فإن الرأى رأيان: رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار، وهو الذى اعتبره السلف، وعملوا به.

ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار، فهو الذى ذموه وأنكروه.

وكذلك الحيل نوعان: نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام، وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه.

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالماً، والظالم مظلوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، فهذا النوع الذى اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يجوز شئ من الحيل فى إبطال حق مسلم.

وقال الميمونى: قلت لأبى عبد الله: من حلف على يمين ثم احتال لإبطالها، فهل تجوز تلك الحيلة؟ قال: نحن لا نرى الحيلة إلا بما يجوز. قلت: أليس حيلتنا فيها أن نتبع ما قالوا، وإذا وجدنا لهم قولا فى شئ اتبعناه؟ قال: بلى هكذا هو. قلت: أو ليس هذا منا نحن حيلة؟ قال: نعم.

---

(١) إغاثة اللهفان.

فبين الإمام أحمد أن من اتبع ما شرعه الله له وجاء عن السلف فى معانى الأسماء التى علقت بها الأحكام ليس بمحتال الحيل المذمومة.. وإن سميت حيلة فليس الكلام فيها.

وغرض الإمام أحمد بهذا: الفرق بين سلوك الطريق المشروعة التى شرعت لحصول مقصود الشارع، وبين الطريق التى تسلك لإبطال مقصوده.

ومن الفوائد:

بيان حال بني إسرائيل وما هم عليه من الشقاق والعناد ونقض العهود والمواثيق مع الله ﷻ ومع أنبيائهم، ومن ثَّمَّ فسينقضون العهود والمواثيق مع المخلوقين، فالذي لا يخشى الله لن يتورع عن غش العباد وخداعهم وتضليلهم.

ومن الفوائد:

بيان لأمرٍ مهم، وهو أن الله ﷻ سيسأل من رأوا المنكر ولم يغيروه أو يأمروا بتغييره، وذلك مفهوم من قول الفئة الصالحة.

لما أنكر عليهم المنكرون ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا﴾.

قالوا: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾.

بل، وقد تتنزل العقوبات في بعض الأحيان على الساكتين.

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ومنها: تذكير الظالم بما فُعل بالظالمين، وما حلَّ بهم من العقاب والنكال حتى ينتهي عن ظلمة ويُقلع عن غيِّه وفساده.

ومنها: أنه يجوز أحيانًا التشنيع على الظالم حتى يقلع عن ظلمه وبيان ما حلَّ بقومه الظلمة، وإن كان يجوز الستر أحيانًا، وكل ذلك بحسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه المقام، ولقد قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائـــدة: ١٥] أي: يظهر كثيرًا كالذي حلَّ بأصحاب القرية، ويستر على أمور كثيرة فلا يفحكم بها.

وثَمَّ حديث في الباب أخرجه أبو داود، والبخاري في (الأدب المفرد)، من حديث أبي هريرة قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَاصْبِرْ**» فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ**» فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ: فَعَلَ اللهُ بِهِ، وَفَعَلَ، وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ لَا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ»(١).

ومن الفوائد:

التذكير بما هو ثابت في كتاب الله ﷻ من وجوه متعددة، والذي حاصله: أن العقوبات تنزل بسبب الذنوب والمعاصي، وكذلك اللعنات قد تحلُّ بسبب ذلك، فعذاب بئيس شديد حلَّ بالمعتدين يوم السبت.

بل مُسخوا قردة وخنازير!!!.

بل، ولعنهم الله ﷻ، كما قال في كتابه: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

ومن الفوائد:

كما أشرت آنفًا التنبيه عل أن هناك ابتلاءً بتيسير أسباب المعصية.

وقلَّ مَنْ يفهم ذلك وقلَّ من يدرك ذلك، وقلَّ مَنْ يتفطن له، وقد دلت عليه أدلة كثيرة من كتاب الله ﷻ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ [النحل: ٩٢].

وحاصل ذلك:

أن شخصًا أو قومًا قد يُعاهدون قومًا عهدًا ويُبرمون معهم أمورًا واتفاقيات، ويكدون ذلك بالأيمان أحيانًا، فيأتي مَن هو أكثر عددًا ومالًا وأقوى عُددًا فينقض الشخص أو القوم عهدهم مع القوم الأولين، ويتعاهدون مع مَنْ هو أكثر عددًا ومالًا وأقوى عُددًا.

وجه ذلك الابتلاء: أن الله ساق (القوم الذين هم أقوى عددًا...) إلى الأولين اختبارًا لهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ [النحل: ٩٢]، ليُعلم هل يثبتون

(١) أبو داود (٥١٥٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٤)، وسنده صحيح لشواهده.

على العهود الأولى ويحافظون عليها أم ينقضونها ويغدرون؟ فقد تُخطب فتاةٌ وتَرْكَنُ -هي وأهلُها- إلى الخاطب ويُعلنون للخاطب الموافقة على الخطبة، ويرضى بها خاطبها، ويطمئنُّ إلى مخطوبته فتصبح فلانة مخطوبةٌ لفلان، فيأتي آخر يريد أن يخطبها ويعرض من المال أضعاف أضعاف ما عرضه الأول، فتُرى من الذي ساق هذا الآخر لخطبتها، وقد خُطبت؟!!

إنه ابتلاء من الله ﷻ لأهل الفتاة وللفتاة جميعًا.

هل يثبتون على الخِطْبة الأُولى أم ينقضونها؟

وثَمَّ رجلٌ باع بيتًا وتمَّ البيع وتفرَّق المجلس، وقد باع هذا البيت بمائة ألف، فبعد أن تم البيع جاء رجل آخر يريد أن يشتري البيت من البائع الأول الذي قد باعه، فيعرض عليه المشتري الجديد أن يشتري منه البيت الذي قد باعه بثلاثمائة ألف، فحيئذ يُفكر كيف ينقض البيع الأول كي يعقد الصفقة مع الشخص الجديد، فتُرى من الذي ساق هذا المشتري الجديد كي يُغري البائع بنقض البيع الأول، وقد قال الرسول ﷺ: «لَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ أخيه، ولَا يَخْطُبْ أَحَدُكُمْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ»[(١)].

ويحضرني في هذا السببُ في كون شهادة خزيمة بن ثابت عدلت شهادة رجلين.

أخرج الإمام أحمد في «مسنده»[(٢)] من طريق عمارة بن خزيمة الأنصاري أَنَّ عَمَّهُ، حَدَّثَهُ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَشْيَ، وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ فَيُسَاوِمُونَ بِالْفَرَسِ، لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ، حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الْأَعْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَى ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي ابْتَاعَهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَنَادَى الْأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسَ فَابْتَعْهُ، وَإِلَّا بِعْتُهُ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟**» قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا وَاللهِ مَا بِعْتُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلَى قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟**» فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيدًا. فقال

---

(١) البخاري (٢١٣٩)، (٥١٤٢)، ومسلم (١٤١٢)، (١١٥٤).
(٢) «االمسند» (٥/٢١٥)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٧/٣٠١).

خُزَيْمَةُ بنُ ثابت: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ. فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فقَالَ: «بِمَ تَشْهَدُ؟» فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ.

وقد يُعاهد قومٌ قومًا آخرين عهدًا وتكون بينهم هدنة فلا يعتدي أحدٌ على الآخر خمس سنوات ثم تلوح لفريق منهم غرةٌ يراها من الآخر ويمكنه فيها إذا انقضَّ عليه أن يُبيده، وأن ينتصر عليه، وتلك الغرة جعلها الله اختبارًا للقوم، هل يحافظون على العهد والميثاق ممتثلين قول الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ) [المائدة:١] ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، أم أنه يتجاوز هذا كله طمعًا وغدرًا وخيانةً ونقضًا؟!!

ومن الابتلاءات بتيسير أسباب المعصية:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٤].

فكما هو معلوم أن الشخص المُحرِم لا يجوز له أن يصطاد؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥].

فقد يتلبَّس شخصٌ بالإحرام ويُهلُّ بالحج أو بالعمرة، ثم يَظْهَرُ له صيدٌ عظيم سمين، يظهر له بقر وحشي (حلال أكله)، وبيده السهم من الممكن جدًّا أن يصطاده فيصبح بالصيد ثريًّا من الأثرياء؛ إذ الصيد سمينٌ وسهلٌ وقريبٌ، ولا يكلف الرجل كبير جهد ولا كبير تصويب.

فترى من الذي ساق الصيد؟ إنه ابتلاؤه من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٤].

وقد تُساق الأرانب والطيور والمُحرم جائعٌ وبإمكانه صيدها وسد جوعته، ليُعلم هل يعتدي أم أنه سيحافظ على حدود الله ﷻ، وأيضًا قد يرى المُحرِم لقطةً كبيرة، مبلغًا ماليًّا طائلًا أو قطعة كبيرة من الذهب، يراها مُلقاة في مكة –البلد الحرام– وقد علم أن لقطتها لا تُلتقط لا لمُنشد ليُعلم هل يقف عند حدود الله؟ أم أن الطمع يحمله على اكتنازها والاستمتاع بها. فمَنِ الذي ساق له هذه القطعة، ومَنِ الذي أوقع بصره عليها؟!! إنه ابتلاءٌ وإنها فتنةٌ!!.

وهذا ابتلاء آخر بتيسير أسباب المعصية:

لقد حدث هذا الابتلاء لطائفة أيضًا من بني إسرائيل من بعد نبي الله موسى عليه السلام، ألا وهي الطائفة التي خرجت للقتال مع الملك الصالح طالوت، لقد ابتلاهم بنهر يمرون عليه ومنعهم نبي الله طالوت من الشُّرب منه، إلا من اغترف غرفة بيده، فيا سبحان الله! القوم يمرون على النهر وهم عطاش، وقد حذرهم نبيهم من الشرب منه إلا من اغترف غرفة بيده، والماء عذبٌ والقوم عطاش، وذاقوا طعم النهر بالغرفة التي اغترفوها منه، فلم يصبر أكثرهم عن الشُّرب، وهذا قول الله ع: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

أعود فأقول: إن هذا النوع من أنواع الابتلاء لا يكاد يُدرك ولا يتفطن له إلا الورعون الأتقياء البررة الأوفياء.

إن المرأة قد تُبتلى بهذا الابتلاء فترى مال زوجها أمامها والزوج لم يُتقن العدَّ ولم يحصه فتُسول لها نفسها ما تسوله، والمحفوظة من حفظها الله.

وقد يتغيب زوجها ويتردد عليها أخوه (الذي هو الحمو) الذي هو خطره وضرره كالموت، والشبهة مندفعة وأعين الناس لا تدرك ولا تكاد تدرك، وكل هذا من الابتلاء وكل ذاك من الفتن.

وكذا الرجل قد يتسضعف امرأته ويستضعف أهلها وينال منها بالسب والشتم والضرب والإهانة، ويخفى عليه أن الله كان عليًّا كبيرًا.

فعلى الجميع أن يراقب الله ويعلم أنه إن لم يكن يرى ربه فإن ربه يراه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩].

(أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) [هود: ٥].

فليعلم الجميع أن الله سميع، وأن الله بصير، وأن الله يرى.

س: ما الفرق بين خَلَفُ وخَلْفٌ؟

ج: قال عدد من أهل العلم: إن (الخَلَف) بالفتح المراد بهم الصالحون، والخَلْفُ السكون (أي بالجزم) المراد بهم الطالحون، والله أعلم.

س: من هؤلاء الخلفُ الذين أتوا من بعد هؤلاء الممسوخين قردة؟

ج: قيل: إنهم اليهود، وقيل النصارى، وقيل أعم من ذلك والله أعلم، وإن كانت القصة تفيد أنهم اليهود، فالله أعلم.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فخلف من بعد هؤلاء الذي ذُكر شأنهم خَلْفٌ (أي قوم سوء) ورثوا الكتاب الذي هو التوراة وكلفوا العمل به فضيَّعوه وخالفوا ما فيه، وأقبلوا على دنياهم ومتاعها الزائل الفاني، فقبلوا الرشوة، وغيروا وبدلوا وأكل أموال الناس بالباطل، ومع ذلك كله تغرُّهم الأماني ويقولون سيغفر لنا، فيقدمون استغفارًا قليلًا دون الإقلاع عن العمل السيء، بل يتقولون على الله بقولهم: (سيغفر لنا)، كما قالوا في آية أخرى: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ثم بعد ذلك، أي بعد قولهم سيغفر لنا، إذا جاءهم مثل هذا المُحرم الذي صنعوه أولًا، وقعوا فيه وارتكبوا المحرمات مرةً ثانية.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتبدَّل من بعدهم بَدَل سوء، ورثوا كتاب الله فعُلِّموه، وضيعوا العمل به، فخالفوا حكمه، يُرْشَون في حكم الله، فيأخذون الرشوة فيه من عَرَض هذا العاجل "الأدنى"، يعني بـ"الأدنى": الأقرب من الآجل الأبعد. ويقولون إذا فعلوا ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا، تمنيًا على الله الأباطيل، كما قال جل ثناؤه فيهم: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾، [البقرة: ٧٩] ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ ﴾، يقول: وإن

شرع لهم ذنبٌ حرامٌ مثله من الرشوة بعد ذلك، أخذوه واستحلوه ولم يرتدعوا عنه. يخبر جل ثناؤه عنهم أنهم أهل إصرار على ذنُوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا تَوْبة.

وأورد الطبري(١) بإسنادٍ حسن عن قتادة قال:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾، إي والله، لَخَلْفُ سَوْء ورثوا الكتابَ بعد أنبيائهم ورسلهم، ورَّثهم الله وَعهِد إليهم، وقال الله في آية أخرى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٩]، قال: ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾، تمنوا على الله أمانيّ، وغِرّةٌ يغترُّون بها.

﴿ وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ ﴾، لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم عن ذلك، كلما أشرف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالا كان أو حرامًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ فَخَلَفَ ﴾ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِينَ فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ﴿ خَلۡفٌ ﴾ آخَرُ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَقَدْ ﴿ وَرِثُواْ ﴾ دِرَاسَةَ هَذَا ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وَهُوَ التَّوْرَاةُ ؟

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُمُ النَّصَارَى -وَقَدْ يَكُونُ أَعَمَّ مِنْ ذَلِكَ، ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ أَيْ: يَعْتَاضُونَ عَنْ بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدنيا، ويسرفون أَنْفُسَهُمْ وَيَعِدُونَهَا بِالتَّوْبَةِ، وَكُلَّمَا لَاحَ لَهُمْ مِثْلُ الْأَوَّلِ وَقَعُوا فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ ﴾ كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْمَلُونَ الذَّنْبَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ مِنْهُ، فَإِنْ عَرَضَ ذَلِكَ الذَّنْبُ أَخَذُوهُ.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي: انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف، فيخرج في الكتاب ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه التوراة. **والثاني**: الإنجيل. **والثالث**: القرآن.

---

(١) الطبري (١٥٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: هذه الدنيا، وهو ما يعرض لهم منها. وقيل: سماه عرضاً، لقلة بقائه. قال ابن عباس: يأخذون ما أحبوا من حلال أو حرام. وقيل: هو الرِّشوة في الحكم. وفي وصفه بالأدنى قولان: أحدهما: أنه من الدُّنُوِّ. والثاني: أنه من الدناءة.

قوله تعالى: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المعنى: إنا لا نؤاخَذ، تمنِّيًا على الله الباطلَ.

والثاني: أنه ذنْب يغفره الله لنا، تأميلاً لرحمة الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: لا يشبعهم شيء، فهم يأخذون لغير حاجة، قاله الحسن. والثاني: أنهم أهل إصرار على الذنوب، قاله مجاهد.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾.

ج: هذا والله تعالى أعلم، توبيخ لبني إسرائيل الذين غيَّروا وبدَّلوا وحرَّفوا ورضوا بالحياة الدنيا فقبلوا الرشوة وغيَّروا الأحكام مقابل متاع زائل قليل فإنٍ، فقيل على سبيل التوبيخ: ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين العصاة أكلة الحرام العهد والميثاق في الكتاب الذين بين أيديهم وهو التوراة، وقد تعلموها وقرؤوها، ألم يؤخذ عليهم العهد فيها أن يكونوا صادقين، وخاصة فيما ينقلون عن الله ﷻ، فلا ينقلون عن الله ﷻ إلا الحق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾، على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، القائلين: "سيغفر الله لنا فعلنا هذا"، إذا عوتبوا على ذلك ﴿عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل، بإقامة التوراة، والعمل بما فيها. فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذين قص قصتهم في هذه الآية، موبخًا على خلافهم أمرَه، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ولا يُضيفوا إليه إلا ما

أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه؟

وقال أيضًا:

وأما قوله: (وَدَرَسُوا مَا فِيهِ)، فإنه معطوف على قوله: (وَرِثُوا الْكِتَابَ)، ومعناه: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ)، (وَدَرَسُوا مَا فِيهِ) ويعني بقوله: (وَدَرَسُوا مَا فِيهِ)، قرأوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتاب فعلموا ما فيه ودرسوه، فضيعوه وتركوا العمل به، وخالفوا عهد الله إليهم في ذلك.

وقال ابن كثير رحمه الله:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: (أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ) يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا، مَعَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ لَيُبَيِّنُنَّ الْحَقَّ لِلنَّاسِ، وَلَا يَكْتُمُونَهُ كَقَوْلِهِ: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ).

س: ما الفائدة من الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾؟

ج: المستفاد من ذلك: بيان شدة عناد بني إسرائيل فضلًا لهم لم يكن عن جهلٍ، بل كان عن علمٍ وقراءة ودراسة، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وما في الدار الآخرة من النعيم المقيم، ومن قرة العين التي لا تنقطع مما أُعد للمتقين الذين اتقوا الشرك واتقوا الحرام. ما هم خيرٌ لهم وأبقى مما في هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة.

قال الطبري رحمه الله:

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: وما في الدار الآخرة، وهو ما في المعادِ عند الله، مما أعدّ لأوليائه، والعاملين بما أنزل في كتابه، المحافظين على حدوده ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ويخافون عقابه، فيراقبونه في أمره ونهيه، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقول: أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون عرض

هذا الأدنى على أحكامهم، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، أنَّ ما عند الله في الدار الآخرة للمتقين العادِلين بين الناس في أحكامهم، خير من هذا العرض القليل الذي يستعجلونه في الدنيا على خلافِ أمر الله، والقضاء بين الناس بالجور؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يُرَغِّبُهُمْ تَعَالَى فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، أَيْ: وَثَوَابِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى الْمَحَارِمَ، وَتَرَكَ هَوَى نَفْسِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَقُولُ: أَفَلَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِي عَقْلٌ يَرْدَعُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَهِ وَالتَّبْذِيرِ.

س: اذكر بعض الآيات الدالة على أن الآخرة خيرٌ لأهل الإيمان من الدنيا.

ج: تلك آيات كثيرة جدًّا، منها:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

ج: هذا ثناء من الله ﷻ على أهل الاستقامة الاتباع والتمسك بالعهود والمواثيق الواردة في التوراة والعاملين بما فيها، فيقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يعملون بما فيه ويقتدون بأوامره وينزجرون عن نواهيه، ومع ذلك فهم مقيمون للصلاة مديمون لها محافظون عليها، فإنا لا نضيع أجورهم ولا نحبط أعمالهم، بل أجرهم وأجر كل مُصلحٍ مدخرٌ لهم يوم القيامة ومحفوظ وسيثاب عليه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أثنى تعالى على مَنْ تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾.

وقال القاسمي في «تفسيره»:

(وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي يتمسكون به في أمور دينهم. يقال: مسّك بالشيء وتمسك به.

وقرئ (يُمَسِّكُونَ)، من (الإمساك) وتمسكوا واستمسكوا (وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ) من وضع الظاهر موضع المضمر، تنبيها على أن الإصلاح كالمانع من التضييع، لأن التعليق بالمشتق يفيد علة مأخذ الاشتقاق فكأنه قيل: لا نضيع أجرهم لإصلاحهم. فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت؟ أجيب: بأن إفرادها، إظهارا لمزية الصلاة- لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان.

قال الجشمي: تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب، ووعد من تمسّك به، تنبيها لنا وتحذيرا عن سلوك طريقتهم. وتدل على أن الاستغفار باللسان، وتمني المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل.

س: في الآية الكريمة إشارة إلى فضل الصلاة، وضح ذلك.

ج: إيضاحه -والله أعلم-، أنها ذُكرت تنصيصًا عليها وعطفًا بعد ذكر التمسك بالكتاب، فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ يتضمن إقامة الصلاة، لكنها ذكرت تنصيصًا مرةً تذكيرًا بأهميتها، والله أعلم.

قَالَ تَعَالَى:
وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ
مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧١ وَإِذْ أَخَذَ
رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا
مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ
١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٧٤

الكلمة	معناها
﴿نَتَقْنَا﴾	رفعنا – اقتلعنا.
﴿ظُلَّةٌ﴾	مظلة كالسحاب الذي يستظل به.
﴿وَظَنُّوٓاْ﴾	أيقنوا.
﴿وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾	ساقط عليهم.
﴿بِقُوَّةٍ﴾	بجدٍ واجتهاد.
﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾	تذكروا ما فيه.
﴿أَن تَقُولُواْ﴾	لئلا تقولوا – كي لا تقولوا.

رَفعُ الجَبَل فوقَ بَني إسْرائيل

س: هل رفع الجبل فوق القوم حقيقةً؟

ج: نعم رفع الجبل بعد أن اقتلع من أصله فأصبح فوقهم كالسحاب الذي يستظل به وهددوا بسقوطه عليهم. وهذه آية عظيمة بلا شكٍّ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، واذكر إذا اقتلعنا الجبل من أصله ورفعناه فوق بني إسرائيل لما رفضوا أن يعملوا بالتوراة فأصبح الجبل فوقهم كالمظلة التي يستظل بها، ثم ألزمهم

الله ﷻ العمل بالتوراة فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي: أقبلوا على التوراة بجد واجتهاد ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الشرائع والأحكام والعهود والمواثيق التي أُلزمتهم بها ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ كي تتقوا ربكم ﷻ فتجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر، يا محمد، إذ اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظلال وقلنا لهم: (خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ)، من فرائضنا، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، اعملوا باجتهاد منكم في أدائه، من غير تقصير ولا توانٍ (وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ)، يقول ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه (لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ)، يقول: كي تتقوا ربكم، فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المَواثيق.

وأورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ بإسنادٍ حسن عن قتادة:

(وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ) أي: بجد (وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ) جبل نزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذُنَّ أمري، أو لأرمينَّكم به!

أخذ الميثاق على بني آدم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

ج: لأهل العلم في هذا قولان مشهوران:

۞ أولهما وأشهرهما: والذي عليه أكثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين أن الله ﷻ أخرج ذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ظهره (أو من صلبه) ونثرهم بين يديه ﷻ وأشهدهم على أنفسهم (أي: أشهد بعضهم على بعض) ألست بربكم؟ فقالوا مقرِّين بربوبيته وتوحيده بلى، أي: أنك ربنا وحدك لا شرك لك.

۞ وجاءت أحاديث وآثار تفيد هذا المعنى وتقويه- أعني أنها تفيد أن الله ﷻ أخذ الميثاق على بني آدم وهم في صلب آدم أو بعد أن استخرجهم من صلبه ونثرهم

بين يديه ﷻ- وهذا الوجه قويٌّ، وإن كان عليه بعض الاعتراضات نذكرها إن شاء الله ﷻ بعد ذكر الوجه الثاني، وكذا بعد ذكر بعض الأحاديث والآثار الواردة في هذا الباب والتي أشرنا إليها.

وعند ذكر بعض هذه الاعتراضات -أو أقواها- أورد إن شاء الله الجواب عليها قدر الاستطاعة، والله المستعان، والله المستعان، وكذا أُورد شيئًا من أقوال أهل العلم في هذا الصدد.

ثانيهما: أعني القول الثاني في تفسير الآية الكريمة، حاصله أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

معناه أن الله ﷻ استخرج الأبناء من صلب الآباء في هذه الحياة الدنيا(١) قرنًا بعد قرنٍ وجيلًا بعد جيل كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ فلما خرجنا شهدنا بفطرتنا التي فطرنا الله عليها ﷻ بالوحدانية والربوبية، وهذا لا يستلزم نطقًا من الخلق بلسانهم، بل كانت فطرهم شاهدةً بذلك، وكان لسان الحال يشهد لله ﷻ بالربوبية وعدم الشرك قالوا ويجوز أن يطلق على شهادة الحال أنها قولٌ بدليل الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أي أن لسان حالهم يقول: إنهم كفار لامتناعهم عن إعمار مساجد الله ونحوه في التنزيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي أن الإنسان لسان حاله يدل على جحوده.

قال أصحاب هذا القول: ويدل على ما ذُكِرَ قوله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَة»(٢). والآيات والأحاديث التي في معناها.

وهذا الوجه قال به الحافظ ابن كثير خ وانتصر له، وعُورِضَ من غيره بشدةٍ رحمهم الله.

أما القول الأول فهو قول سلف الأمة كما قدمت من الصحابة والتابعين، وله تشهد الآثار والأحاديث التي سنشير إليها بإذن الله.

---

(١) وهذا يتأتى بالجماع ثم الولادة كما هو مشاهد.
(٢) صحيح: وقد تقدم.

هذا، ومما أورده الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من العلماء من وجوه اعتراضات على القول الأول ما يمكن تلخيصه في الآتي:

أولًا: قالوا: إننا لا نذكر هذا الميثاق الذي أُخذ علينا بعد أن استُخْرِجْنَا من ظهر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكيف يحتج علينا بشيءٍ لا نذكره؟!

ثانيًا قالوا: إن الله قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل من آدم.

ثالثًا: إن الله ﷻ قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره. هذه أشهر وجوه الاعتراض.

أما عن الإجابة عليها فيمكن تلخيصها في الآتي:

أولًا: كوننا لا نذكر هذا الميثاق، لا يضر في شيءٍ؛ لأن الله ذكرنا به في كتابه الكريم، فتذكيرنا به في كتاب الله ﷻ علينا، فكم من أمر لا نذكره ولم نره ومع ذلك لما ذكَّرنا الله ﷻ به على ألسنة رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام صدقنا بما أخبرنا به الله ﷻ كالمعجزات التي حدثت للأنبياء من قبلنا وكالذي تُخبر به من أن الأمور مقدرة وأنه ثمَّ ملائكة كرام، إلى غير ذلك.

ثانيًا: قولهم: إن الله ﷻ قال: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل من آدم، فالجواب عليه بأن الخلائق -البشر- كلهم آنذاك كانوا في صلب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والله على كل شيءٍ قدير.

ثالثًا: وكذلك القول في: (ظُهُورِهِمْ) فكل البشر كانوا في ظهر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

۞ هذا، والذي يعكر على القول الثاني الذي قدمنا ذكره، وحاصله: أن المراد البشر الذين يخلقون جيلًا بعد جيل، وأن الإشهاد كان بلسان الحال وليس بلسان المقال فقولٌ بعيد عن الصواب لأمور منها:

أولًا: مخالفته الصريحة لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

ثانيًا: أن الإنسان لو كان بفطرته شاهدًا على نفسه فقط لم يحتج إلى إرسال الرسل، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وإنما أرسلت الرسل للتذكير بالمأخوذ عليهم في صلب آدم كما أشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾.

ثم ها هي بعض الأحاديث والآثار التي وعدنا بسياقها، ثم أقوال بعض أهل

العلم في ذلك، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا الله:

أخرج البخاري ومسلم(١) من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ ع لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ».

وعند الترمذي من حديث عمر رضي الله عنه، وقد سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ العَمَلُ؟» قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ اللهُ الجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ اللهُ النَّارَ»(٢).

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر. وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلًا مجهولًا.

وأخرج الطبري وغيره من طريق كلثوم بن جبر عن سعيد بن جُبير ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال(٣): «أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ يَعْنِي عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ فَتَلَا فَقَالَ: (أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ) الآيَةَ إِلَى (بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ)».

۞ لكن هذا الخبر أُعِلَّ بالوقف، فقد عقب الطبري هذه الرواية المرفوعة برواية

---

(١) البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم – واللفظ له- (٢٨٠٥).
(٢) الترمذي (٣٠٧٥).
(٣) الطبري (١٥٣٤٩).

هي أصح عن كُلثوم (١) بن جبر قال: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَالَ: سَأَلْتُ عَنْهَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: «مَسَحَ رَبُّكَ ظَهْرَ آدَمَ، فَخَرَجَتْ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِنَعْمَانَ هَذَا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

وهذا الموقوف أصح فقد رواه الأثبت والأوثق موقوفًا وهو الذي اختاره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (٢).

وأخرج الطبري (٣) وغيره من طريق أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك وعن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: أُخِذُوا مِنْ ظَهْرِهِ كَمَا يُؤْخَذُ بِالْمُشْطِ مِنَ الرَّأْسِ فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قَالَتِ الملائِكَةُ: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾.

۞ وهذا الإسناد أُعلَّ بالوقف كما أشار إلى ذلك الطبري وغيره (٤) فقد رواه عن سفيان قوم فأوقفوه على ابن عمرو ولم يرفعوه إلى رسول الله ﷺ وكذا رُويَ من وجوه أُخر عن ابن عمرو موقوفًا.

وهذا مزيدٌ من أقوال أهل العلم:

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وكما أسلفت فرأيه مخالف لرأي الصحابة والتابعين

---

(١) الطبري (١٥٣٥٠).

(٢) قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب «التفسير» من سننه: عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حسين بن محمد المروزي، به.

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفًا وأخرجه الحاكم في «مستدركه» من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جبر به، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وفي احتج مسلم بكلثوم بن جبر، هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فوقفه، وكذا رواه إسماعيل بن علية ووكيع، عن ربيعة بن كلثوم، عن جبير، عن أبيه به، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله: وكذا رواه العوفي وعن ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم.

(٣) الطبري (١٥٣٦٥)، وقد روي هذا الحديث في كتاب «التفسير» من سننه عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة إلى آخره.

(٤) انظر الآثار (١٥٣٦٦) فما بعدها.

في المسألة، وأراه رَحِمَهُ اللَّهُ قد جانب الصواب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ، شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ- فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**» وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ، عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**».

وأورد رَحِمَهُ اللَّهُ كما في الأحاديث والآثار: في الباب عمومًا، وأكثر من إيراد الأحاديث والآثار التي تشهد للقول الأول ثم قال: فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، فَمَا هُوَ إِلَّا فِي حَدِيثِ كُلْثُومِ بْنِ جَبْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُمَا مَوْقُوفَانِ لَا مَرْفُوعَانِ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ(١): إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فَطْرِهم عَلَى التَّوْحِيدِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِي، وَمِنْ رِوَايَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ. وَقَدْ فَسَّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ الْآيَةَ بِذَلِكَ، قَالُوا: وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْ آدَمَ» ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وَلَمْ يُقَلْ: «مِنْ ظَهْرِهِ» ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أَيْ: جَعَلَ نَسْلَهُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ وَقَالَ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ وَقَالَ: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

---

(١) هذا العزو ليس بدقيق، بل قد يوهم أن الأكثرية على ذلك، وإنما الأكثرية على خلاف ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا القول من الحافظ ابن كثير خ قد تعقبه عددٌ من العلماء ومن التعقيبات الجيدة التي صيغت بطريقة سهلة ما ذكره الشيخ محمد خليل هراس خ؛ إذ قال في كتابه التوحيد- بعد أن ذكر كلامًا طويلًا.

من تفسير ابن كثير:

قال رَحِمَهُ اللهُ: ونحن رغم هذه المحاولات من جانب ان كثير وتلميذه لمناصرة هذا الرأي الثاني نرى أنه بعيد عن ظاهر الآية، وأن القول به يحتاج إلى كثير من التكلف في تأويلها، فلا بد فيه من تأويل الأخذ من الظهور بالإبراز إلى الوجود وتأويل الأشهاد بنصب الأدلة وتأويل شهادتهم على أنفسهم بإقرار الفطرة...إلخ.

كما أننا لا نعرف أحدًا من السلف قال به بل كل كلامهم فيما يوافق الرأي الأول الذي هو أقرب إلى منزعهم في الباسطة وعدم التكلف.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ أيضًا:

وأما ما احتجَّ به ابن كثير وغيره من أن الأحاديث فيها أخذ الذُّرية من ظهر آدم نفسه، وأما الآية فتصرح بأن الآخذ من ظهور بني آدم، فيكون الأخذان متغايرين، وبذلك لا تصلح الأحاديث حجة في تفسير الآية.

فهذا احتجاج في غاية الضعف، فإن أخذ الذرية من ظهور بني آدم قبل خلقهم هو بعينه أخذها من ظهر آدم، إذ هو الأصل الذي تجمعت فيه بالقوة كل أفراد النوع الإنساني، وقد علم الله كل ما سيخرج منه من ذرية إلى يوم القيامة فاستخرجها وأشهدها.

وأما احتجاجهم بأن مثل هذا الإشهاد لا يصلح أن تقوم به حجة لأن أحدًا ممن أخذ عليهم هذا الميثاق لا يذكره مع أن الآية تفيد أن الله احتج عليهم به، فلا بد أن يكون إشهادًا تقوم به الحجة.

فنقول لهم: إن الحجة ليست في نفس الإشهاد بل في تذكيرهم به على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتكذيبهم للرسل لا ينفي قيام الحجة عليهم، فإنهم قد كذبوا بالمعجزات التي جاءت بها رسلهم، مع أن الحجة قد لزمتهم بها، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾؛ إذ المعنى- والله

أعلم – ذكرنا كم بهذا الميثاق في كتابنا وعلى لسان رسولنا، حتى لا تحتجوا يوم القيامة بأنكم كنتم عنه غافلين لا تذكرونه، وحتى لا تحتجوا بأنكم وجدتم آباءكم مشركين فقلدتموهم في شركهم وضلالهم.

وإني لأعجب كيف ينزع رجل سلفي النزعة كابن كثير إلى مناصرة هذا الرأي وينسبه إلى السلف.

ولعل الفخر الرازي كان أدق منه حين نسب الرأي الأول إلى أهل السنة والثاني إلى المعتزلة، والله أعلم.

وقال الشنقيطي خ في «مجالس التفسير»:

في معنى الآية الكريمة وتفسيرها:

واذكر يا نبي الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ حين أخذ ﴿رَبُّكَ﴾ جلَّ وعلا.

﴿رَبُّكَ﴾ معناه: خالقك وسيدك ومدبر شؤونك؛ والرب يطلق في لغة العرب على عشرة معانٍ، منها: السيِّد الذي يدبّر الشئون ويسوس الأمور، تقول العرب: «فلان رب هذه البلدة» أي: سيدها الذي يدبر شؤونها ويسوس أمورها، ومنه قول علقمة بن عَبَدة التميمي:

وكنتُ أمرأً أفضتُ إليكَ رَبَابَتِي وقبلكَ رَبَّتْنِي فَضِعْتُ ربوبُ

أي: سادتني سادة وساسوني.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ من أولاد أبينا آدم.

وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بدل بعضٍ من كل.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف ابن كثير والكوفيون- أعني عاصمًا، وحمزة، والكسائي-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بصيغة الإفراد، والذرية بالإفراد تعم، وقرأه نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بجمع السلامة.

وكلتاهما قراءة صحيحة متواترة ومعناها صحيح.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ اختلف العلماء في معنى هذا الأخذ- أخذ الذرية- من ظهور بني آدم على قولين: فذهبت جماعة من المفسرين إلى أن معنى

أخذهم من ظهور بني آدم وجودهم قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيل، على طريق التَّناسل، والمعنى: أن الله خلق بني آدم وخلق من هؤلاء ذرِّيةً، فينقضي هذا القرن ويخلق من هذا القرن ذرية كما قال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وعلى هذا القول فالأخذ من ظهورهم: هو استخراج النطف من أصلابهم على طريق التناسل قرنًا بعد قرن.

وعلى هذا القول فقوله: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الذين قالوا هذا القول قالوا: أشهدهم على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الله نصب لهم من الأدلة الواضحة الظاهرة على كمال قدرته وأنه المعبود وحده ما لا يُحتَاج معه إلى شيء ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ يعني: أَثْبَتَ لهم ربوبيته واستحقاقه للعبادة بما ركز فيهم من الفطرة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة، وعلى هذا القول فقوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قالوا ذلك أيضًا بلسان حالهم، والعرب قد تطلق المقال على مقال لسان الحال، قال بعض العلماء: منه قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [التوبة: ١٧] أي: بلسان حالهم- على القول بذلك – ومنه قوله: (وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ) [العاديات: ٧] أي: بلسان حاله عند من يقول ذلك.

والذين قالوا هذا القول –واختاره غير واحد من المحققين المتأخرين- قالوا: الدليل على أن هذا هو المراد أن الله لم يخلق أحدًا من بني آدم ذاكرًا الميثاق ليلة الميثاق وهم كالذر، وما لا يذكره الإنسان لا يكون حجة عليه، وهذا كأنه جُعل حجة مستقلة عليه، كم يدل عليه قوله: ﴿شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] فعلى هذا القول فأخذ الذريات من ظهور بني آدم هو إيجادهم منهم قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيلٍ عن طريق التناسل المعروف.

وعلى هذا القول فالإشهاد عليهم بلسان الحال بما نصب لهم من الأدلة،وما ركز فيهم من الفطرة.

واختار هذا ابن كثير، والزمخشري، وغير واحدٍ م المتأخرين.

القول الثاني: وعليه أكثر المتقدمين من السلف، وهو الذي يدل له بعض

الأحاديث الصحيحة، والقرآن قد يُرْشِدُ إليه: أنه هو الأخذ يوم الميثاق المعروف، أن الله ع أخذ من ظهر آدم ومن ظهور ذرياته كل نسمةٍ سبق في علمه أنها مخلوقة إلى يوم القيام، فأخذهم بيده- جل وعلا- بعضهم للجنة وبعضهم للنار، وجعل فيهم إدراكًا وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: بلى.

إلاَّ أن هذا العهد لا يولد أحد إلا وهو ناسٍ له، والله –جلَّ وعلا- أرسل الرسل يُذَكرون بهذا ا لعهد، وما ثبت عن الرسل هو وما حضره الإنسان في التحقيق واحد؛ لأن ما قاله رسول الله ﷺ نحن نجزم بوقوعه أشد مما نجزم بما شاهدناه ولاحظناه وتذكرناه.

وهذا القول قال به ابن كثير من السلف، ودلت عليه أحاديث كثيرة من أصحها وأدلها عليه ما ثبت في «الصحيحين»- «صحيح البخاري وصحيح مسلم»- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي**».

فهذا الحديث ثابتٌ في «الصحيحين» من حديث أنس، وقد ذكر فيه النبي ﷺ أن عدم الإشراك أُخِذ عليهم وهم في ظهر آدم، فدل لك على أن قوله: (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) أنه استخرج الله لهم وإشهاد عليهم، ثم ردَّهم في ظهر أبيهم آدم.

ومما يدل على هذا: أن الذين قالوا: إنَّ معنى أخذهم من ظهورهم: هو تناسلهم قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيل، أنهم جعلوا ما ركب فيهم من الفطرة السليمة والعقول، وما نُصِبَ لهم من الأدلَّة القطعية كافيًا في قيام الحجة عليهم.

والقرآن يدل على عدم صحَّة هذا القول؛ لأن القرآن العظيم- وهو كلام ربِّ العالمين- دلَّ على أنه لا يُقطع عذرُ أحد بنصب الأدلة،وتركيز الفطرة، وخلق العقول؛ بل لا ينقطع عذر بني آدم إلا بإرسال الرسل في دار الدنيا، وإنذارهم مؤيَّدين بالمعجزات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ **[الإسراء: ١٥]** ولم يقل: حتى نخلق عقولًا ونركز أدلة وننصب فطرة.

لم يقل شيئًا من هذا، وقال جلَّ وعلا: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥] فبيَّن أن حجة الناس لا يقطعها إلا إعذار الرسل وإنذارهم له.

وهذه الحجة التي بيَّن في «سورة النساء» أنه أرسل الرسل لقطعها بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ أوضحها في أُخريات «سورة طه» وأشار لها في «القصص»، قال في «سورة طه»: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] ولم يقل: لولا خلقت لنا عقولًا، ونصبت لنا أدلة، وركَّبت فينا فِطَرًا.

لم يقل شيئًا من هذا. وأشار في «القصص» بقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]؛ لأنه قال: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ ولم يقل: لولا خلقت لنا عقولًا: وركزت فينا فطرة، ورتبت لنا أدلة.

لم يقل شيئًا من هذا. وقد صرَّح -جلَّ وعلا- بأن جميع أفواج النَّار الذين يدخلونها يوم القيامة أنهم جميعهم أنذرتهم الرسل في دار الدنيا، وقطعت أعذارهم قبل الموت، وذلك في قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩] فقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ يدل على أن جميع الأفواج التي دخلت النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا، وقد صرَّح الله بذلك في «سورة الزمر» التي ذكر فيها القيامة كأنك تنظر إليها، قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] وكذلك لما قسم الله -جل وعلا- الخلائق قسمين في سورة فاطر جعل المسلمين ثلاث طوائف في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢] ثم ذكر الكفار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ

صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧] فقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ هو محل الشاهد و﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ عام لما تقرَّر في الأصول أن صيغ الموصولات أنها من صيغ العموم؛ لأن الموصول من المعلوم أنه يعم كل ما تشمله صلته كما هو معروف في محله.

وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ على القول الأول: بلسان الحال، وعلى الثاني: بلسان الحال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أنت ربنا.

انتهى المراد:

ونحو هذا الكلام الذي ذُكِرَ عن الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» ذكر أيضًا في «أضواء البيان».

واجتزئ في هذا المقام بهذا القدر، والذي اختاره هو ما ذهب إليه سلف الأمة كالحبر الكريم ابن عباس وابن عمرو رضي الله تعالى عنهما ومن تبعهما، أما رأي الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو مرجوح عندي، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾.

ج: قال بعض أهل العلم: معنى ذلك أنه عَزَّوَجَلَّ أشهد بعضهم على بعض، فالنفس قد تطلق ويُراد بها الآخرون كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ولا تلمزوا إخوانكم.

وكما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: بإخوانكم

وكما قال تعالى: (فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) أي: فليقتل بعضكم بعضًا....

وقال غيرهم: بل كلُّ أقرَّ على نفسه بأنه يشهد لله عَزَّوَجَلَّ بالواحدانية وبأنه لا شريك له.

وثمَّ قول آخر لبعض أهل العلم في تفسير قوله تعالى: (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) أي: أنه عَزَّوَجَلَّ أوجدهم وخلقهم شاهدين على أنفسهم بذلك مُقرين به.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

---

(١) وقوله مجانب للصواب كما بينته.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أَيْ: أَوجدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ، قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا. وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْقَوْلِ، كقوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ الْآيَة، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أَيْ: حَالُهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالْقَالِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِالْحَالِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قَالُوا: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا هَذَا، أَنْ جَعَلَ هَذَا الْإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الْإِشْرَاكِ، فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَهُ مَنْ قَالَ لَكَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَذْكُرُهُ، لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِ. فَإِنْ قِيلَ: إِخْبَارُ الرَّسُولِ بِهِ كَافٍ فِي وُجُودِهِ، فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُكَذِّبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ. وَهَذَا جَعَلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْفِطْرَةُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أَيْ: لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ أَيْ: [عَنِ] التَّوْحِيدِ ﴿غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الْآيَة.

س: من القائل: ﴿شَهِدْنَا﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن قائل ذلك هم بنو آدم، أقرَّ بعضهم على بعضٍ وشهد بعضهم على بعضٍ حين أشهد الله بعضهم على بعضٍ.

الثاني: أنَّ قائل ذلك هم الملائكة فلمَّا قال الله ﷻ لبني آدم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، فقالت الملائكة حينئذٍ شهدنا، أي: شهدنا على إقراركم واعترافكم بالربوبية لله ﷻ يا بني آدم.

الثالث: أن قائل ذلك هو الله ﷻ.

الرابع: أن قائل ذلك هو الله ﷻ وملائكته عليهم السلام.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- أننا أخذنا عليكم الميثاق وأشهدنا بعضكم على بعض، وكذلك شهدنا نحن عليكم وكذا شَهِدت عليكم الملائكةُ بأنكم أقررتم لله ﷻ بالواحدانية؛ لئلا تعتذروا يوم القيامة قائلين: إنا كنا لا نعلم ذلك، فقد كنا في غفلةٍ منه.

فها نحن قد ذكَّرناكم به في الدنيا مرة ثانية بعد أن أخذناه عليكم وأنتم في الأصلاب والظهور حتى لا تعتذروا يوم القيامة بقولكم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، وكذا حتى لا تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل فاتبعناهم وسرنا على نهجهم لجهلنا بالميثاق، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ أفتعذبنا بما فعل المبطلون الذين شهدوا بالباطل أن الله له شريك، وادعوا- باطلًا- أن الله ﷻ معه إله آخر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم[١] أيها المقرُّون بأن الله ربكم، كيلا تقولوا يوم القيامة: (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)، إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلة منه (أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ)، اتبعنا منهاجهم (أَفَتُهْلِكُنَا)، بإشراك من أشرك من أبائنا، واتباعنا منهاجَهم على جهل منا بالحق؟ ويعني بقوله: (بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ)، بما فعل الذين أبطلوا في دَعواهم إلهًا غير الله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- وكما بيَّنا في هذه السورة قصص الأولين وما حلَّ بهم وما نزل، وكيف وأن العاقبة كانت للمتقين نبيِّن أيضًا العهود المأخوذة على عموم بني آدم وهم في أصلاب آبائهم لعل بني آدم الذين أشركوا يرجعوا عن شركهم إلى توحيد ربِّهم ﷻ وخالقهم جلَّ وعلا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وكما فصلنا يا محمد لقومك آيات هذه السورة، وبيّنا فيها ما

---

(١) هذا مصيرٌ إلى أنه اختار الرأي القائل بأن (شَهِدْنَا) هي من قول الله عزَّ وجل أنه الشاهد على هذا الإقرار، وثمَّ- كما قدمت- أقوالًا أخر.

فعلنا بالأمم السالفة قبلَ قومك، وأحللنا بهم من المَثُلات بكفرهم وإشراكهم في عبادتي غيري، كذلك نفصل الآيات غيرِها ونبيّنها لقومك، لينزجروا ويرتدعوا، فينيبوا إلى طاعتي ويتوبوا من شركهم وكفرهم، فيرجعوا إلى الإيمان والإقرار بتوحيدي وإفراد الطاعة لي وترك عبادة ما سواي.

قَالَ تَعَالَىٰ: وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ
أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ
عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ
فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨ وَلَقَدۡ
ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ
أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩

الكلمة	معناها
﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ ﴾	وقصّ عليهم- اقرأ عليهم.
﴿ نَبَأَ ﴾	خبر- قصة.
﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ ﴾	أعطيناه- علمناه.
﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾	حججنا ودلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا (وقيل: المراد اسم الله الأعظم).
﴿ فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾	فخرج منها – تبرأ منها وتركها- نُزع منه العلم.
﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾	فصيَّره الشيطان تابعًا له- استحوذ عليه وغلبه على أمره (مهما أمره الشيطان امتثل وأطاع).
الكلمة	معناها

﴿أَخْلَدَ﴾	سكن- رضي بالدنيا ولذاتها.
﴿تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾	تطرده- تدفعه برجلك أو بحجرٍ.
﴿يَلْهَثْ﴾	يخرج لسانه من التعب والعطش.
﴿سَآءَ مَثَلًا﴾	قبح مثلهم- بئس مثلهم.
﴿ذَرَأْنَا﴾	خلقنا.
﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾	لا يفهمون- لا يعقلون.

س: لقد ذمَّ الله ﷻ حملة الكتاب الذين لا يعملون به والذي يتعمدون مخالفته شر ذمٍّ وضرب لهم شرَّ مثلٍ وضح ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

۞ قوله تعالى: (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ)، فضرب لهم مثلٌ بالكلب.

۞ وكذا ضُرب لهم مثلٌ بالحمار قال تعالى: (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ).

۞ وقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ).

خَبَرُ الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها

س: من هذا الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها؟

ج: لم يرد - فيما علمت - لهذا الرجل اسمٌ في كتاب الله ولا في الثابت الصحيح من سُنَّة رسول الله ﷺ، وإن كان أكثر أهل العلم عل أنه رجل من بني إسرائيل يُقال له بلعم [١]، وقال بعضهم: بلعام واختلفوا أيضًا في اسم أبيه هل هو (أَبر) [٢] أم أنه (باعر) أم أنه (باعوراء).

وقال آخرون من أهل العلم: إنه أمية بن أبي الصلت [٣] الذي كاد أن يسلم ولكنه كفر، وهو رجل من ثقيف وكل ذلك كما أسلفت لم يأت به نص من الكتاب العزيز أو السُّنة المباركة.

هذا، وقد وردت في شأن هذا الرجل الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها جملة آثار لا يثبت منها شيءٌ عن رسول الله ﷺ: وأغلبها مقطوعات (موقوفات على التابعين) ضعيفة الأسانيد أُورد بعضها، وأُعرض عن أغلبها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ، يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ، بَعَثَهُ نَبِيُّ اللهِ مُوسَى إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ يَدْعُوهُ إِلَى اللهِ، فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبِعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِينَ مُوسَى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وأورد ابن كثير أثرًا بسندٍ ضعيف عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وعزاه ابن كثير إلى ابن أبي حاتم، وحكم عليه بالغرابة وفيه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾ قال: هو رجل أُعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدة.

قال: فَلَكِ وَاحِدَةٌ، فَمَا الَّذِي تُرِيدِينَ؟ قَالَتْ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي أَجْمَلَ امْرَأَةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا اللهَ، فَجَعَلَهَا أَجْمَلَ امْرَأَةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا عَلِمَتْ أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ مِثْلُهَا رَغِبَتْ عَنْهُ، وَأَرَادَتْ شَيْئًا آخَرَ، فَدَعَا اللهُ أَنْ يَجْعَلَهَا كَلْبَةً، فَصَارَتْ كَلْبَةً،

(١، ٢) وقد صح هذا عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند الطبري وعبد الرزاق وغيرهم.

(٣) روي ذلك عن عبد الله بن عمرو. رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عند الطبري وغيره.

فَذَهَبَتْ دَعْوَتَانِ. فَجَاءَ بَنُوهَا فَقَالُوا: لَيْسَ بِنَا عَلَى هَذَا قَرَارٌ، قَدْ صَارَتْ أُمُّنَا كَلْبَةً يُعَيِّرُنَا النَّاسُ بِهَا، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَى الْحَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا، فَدَعَا اللهَ، فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ، فَذَهَبَتِ الدَّعْوَاتُ الثَّلَاثُ، وَسُمِّيَتِ الْبَسُوس.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ سَالِمٍ أَبِي النَّضْرِ؛ أَنَّهُ حَدَّثَ: أَنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا نَزَلَ فِي أَرْضِ بَنِي كَنْعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، أَتَى قَوْمُ بَلْعَامَ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: هَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ جَاءَ يُخْرِجُنَا مِنْ بِلَادِنَا وَيَقْتُلُنَا وَيُحِلُّهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّا قَوْمُكَ، وَلَيْسَ لَنَا مَنْزِلٌ، وَأَنْتَ رَجُلٌ مُجَابُ الدَّعْوَةِ، فَاخْرُجْ فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ. قَالَ: وَيْلَكُمْ! نَبِيُّ اللهِ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، كَيْفَ أَذْهَبُ أَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَأَنَا أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا أَعْلَمُ؟! قَالُوا لَهُ: مَا لَنَا مِنْ مَنْزِلٍ! فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرَقِّقُونَهُ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى فَتَنُوهُ فَافْتُتِنَ، فَرَكِبَ حِمَارَةً لَهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي يُطْلِعُهُ عَلَى عَسْكَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ جَبَلُ حُسْبَانَ، فَلَمَّا سَارَ عَلَيْهَا غَيْرَ كَثِيرٍ، رَبَضَتْ بِهِ، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أَذْلَقَهَا قَامَتْ فَرَكِبَهَا. فَلَمْ تَسِرْ بِهِ كَثِيرًا حَتَّى رَبَضَتْ بِهِ، فَضَرَبَهَا حَتَّى إِذَا أَذْلَقَهَا أَذِنَ اللهُ لَهَا فَكَلَّمَتْهُ حُجَّةً عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: وَيْحَكَ يَا بَلْعَمُ: أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَمَا تَرَى الْمَلَائِكَةَ أَمَامِي تَرُدُّنِي عَنْ وَجْهِي هَذَا؟ أَتَذْهَبُ إِلَى نَبِيِّ اللهِ وَالْمُؤْمِنِينَ لِتَدْعُوَ عَلَيْهِمْ؟ فَلَمْ يَنْزِعْ عَنْهَا يَضْرِبُهَا، فَخَلَّى اللهُ سَبِيلَهَا حِينَ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ بِهِ عَلَى رَأْسِ حُسْبَانَ، عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، جَعَلَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِشَرٍّ إِلَّا صَرَفَ اللهُ لِسَانَهُ إِلَى قَوْمِهِ، وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صَرَفَ لِسَانَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتَدْرِي يَا بَلْعَمُ مَا تَصْنَعُ؟ إِنَّمَا تَدْعُو لَهُمْ، وَتَدْعُو عَلَيْنَا! قَالَ: فَهَذَا مَا لَا أَمْلِكُ، هَذَا شَيْءٌ قَدْ غَلَبَ اللهُ عَلَيْهِ! قَالَ: وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الْآنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمَكْرُ وَالْحِيلَةُ، فَسَأَمْكُرُ لَكُمْ وَأَحْتَالُ، جَمِّلُوا النِّسَاءَ وَأَعْطُوهُنَّ السِّلَعَ، ثُمَّ أَرْسِلُوهُنَّ إِلَى الْعَسْكَرِ يَبِعْنَهَا فِيهِ، وَمُرُوهُنَّ فَلَا تَمْنَعُ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا مِنْ رَجُلٍ أَرَادَهَا، فَإِنَّهُمْ إِنْ زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاحِدٌ كُفِيتُمُوهُم، فَفَعَلُوا. فَلَمَّا دَخَلَ النِّسَاءُ الْعَسْكَرَ، مَرَّتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ اسْمُهَا "كَسْبَى ابْنَةُ صُورَ، رَأْسِ أُمَّتِهِ" بِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ

"زَمْرَى بْنُ شَلُومَ"، رَأْسُ سِبْطِ بَنِي سَمْعَانَ بْنِ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَامَ إِلَيْهَا، فَأَخَذَ بِيَدِهَا حِينَ أَعْجَبَهُ جَمَالُهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا حَتَّى وَقَفَ بِهَا عَلَى مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنِّي أَظُنُّكَ سَتَقُولُ هَذَا حَرَامٌ عَلَيْكَ؟ قَالَ: أَجَلْ، هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ، لَا تَقْرَبْهَا. قَالَ: فَوَاللهِ لَا نُطِيعُكَ فِي هَذَا. ثُمَّ دَخَلَ بِهَا قُبَّتَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا. وَأَرْسَلَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، الطَّاعُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ فِنْحَاصُ بْنُ الْعَيْزَارِ بْنِ هَارُونَ، صَاحِبَ أَمْرِ مُوسَى، وَكَانَ غَائِبًا حِينَ صَنَعَ زَمْرَى بْنُ شَلُومَ مَا صَنَعَ، فَجَاءَ وَالطَّاعُونُ يَجُوسُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأُخْبِرَ الْخَبَرَ، فَأَخَذَ حَرْبَتَهُ، وَكَانَتْ مِنْ حَدِيدٍ كُلِّهَا، ثُمَّ دَخَلَ الْقُبَّةَ وَهُمَا مُتَضَاجِعَانِ، فَانْتَظَمَهُمَا بِحَرْبَتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا رَافِعُهُمَا إِلَى السَّمَاءِ، وَالْحَرْبَةُ قَدْ أَخَذَهَا بِذِرَاعِهِ، وَاعْتَمَدَ بِمِرْفَقِهِ عَلَى خَاصِرَتِهِ، وَأَسْنَدَ الْحَرْبَةَ إِلَى لَحْيَيْهِ -وَكَانَ بِكْرَ الْعَيْزَارِ- وَجَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَكَذَا نَفْعَلُ بِمَنْ يَعْصِيكَ. وَرُفِعَ الطَّاعُونُ، فَحُسِبَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الطَّاعُونِ فِيمَا بَيْنَ أَنْ أَصَابَ زَمْرَى الْمَرْأَةَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ فِنْحَاصُ، فَوَجَدُوهُ قَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا -وَالْمُقَلِّلُ لَهُمْ يَقُولُ: عِشْرُونَ أَلْفًا- فِي سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ. فَمِنْ هُنَالِكَ تُعْطِي بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلَدَ فِنْحَاصَ مِنْ كُلِّ ذَبِيحَةٍ ذَبَحُوهَا الْقُبَّةَ وَالذِّرَاعَ وَاللَّحْيَ -لِاعْتِمَادِهِ بِالْحَرْبَةِ عَلَى خَاصِرَتِهِ، وَأَخْذِهِ إِيَّاهَا بِذِرَاعِهِ، وَإِسْنَادِهِ إِيَّاهَا إِلَى لَحْيَيْهِ- وَالْبِكْرَ مِنْ كُلِّ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بِكْرَ أَبِيهِ الْعَيْزَارِ. فَفِي بَلْعَامَ بْنِ بَاعُورَاءَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ -إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

س: ما وجه القول القائل بأن أمية بن أبي الصلت هو الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها؟

ج: أشار بعض أهل العلم إلى أن أمية هذا كان قد حمل علمًا عن الأولين وعن الكتب السابقة، ولم ينفعه علمه ذلك، فقد كاد أن يُسلِم ولكنه انتكس وارتكس وضلَّ بعد ما تبين له الهدى.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

بعد أن أورد قول ابن عمرو في أن الذي آتاه الله الآيات هو أمية بن أبي الصلت:

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْهُ وَهُوَ صَحِيحٌ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ أُمَيَّةَ بْنَ أَبِي الصَّلْتِ يُشْبِهُهُ فَإِنَّهُ كَانَ قَدِ اتَّصَلَ إِلَيْهِ عِلْمٌ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الشَّرَائِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ فَإِنَّهُ أَدْرَكَ زَمَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَلَغَتْهُ أَعْلَامُهُ وَآيَاتُهُ وَمُعْجِزَاتُهُ وَظَهَرَتْ لِكُلِّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ وَمَعَ هَذَا اجْتَمَعَ بِهِ وَلَمْ يَتْبَعْهُ وَصَارَ إِلَى مُوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَمُنَاصَرَتِهِمْ وَامْتِدَاحِهِمْ وَرَثَى أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَرْثَاةٍ بَلِيغَةٍ قبحه الله. وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّهُ مِمَّنْ آمَنَ لِسَانُهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ قَلْبُهُ فَإِنَّ لَهُ أَشْعَارًا رَبَّانِيَّةً وَحِكَمًا وَفَصَاحَةً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْرَحِ الله صدره للإسلام.

س: ما المراد بهذه الآيات التي آتاها الله ﷻ هذا الشخص؟

ج: قيل: هذه الآيات هي اسم الله الأعظم(1).

وقيل: إن هذه الآيات كتابٌ من كُتب الله ﷻ.

وقيل: إنها النبوة، وأرى هذا الرأي بعيدًا(2) جدًّا عن الصواب.

وقيل: إنها الحجج الدلالات.

وقد قال بعض أهل العلم: إنه كان مُجاب الدعوة، وكان لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمرَ نبيه ﷺ أن يتلو على قومه خبرَ رجلٍ كان الله آتاه حُجَجه وأدلته، وهي "الآيات".

وقد دللنا على أن معنى "الآيات": الأدلة والأعلام، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وجائز أن يكونَ الذي كان الله آتاه ذلك "بلعم" =وجائز أن يكون أمية. وكذلك "الآيات" إن كانت بمعنى الحجة التي هي بعض كتب الله التي أنزلها على بعض

(1) صح عن ابن زيد عند الطبري انه كان لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه.

(2) قال الحافظ ابن كثير، وقوله حقٌّ في هذا المقام رَحِمَهُ اللهُ؛ وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال: كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها، حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح.

أنبيائه، فتعلمها الذي ذكره الله في هذه الآية، وعناه بها؛ فجائز أن يكون الذي كان أوتيها "بلعم" وجائز أن يكون "أمية"، لأن "أمية" كان، فيما يقال، قد قرأ من كتب أهل الكتاب.

وإن كانت بمعنى كتاب أنزله الله على مَنْ أمر نبيَّ الله عليه الصلاة والسلام أن يتلوَ على قومه نبأه =أو بمعنى اسم الله الأعظم= أو بمعنى النبوّة =، فغير جائز أن يكون معنيًّا به "أمية"؛ لأن "أمية" لا تختلف الأمة في أنه لم يكن أوتي شيئًا من ذلك، ولا خبرَ بأيِّ ذلك المراد، وأيّ الرجلين المعنيّ، يوجب الحجة، ولا في العقل دلالة على أيِّ ذلك المعنيُّ به من أيٍّ.

فالصواب أن يقال فيه ما قال الله، ونُقِرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله.

وأما قوله: (فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا)، فإنه يعني: خرج من الآيات التي كان الله آتاها إياه، فتبرّأ منها.

س: الذي يأتيه الأمر مِنْ أمرِ الله ﷻ فيعرض عنه وينصرف يتبعه الشيطان ويستحوذ عليه، وكذلك يصرف الله قلبه عن الإيمان، وكلما ازداد إعراضًا كلما زاده الله بعدًا، واتبعته الشياطين، دلَّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾.

فلما انسلخ من الآيات أتبعه الشيطان.

وقوله تعالى: (وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ).

وقوله تعالى: (ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: ولو شئنا لرفعناه في الآخرة درجات عاليه بسبب العلم الذي آتيناه إيَّاه، فلو شئنا لَوَفَّقْنَاه للعمل بهذا العلم، وبذله فيما يقربه من الله ﷻ.

فيكون قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي في منازل الجنان في الآخرة بسبب ما علمناه من علم.

الثاني: أن المراد رفعة المنزلة في الدنيا والوجاهة في الدين.

الثالث: لرفعناه من هذا الانحطاط الذي وقع فيه بالآيات التي آتيناه إياها.

الرابع: لَنَزَّهناهُ عن قاذورات الحياة الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عمّ الخبر بقوله: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)، أنه لو شاء رفعه بآياته التي آتاه إياها. والرفع يَعمُّ معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها. ومنها الرفع في الذكر الجميل والثّناء الرفيع.

وجائزٌ أن يكون الله عنى كلَّ ذلك: أنه لو شاء لرفعه، فأعطاه كل ذلك، بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاها إياه.

وإذ كان ذلك جائزًا، فالصواب من القول فيه أن لا يخصَّ منه شيء، إذ كان لا دلالة على خصوصه من خبرٍ ولا عقلٍ.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- أن هذا الرجل الذي آتاه الله ﷻ الآيات فانسلخ منها رضي بالدنيَّة، وآثر الدنيا الفانية وملذاتها الزائلة على ما هو خيرٌ وأبقى فاختار الدنيا بدلًا من الآخرة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ) يَقُولُ

تَعَالَى: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ) أَيْ: لَرَفَعْنَاهُ مِنَ التَّدَنُّسِ عَنْ قَاذُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ إِيَّاهَا، (وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ) أَيْ: مَالَ إِلَى زِينَةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَّاتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَغَرَّتْهُ كَمَا غَرَّتْ غَيْرَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

القول في تأويل قوله: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ).

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو شئنا لرفعنا هذا الذي آتيناه آياتنا بآياتنا التي آتيناه (وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ)، يقول: سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة (وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ)، ورفض طاعة الله وخالف أمره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ) يُرِيدُ بَلْعَامَ. أَيْ لَوْ شِئْنَا لَأَمَتْنَاهُ قَبْلَ أَنْ يَعْصِيَ فَرَفَعْنَاهُ إِلَى الْجَنَّةِ. (بِهَا) أَيْ بِالْعَمَلِ بِهَا. (وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ) أَيْ رَكَنَ إِلَيْهَا، عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيِّ. مُجَاهِدٌ: سَكَنَ إِلَيْهَا، أَيْ سَكَنَ إِلَى لَذَّاتِهَا. وَأَصْلُ الْإِخْلَادِ اللُّزُومُ. يُقَالُ: أَخْلَدَ فُلَانٌ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ وَلَزِمَهُ. قَالَ زُهَيْرٌ:

لِمَنِ الدِّيَارُ غَشِيتُهَا بِالْغَرْقَدِ ... كَالْوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلَدِ

يَعْنِي الْمُقِيمَ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى لَزِمَ لِذَّاتِ الْأَرْضِ فَعُبِّرَ عَنْهَا بِالْأَرْضِ، لِأَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. (وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ) أَيْ مَا زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ. وَقِيلَ: كَانَ هَوَاهُ مَعَ الْكُفَّارِ. وَقِيلَ: اتَّبَعَ رِضَا زَوْجَتِهِ، وَكَانَتْ رَغِبَتْ فِي أَمْوَالٍ حَتَّى حَمَلَتْهُ عَلَى الدُّعَاءِ عَلَى مُوسَى.

س: وضح المثل المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

ج: المعنى -الله تعالى أعلم- أن مَثَل هذا الذي آتاه الله ﷻ الآيات فترك العمل بها وأهملها وخالفها كمثل الكلب فالكلب عن طردته أو دفعته بعضا أو بحجارة يلهث وإن لم تطرده وتركته يلهث أيضًا فهو يلهث على كل حال وهكذا الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها، فإنه سواء عليه وُعِظ أم لَم يُوعظ لا يهتدي ولا ينتفع بالموعظة ولا عدمها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فمثل هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ الكلب الذي يلهث، طرِدْته أو تركته.

ثم اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله جَعَل الله مثَله كمثل الكلب.

فقال بعضهم: مثَّله به في اللهث، لتركه العمل بكتابِ الله وآياته التي آتاها إياه، وإعراضِه عن مواعظ الله التي فيها إعراض من لم يؤته الله شيئًا من ذلك. فقال جل ثناؤه فيه: إذْ كان سواء أمرُه، وُعِظَ بآيات الله التي آتاها إياه، أو لم يوعظ، في أنه لا يتَّعظ بها، ولا يترك الكفر به، فمثله مثل الكلب الذي سواءٌ أمره في لهثه، طرد أو لم يطرد، إذ كان لا يتركُ اللهث بحال.

ثم أورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ آثارًا في ذلك، ثم قال: وقال آخرون إنما مثَّله جل ثناؤه بالكلب لأنه يلهث كما يلهث الكلب.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويلُ من قال: إنما هو مثلٌ لتركه العمل بآيات الله التي آتاها إياه، وأنّ معناه: سواء وعظ أو لم يوعظ، في أنه لا يترك ما هو عليه من خلافه أمر ربّه، كما سواءٌ حمل على الكلب وطُرِد أو ترك فلم يطرد، في أنه لا يدَع اللهث في كلتا حالتيه.

وإنما قلنا: ذلك أولى القولين بالصواب، لدلالة قوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ﴾، فجعل ذلك مثلَ المكذِّبين بآياته. وقد علمنا أن اللُّهَاث ليس في خِلقة كل مكذّب كُتب عليه ترك الإنابة من تكذيبه بآيات الله، (١) وأن ذلك إنما هو مثل ضربه الله لهم، فكان معلوما بذلك أنه للذي وصف الله صفته في هذه الآية، كما هو لسائر المكذبين بآيات الله، مثلٌ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ فَأَمَّا عَلَى سِيَاقِ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَالِمِ بن أبي النضر: أن بلعاما انْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ -فَتَشْبِيهُهُ بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ إِنْ زُجِرَ وَإِنْ

تُرِكَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَصَارَ مِثْلَهُ فِي ضَلَالِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِيهِ، وَعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِالدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ وَعَدَمِ الدُّعَاءِ، كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ، إِن حَمَلْتَ عَلَيْهِ وَإِنَّ تَرَكْتَهُ، هُوَ يَلْهَثُ فِي الْحَالَيْنِ، فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدَمِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)، (ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ) وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ وَالضَّالِّ، ضَعِيفٌ فَارِغٌ مِنَ الْهُدَى، فَهُوَ كَثِيرُ الْوَجِيبِ فَعبَّرَ عَنْ هَذَا بِهَذَا، نُقِلَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ ابتداء وخبر.

﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ شرط وجوابه.

وهو في موضع الحال، أي فمثله كمثل الكلب لاهثًا، والمعنى: أنه على شيء واحد لا يرْعوِي عن المعصية؛ كمثل الكلب الذي هذه حالته، فالمعنى: أنه لاهث على كل حال، طردته أو لم تطرده.

قال ابن جُرَيْج:

الْكَلْبُ مُنْقَطِعُ الْفُؤَادِ، لَا فُؤَادَ لَهُ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، كَذَلِكَ الَّذِي يَتْرُكُ الْهُدَى لَا فُؤَادَ لَهُ، وَإِنَّمَا فُؤَادُهُ مُنْقَطِعٌ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: كُلُّ شيء يَلْهَثُ فَإِنَّمَا يَلْهَثُ مِنْ إِعْيَاءٍ أَوْ عَطَشٍ، إِلَّا الْكَلْبَ فَإِنَّهُ يَلْهَثُ فِي حَالِ الْكَلَالِ وَحَالِ الرَّاحَةِ وَحَالِ الْمَرَضِ وَحَالِ الصِّحَّةِ وَحَالِ الرِّيِّ وَحَالِ الْعَطَشِ. فَضَرَبَهُ اللهُ مَثَلًا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ فَقَالَ: إِنْ وَعَظْتَهُ ضَلَّ وَإِنْ تَرَكْتَهُ ضَلَّ، فَهُوَ كَالْكَلْبِ إِنْ تَرَكْتَهُ لَهَثَ وإن طردته لهث، كقول تعالى:(وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ) [الأعراف: ١٩٣].

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: لَهَثَ الْكَلْبُ" بِالْفَتْحِ" يَلْهَثُ لَهْثًا وَلُهَاثًا" بِالضَّمِّ" إِذَا أَخْرَجَ لِسَانَهُ مِنَ التَّعَبِ أَوِ العطش، وكذلك الرجل إذا أعيا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ) لِأَنَّكَ إِذَا حَمَلْتَ عَلَى الْكَلْبِ نَبَحَ وَوَلَّى هَارِبًا، وَإِذَا تَرَكْتَهُ شَدَّ عَلَيْكَ وَنَبَحَ، فَيُتْعِبُ نَفْسَهُ مُقْبِلًا عَلَيْكَ وَمُدْبِرًا عَنكَ فَيَعْتَرِيهِ عِنْدَ

ذَلِكَ مَا يَعْتَرِيهِ عِنْدَ الْعَطَشِ مِنْ إِخْرَاجِ اللِّسَانِ.

وقال القرطبي كذلك:

وَهَذَا الْمَثَلُ فِي قَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ. وَقِيلَ: هُوَ فِي كُلِّ مُنَافِقٍ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ.

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ) أَيْ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ بِدَابَّتِكَ أَوْ بِرِجْلِكَ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ. وَكَذَلِكَ مَنْ يَقْرَأُ الْكِتَابَ وَلَا يَعْمَلُ بِمَا فِيهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هَذَا شَرُّ تَمْثِيلٍ، لِأَنَّهُ مِثْلُهُ فِي أَنَّهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَاهُ حَتَّى صَارَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا بِكَلْبٍ لَاهِثٍ أَبَدًا، حُمِلَ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ تَرْكَ اللَّهَثَانِ. وَقِيلَ: مِنْ أَخْلَاقِ الْكَلْبِ الْوُقُوعُ بِمَنْ لَمْ يُخِفْهُ عَلَى جِهَةِ الِابْتِدَاءِ بِالْجَفَاءِ، ثُمَّ تَهْدَأُ طَائِشَتُهُ بِنَيْلِ كُلِّ عِوَضٍ خَسِيسٍ. ضَرَبَهُ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِي قَبِلَ الرِّشْوَةَ فِي الدِّينِ حَتَّى انْسَلَخَ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ.

فَدَلَّتِ الْآيَةُ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا عَلَى أَلَّا يَغْتَرَّ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ وَلَا بِعِلْمِهِ، إِذْ لَا يَدْرِي بِمَا يُخْتَمُ لَهُ. وَدَلَّتْ عَلَى مَنْعِ أَخْذِ الرِّشْوَةِ لِإِبْطَالِ حَقٍّ أَوْ تَغْيِيرِهِ. وَقَدْ مَضَى بَيَانُهُ فِي "الْمَائِدَةِ". وَدَلَّتْ أَيْضًا عَلَى مَنْعِ التَّقْلِيدِ لِعَالِمٍ إِلَّا بِحُجَّةٍ يُبَيِّنُهَا، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ أَعْطَى هَذَا آيَاتِهِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَوَجَبَ أَنْ يَخَافَ مِثْلَ هَذَا عَلَى غَيْرِهِ وَأَلَّا يَقْبَلَ مِنْهُ إِلَّا بِحُجَّةٍ.

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ج: معناه، والله تعالى أعلم، ذلك المثل الذي قصصناه عليك، مثل الذي آتيناه الآيات فانسلخ منها من كونه شُبِّه بالكلب لعدم انتفاعه بالمواعظ، ومن كونه أصبح تابعًا للشيطان يُوجهه كيف يشاء ويقوده حيث أراد، هذا المثل عامٌ في كل من لم تنفعه المواعظ ولم تُجدِ معه الذِكرى، مثلٌ مضروب لكل من كذَّب بآيات الله ﷻ.

فأخبر بني إسرائيل ومن بعدهم بهذه الأمثال وما هم إليه صائرون لعلهم يتفكرون فيها فيتعظون ويعتبرون.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هذا المثل الذي ضربتُه لهذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ القوم الذين كذبوا بحُججنا وأعلامنا وأدلّتنا، فسلكوا في ذلك سبيل هذا المنسلِخ من آياتنا الذي آتيناها إياه، في تركه العمل بما آتيناه من ذلك.

وأما قوله: (فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ)، فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص، يا محمد، هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلَنا من نقمتنا= على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك وصحَّة نبوّتك، إذ كان نبأ (ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا) من خفيّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومن قرأ الكُتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك =وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم الحُجَّة البينة لك عليهم بأنك لله رسول، وأنك لم تعلم ما علِمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها، إلا بوحي من السماء.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ) يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: (فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ) أَيْ: لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَالِمِينَ بِحَالِ بَلْعَامَ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَالِ اللهِ إِيَّاهُ وَإِبْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ، بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ -فِي تَعْلِيمِهِ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ -فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى حِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَشِعْبِ الْإِيمَانِ، أَتْبَاعِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَلِيمِ اللهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ) أَيْ: فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا، وَمَيَّزَهُمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَجَعَلَ بِأَيْدِيهِمْ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْرِفُونَهَا كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، فَهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، كَمَا أَخْبَرَتْهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ بِذَلِكَ وَأَمَرَتْهُمْ بِهِ؛ وَلِهَذَا مَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ مَا فِي كِتَابِهِ وَكَتَمَهُ فَلَمْ يُعْلِمْ بِهِ الْعِبَادَ، أَحَلَّ اللهُ بِهِ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ.

س: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتفكرون في ماذا؟

ج: يتفكرون في هذه القصص والأمثال التي ذكّرتهم بها، وكيف وأنت نبيٌّ أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب وتخبرهم بهذه الأخبار، فلعلهم بعد التفكر في هذا يصدقون بنبوتك ويسلمون ويتفكرون أيضًا في مصائرهم التي هم إليها صائرون إن استمروا على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم وتركهم التوراة والعمل بها بعد أن أُوتوها وحُمِّلوها وأُلْزِموا بما فيها.

س: جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله ﷻ تحث على التذكير بالقصص والأمر بذكرها، اذكر بعض الأدلة على ذلك، وكذا على فضل التذكير بها.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ).

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى غير ذلك من الأدلة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، بئس المثل ذلكم المثل المضروب للقوم

المكذبين بآيات الله ﷻ، بئس المثل أن شبِّهوا بالكلاب التي إن حَملتُ عليها لهثت وإن تركتها لهثت، لقد كانوا - بتكذيبهم لآيات الله ﷻ - ظالمين لأنفسهم، وذلك ببخسها حقها وحرموها ما تنتفع به من الإيمان والتصديق والأمان وفسيح الجنان.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ساءَ مثلا القوم الذين كذبوا بحجج الله وأدلته فجحدوها، وأنفسَهم كانوا ينقصُون حظوظَها، ويبخسونها منافعها، بتكذيبهم بها لا غيرَها.

وقيل: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ﴾ من السوء"، بمعنى: بئس مثلا مَثَل القوم وأقيم "القوم" مقام "المثل"، وحذف "المثل"، إذ كان الكلام مفهومًا معناه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾، [البقرة: ١٧٧] فإن معناه: ولكن البرَّ، برُّ من آمن بالله =وقد بينا نظائر ذلك في مواضع غير هذا، بما أغنى عن إعادته.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

سَاءَ مَثَلًا مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، أَيْ: سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شُبِّهُوا بِالْكِلَابِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْلَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيِّزِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، صَارَ شَبِيهًا بِالْكَلْبِ، وَبِئْسَ الْمَثَلُ مَثَلُهُ؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ (١) كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾أَيْ: مَا ظَلَمَهُمُ اللهُ، وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى، وَطَاعَةِ الْمَوْلَى، إِلَى الرُّكُونِ إِلَى دَارِ الْبِلَى، وَالْإِقْبَالِ عَلَى تَحْصِيلِ اللَّذَّاتِ وَمُوَافَقَةِ الْهَوَى.

س: وضح معنى الآية الكريمة: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

ج: الآية تفيد أن أمر الهداية بيد الله وموكول إلى الله ﷻ فمن يشأ الله أن يهديه هداه ووفقه لسلوك سبيل الطاعة والاستقامة وحبَّب ذلك إليه وزينه في قلبه، فتراه يطيع ربه وهو منشرح الصدر، وتراه يجتنب النواهي وهو منشرح الصدر أيضًا فهذا

(١) البخاري (٢٦٢٢).

هو المفلح الذي وُفق لسلوك سبيل الجنان. أما الذي يزيغه الله ﷻ ويصرفه عن الإيمان فهذا الذي خاب وخُذل وخسر وهلك.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الهداية والإضلال بيد الله، و(ٱلْمُهْتَدِىٓ) وهو السالك سبيل الحق، الراكبُ قصدَ المحجّة= في دينه، مَن هداه الله لذلك، فوفَّقه لإصابته. والضالُّ من خذله الله فلم يوفقه لطاعته، ومن فعل الله ذلك به فهو "الخاسر": يعني الهالك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ هَدَاهُ اللهُ فَإِنَّهُ لَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٓ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

ج: من الآيات الواردة في هذا المعنى ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾.

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»(١).

(١) صحيح: وقد تقدم.

وقوله ﷺ: «مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ»(١).

س: وضح معنى الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

ج: المعنى، ولقد خلقنا لجهنم كثيرًا من الجنِّ والإنس، فقدرنا عليهم قبل خلقهم أنهم من أهل النار وكتبنا عليهم ذلك، وهؤلاء، وإن كانت لهم قلوب، لكنهم لا يفهمون بهذه القلوب عن الله ﷻ مراده ولا يتفكرون بها ولا يتدبرون ولا يتعظون ولا ينتفعون ولا يعقلون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، وكذا لهم أعين لا يبصرون بها ما ينفعهم ويقربهم إلى الله ﷻ، ولا يستدلون بها على وحدانيته، وكذا لهم آذان لا يسمعون بها المواعظ ولا يسمعون بها ما ينتفعون به من الخير، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الأوصاف ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كالبهائم التي ليس لها همةٌ إلا الأكل والشرب والجماع، بل هم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام تفعل ما ينفعها وهؤلاء لا يفعلون ما ينفعهم، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عن الآيات والحجج التي يُستدل بها على وحدانية الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال جل ثناؤه: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ)، لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربِّهم.

وأما قوله: (لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا)، فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حُجَجه لرسله، فيعلموا توحيد ربِّهم، ويعرفوا حقيقة نبوّة أنبيائهم. فوصفهم ربُّنا جل ثناؤه بأنهم: (لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا)، لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبُّر صحة [نبوّة] الرسل، وبُطُول الكفر.

وكذلك قوله: (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا)، معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى

(١) صحيح: وقد تقدم.

آيات الله وأدلته، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفسادِ ما هم عليه مقيمون، من الشرك بالله، وتكذيب رسله؛ فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحقّ، بأنهم لا يبصرون بها.

وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، آيات كتاب الله، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وذلك نظير وصف الله إياهم في موضع آخر بقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. والعرب تقول ذلك للتارك استعمالَ بعض جوارحه فيما يصلح له، ومنه قول مسكين الدارمي:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السِّتْرُ

وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ... سَمْعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ

فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى والصمم.

ومنه قول الآخر:

وَعَوْرَاءُ اللِّئَامِ صَمَمْتُ عَنْهَا ... وَإِنِّي لَوْ أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ

وَبَادِرَةٍ وَزَعْتُ النَّفْسَ عَنْهَا ... وَقَدْ تَثِقَتْ مِنَ الْغَضَبِ الضُّلُوعُ

وذلك كثير في كلام العرب وأشعارها.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، هؤلاء الذين ذرأهم لجهنم، هم كالأنعام، وهي البهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما أبصرته لما يصلح وما لا يَصْلُح، ولا تعقل بقلوبها الخيرَ من الشر، فتميز بينهما.

فشبههم الله بها، إذ كانوا لا يتذكَّرون ما يرون بأبصارهم من حُججه، ولا يتفكرون فيما يسمعون من آي كتابه.

ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، يقول: هؤلاء الكفرة الذين ذَرَأهم لجهنم، أشدُّ ذهابًا عن الحق، وألزم لطريق الباطل من البهائم، لأن البهائم لا اختيار لها ولا تمييز، فتختار

وتميز، وإنما هي مسَخَّرة، ومع ذلك تهرب من المضارِّ، وتطلب لأنفسها من الغذاء الأصلح.

والذين وصفَ الله صفتهم في هذه الآية، مع ما أعطوا من الأفهام والعقول المميِّزة بين المصالح والمضارّ، تترك ما فيه صلاحُ دنياها وآخرتها، وتطلب ما فيه مضارّها، فالبهائم منها أسدُّ، وهي منها أضل، كما وصفها به ربُّنا جل ثناؤه.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفتُ صفتهم، القومُ الذين غفلوا =يعني: سهوًا عن آياتي وحُججي، وتركوا تدبُّرها والاعتبارَ بها والاستدلالَ على ما دلّت عليه من توحيد ربّها، لا البهائم التي قد عرّفها ربُّها ما سخَّرها له.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَقُولُ **تَعَالَى:** ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا﴾ أَيْ: خَلَقْنَا وَجَعَلْنَا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ أَيْ: هَيَّأْنَاهُمْ لَهَا، وَبِعَمَلِ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلَائِقَ، عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ، فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ(١)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا(٢)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ، عَنْ خَالَتِهَا عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، ؓ، أَنَّهَا قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جِنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ طُوبَى لَهُ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ**».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(٣) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ: «**ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**».

---

(١) مسلم (٢٦٥٣).
(٢) مسلم (٢٦٦٢).
(٣) البخاري (٣٢٠)، ومسلم (٢٦٤٣).

وَتقَدَّمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدمَ مِنْ صُلْبِهِ وَجعْلَهُمْ فريقَيْنِ: أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ، قَالَ: «هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي».

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَمَسْأَلَةُ الْقَدَرِ كَبِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ يَعْنِي: لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ هَذَا فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ، وَقَالَ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وَلَمْ يَكُونُوا صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا إِلَّا عَنِ الْهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

وَقَالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وَقَالَ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَ الْهُدَى، كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْحَوَاسِّ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِي يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ أَيْ: وَمَثَلُهُمْ -فِي حَالِ دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ- كَمَثَلِ الْأَنْعَامِ إِذَا دَعَاهَا رَاعِيهَا لَا تَسْمَعُ إِلَّا صَوْتَهُ، وَلَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أَيْ: مِنَ الدَّوَابِّ؛ لِأَنَّ الدَّوَابَّ قَدْ تَسْتَجِيبُ مَعَ ذَلِكَ لِرَاعِيهَا إِذَا أَبَسَّ بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَفْقَهْ كَلَامَهُ، بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ؛ وَلِأَنَّ الدَّوَابَّ تَفْقَهُ مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا، بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَعْبُدَ اللهَ وَيُوَحِّدَهُ، فَكَفَرَ بِاللهِ وَأَشْرَكَ بِهِ؛ وَلِهَذَا مَنْ أَطَاعَ اللهَ مِنَ الْبَشَرِ كَانَ أَشْرَفَ مَنْ مِثْلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي مَعَادِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْبَشَرِ، كَانَتِ الدَّوَابُّ أَتَمَّ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

قَالَ تَعَالَى: وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٨٠

الكلمة	معناها
﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾	جمع أحسن، والمعنى: ولله أحسن الأسماء.
﴿فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ﴾	فاسألوه بها- فاعبدوه بها- فاذكروه بها.
﴿يُلْحِدُونَ﴾	يميلون وينحرفون- يكذبون - يشركون.

باب مختصر في الأسماء الحسنى

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- ولله أحسن الأسماء.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سَمَّى اللهُ سُبْحَانَهُ أَسْمَاءَهُ بِالْحُسْنَى لِأَنَّهَا حَسَنَةٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْقُلُوبِ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِفْضَالِهِ. وَالْحُسْنَى مَصْدَرٌ وُصِفَ بِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ الْحُسْنَى " فُعْلَى، مُؤَنَّثُ الْأَحْسَنِ، كَالْكُبْرَى تَأْنِيثُ الْأَكْبَرِ، وَالْجَمْعُ الْكُبَرُ وَالْحُسَنُ. وَعَلَى الْأَوَّلِ أُفْرِدَ كَمَا أُفْرِدَ وَصْفُ مَا لَا يَعْقِلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ) [طه: ١٨] و(يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ) [سبأ: ١٠].

س: هل صحَّ لهذه الآية الكريمة سبب نزول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ﴾.

ج: لا أعلم لهذه الآية الكريمة سبب نزول صحيح، وما أورده القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الصدد عن مقاتلٍ وغيره لا يصح سنده. والله أعلم.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- فتعبدوه بها، واسألوه بها (أي متوسلين إليه بها ومُثنين عليه بها)، كقوله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، وكقول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وكقول النبي ﷺ: «اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي»،

وكما هو ملاحظ فإننا نختار من أسماء الله الحسنى اسمًا يوافق الدعوة التي نريدها والمسألة التي نرجوها.

ولا يسوغ أن نقول أن نقول اللهم أذل الشرك والمشركين برحمتك يا أرحم الراحمين إنما ندعوه في مثل ذلك باسمه القوي، أو اسمه العزيز، أو اسمه القادر، ونحو ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ) أَيِ اطْلُبُوا مِنْهُ بِأَسْمَائِهِ، فَيُطْلَبُ بِكُلِّ اسْمٍ مَا يَلِيقُ بِهِ، تَقُولُ يَا رَحِيمُ ارْحَمْنِي، يَا حَكِيمُ احْكُمْ لِي، يَا رَازِقُ ارْزُقْنِي، يَا هادي اهْدِنِي، يَا فَتَّاحُ افْتَحْ لِي، يَا تَوَّابُ تُبْ عَلَيَّ، هَكَذَا. فَإِنْ دَعَوْتَ بِاسْمٍ عَامٍّ قُلْتُ: يَا مَالِكُ ارْحَمْنِي، يَا عَزِيزُ احْكُمْ لِي، يَا لَطِيفُ ارْزُقْنِي. وَإِنْ دَعَوْتَ بِالْأَعَمِّ الْأَعْظَمِ فَقُلْتَ: يَا أَللَّهُ، فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِكُلِّ اسْمٍ. وَلَا تَقُولُ: يَا رَزَّاقُ اهْدِنِي، إِلَّا أَنْ تُرِيدَ يَا رَزَّاقُ ارْزُقْنِي الْخَيْرَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَكَذَا، رَتِّبْ دُعَاءَكَ تَكُنْ مِنَ الْمُخْلِصِينَ.

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– فاسألوه متوسلين إليه بها، ومن معانيها أيضًا فاعبدوه بها، ومن الأول يا رحيم ارحمني، ويا خير الرَّازقين ارزقني كقول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

س: ما المراد بالإلحاد في أسماء الله جَلَّ وَعَلَا؟

ج: للإلحاد في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ صور، منها ما يلي:

۞ أخذ أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ مع الزيادة فيها والنقصان منها وإضفاء هذه الأسماء على آلهتهم، فكانوا يأخذون من لفظ الجلالة (الله) اسم اللات ويسمون بها صنمًا من أصنامهم ويأخذون من اسم الله العزيز لفظ (العزى) ويسمون بها صنمًا آخر ويأخذون من اسم الله المنان (مناة) ويسمون بها صنمًا ثالثًا قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾.

۞ ومن الإلحاد في هذه الأسماء التكذيب بها، فمن العلماء من يطلق التكذيب على الإلحاد.

۞ ومن العلماء من يقول يلحدون أي يشركون.

۞ ومن الإلحاد العدول عن أسماء الله ﷻ والانحراف عنها وإنكارها قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾.

س: هل قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾، منسوخ؟ وما وجه القول بالنسخ؟

ج: أولًا: وجه القول بالنسخ أن قائله فَهِم من قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ أن معناه اتركوهم فلا تقاتلوهم، ومن ثم قال إن آية السيف ناسخة لهذا، والشأن في هذا- عنده- شأن الآيات الآمرة بالعفو والحاثة عليه.

ولكن هذا المفهوم الذي فُهِم ليس في محله، وليس بصائبٍ، والله أعلم.

إنما معنى قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ كالمعنى في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ المراد به التهدية.

وكالمعنى في قوله: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

وبنحو هذا الكلام قال الطبري رحمه الله بعد أن أورد سعن ابن زيد بسندٍ صحيح في قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ قال: هؤلاء أهل الكفر وقد نُسخ نسخه القتال، فتعقب الطبري هذا بقوله: ولا معنى لما قال ابن زيد في ذلك من أنه منسوخ، لأن قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾، ليس بأمر من الله لنبيِّه ﷺ بترك المشركين أن يقولوا ذلك، حتى يأذن له في قتالهم.

وإنما هو تهديدٌ من الله للملحدين في أسمائه، ووعيدٌ منه لهم، كما قال في موضع آخر: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ الآية، [الحجر: ٣]، وكقوله: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٦].

وهو كلام خرج مخرج الأمر بمعنى الوعيد والتهديد، ومعناه: أنْ مَهِّل الذين

يلحدون، يا محمد، في أسماء الله إلى أجل هم بالغوه، فسوف يجزون، إذا جاءهم أجل الله الذي أجَّلهم إليه، جزاء أعمالهم التي كانوا يعملونها قبل ذلك، من الكفر بالله، والإلحاد في أسمائه، وتكذيب رسوله.

س: ما صحَّة الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ». وكذا ما مدى صحَّة الزيادة التي أخرجها الترمذي من طريق الوليد ابن مسلم وفيها: «هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ....» وفيها تعديد أسماء الله ﷻ؟

ج: أما الحديث فثابتٌ في الصحيحين وغيرهما ألا وهو: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ»(١).

أما هذه الزيادة التي فيها تعديد هذه الأسماء وبيانها فهي زيادة ضعيفة لا تثبت عن رسول الله ﷺ، وقد أعلَّها جماهير المُحدِّثين.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْحُفَّاظِ أَنَّ سَرْدَ الْأَسْمَاءِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مُدْرَجٌ فِيهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا رَوَاهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّنْعَانِيُّ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ: أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ، أَيْ: أنهم جمعوها من القرآن كما رود عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَأَبِي زَيْدٍ اللُّغَوِيِّ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

۞ **وقال الترمذي بعد إخراجه الحديث:** وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسنادًا صحيحًا ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، وقد روي آدم ابن أبي إياس هذا الحديث بإسنادٍ غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح(٢).

قلت (مصطفى): وكما هو معلوم فإن البخاري ومسلم أخرجا أصل الحديث: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ

(١) البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).
(٢) الترمذي (٣٥٠٧).

(٣٩٩) أحمر
أسود

الْوِتْرَ». ولم يُوردا تعديد الأسماء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب وتدليسه واحتمال الإدراج.

س: ما مدى صحة الحديث الذي فيه: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ....» الحديث؟

ج: الحديث في سنده راوٍ يقال له أبو سلمة، وهناك أبو سلمة رجل مجهول لا يُدْرِي من هو، وأبو سلمة الجهني، وهو ثقة، والأقرب ها هنا أنه المجهول.

والمتابعات التي له تالفة، فالأقرب لديَّ الآن أن الحديث لا يثبت سنده. وإن كنت في بعض المواطن حكمت على سنده بالصحة والله أعلم.

هذا، والحديث أخرجه[2] الإمام أحمد وغيره من طريق أبي سلمة هذا عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قط هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فقال**.....» الحديث.

هذا، وإن كان هناك أيضًا بعض الكلام في سماع عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود من أبيه لكني أرى هذا الأخير غير مؤثر، والله أعلم.

س: هل أسماء الله الحسنى تنحصر في تسعة وتسعين أم أن لله عَزَّ وَجَلَّ أسماء حسنى أكثر من ذلك؟

ج: قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ[3] عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثِ لَيْسَ فِيهِ حَصْرٌ لِأَسْمَائِهِ فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ

---

(١) فتح الباري شرح حديث (٦٤١٠) (جـ ١١/ ٢١٩)، وذكر الحافظ هنالك كلامًا طويلًا في هذا الصدد فليراجعه من شاء.

(٢) أحمد في المسند (١/ ٣٩١/ ٤٥٢) وغيره.

(٣) وفي نقل الاتفاق نظر، والأحوط أن يُقال: إن الجمهور على هذا- لما سيأتي من قول الحافظ ابن حجر

لَيْسَ لَهُ أَسْمَاءٌ غَيْرَ هَذِهِ التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ وَإِنَّمَا مَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ التِّسْعَةُ وَالتِّسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ فَالْمُرَادُ الْإِخْبَارُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ بِإِحْصَائِهَا لَا الْإِخْبَارُ بِحَصْرِ الْأَسْمَاءِ.

قلت (مصطفى): ومن حجج العلماء على ذلك قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «فَيَفْتَحُ عليَّ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المَحَامِدِ والثَّنَاءَاتِ لَا أُحْصِيهَا الآنَ».

وكذا الحديث الذي فيه...أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ....ففيه: «**أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**». والله أعلم.

لكن قد نقل الحافظ ابن حجر خلافًا فقال: وقد اختلف في هذا العدد هل المراد به حصر الأسماء الحسنى في هذه العدة أو أنها أكثر من ذلك ولكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة؟ فذهب الجمهور إلى الثاني، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه.

س: هل حُصرت الأسماء الحسنى التسعة والتسعين في خير ثابتٍ عن رسول الله ﷺ وإذا لم تكن حُصرت فهل لأحدٍ أن يدعي أنه جمعها ولا يخالفه مخالف؟

ج: لم أقف على سندٍ ثابت عن رسول الله ﷺ فيه جمع الأسماء التسعة والتسعين.

ويصعب أن يدعى أحدٌ أنه جمعها كلها ولم يخطئ، وذلك لأن الأسماء الحسنى -كما هو معلوم- تؤخذ من الكتاب والسنة الثابتة الصحيحة.

وهناك للعلماء بعض الاختلافات في كيفية استخراج الأسماء من الكتاب والسنة، فعلى سبيل المثال:

الإضافات هل يؤخذ منها أسماء أم لا، وذلك كقوله تعالى: ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ هل يؤخذ منها، اسم الناصر أم لا؟

وكذا ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ثم لماذا لم يؤخذ ذلك من ﴿خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ إن قُرر في الأولين رأي؟

وكذلك الأفعال هل تشتق منها أسماء أم لا، مثاله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هل

---

(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يؤخذ منها اسم المنعم؟ وكذا: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ هل يؤخذ منها اسم المعز والمذل أم لا؟

وفي السنة كذلك هناك بعض الأحاديث التي استخرجت منها أسماء، وقد نوزع في صحة هذه الأحاديث كحديث: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ سِتِّير» فمن صحح الحديث استخرج اسم الحي، والسِّتير، ومن ضعفه لم يعتمد الاسمين.

وكذا الأحاديث التي وردت فيها صفات كقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالُ**».

هل يؤخذ منها اسم الجميل أم لا؟ وكذا: «**إِنَّ اللهَ طَيِبٌ لا يقْبَلُ إلاَّ طيبًا**» هل يؤخذ منها اسم الطيب أم لا؟ وكذا: «**هُوَ وِتْرٌ يُحبُ الوِتْرَ**» هل يؤخذ منها اسم الوتر أم لا؟ إلى غير ذلك من أسباب الاختلافات في تحديد الأسماء.

فالذي يمكن أن نلخصه، وبالله التوفيق حاصله:

أن هناك أسماء حسنى لله ﷻ متفق عليها كـ (الله) الرحمن الرحيم، والملك القدوس السلام المؤمن المهيمن....إلى غير ذلك مما ورد به النص الصريح الصحيح.

وأسماء مُنَازَعٌ في صحتها.

وأسماء الراجح أنها ليست بأسماء لعدم وجود دليل عليها والله أعلم.

(٤٠٢) أحمر
أسود

قَالَ تَعَالَى:

وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٨١
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢
وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم
مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥ مَن
يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦
يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ
لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا
تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ
ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي
نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ
لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ
وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨

الكلمة	معناها
﴿أُمَّةٞ﴾	جماعة.
﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾	يهتدون بالحق- يقولون الحق ويدعون الناس إليه ويعملون به.
﴿يَعۡدِلُونَ﴾	يأخذون ويعطون بالحق ويقضون به- يُنصفون الناس- يعملون.

الكلمة	معناها
﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾	سنقربهم مما يحبون درجة بعد درجة ونعطيهم من الدنيا قدرًا مما يحبون.
﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾	أؤخرهم- أؤخر عقوبتهم- أطيل لهم المدة في النعيم.
﴿كَيْدِي﴾	مكري.
﴿مَتِينٌ﴾	قويٌّ شديد.
﴿جِنَّةٍ﴾	جنون- خبل- به مسٌّ من الجنون.
﴿مَلَكُوتِ﴾	ملك (الله) – سلطان (الله).
﴿وَيَذَرُهُمْ﴾	يتركهم.
﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾	تجاوزهم للحد- وتكبرهم وتعاليهم على أمر الله ﷻ.
﴿يَعْمَهُونَ﴾	يتحيرون- يترددون وقيل: العمه: عمى القلب.
﴿أَيَّانَ﴾	متى.
﴿مُرْسَىٰهَا﴾	قيامها-منتهاها.
﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾	لا يرسلها لوقتها- لا يأتي بها في وقتها- لا يظهرها في وقتها- لا يعلم جلية أمرها وزمن وقوعها.
﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	ثقل علمها على أهل السموات والأرض – ثقل على أهل السموات والأرض العلم بها لخفائها واستثار الناس بها – كبرت.
﴿بَغْتَةً﴾	فجأة.
﴿حَفِىٌّ عَنْهَا﴾	أكثرت من السؤال عنها حتى علمت وقتها، فالإحفاء: كثرة السؤال- صديق لهم وحفيٌّ بهم تربطك بهم مودة وصداقة (يظنونه صديقًا؛ لهم لما بينهم وبينه من القرابة) - عالم بها - لطيف بها.
﴿مَسَّنِىَ﴾	أصابني.

س: من هؤلاء القوم الذين عناهم الله بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن هؤلاء القوم هم أمةُ محمد ﷺ وقد ورد بذلك خبرٌ حسن الإسناد عن قتادة ولكنه بلاغٌ أخرجه الطبري(١) بسندِه إلى قتادة قال قوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأها: «هَذِهِ لَكُم، وَقَدْ أُعْطِي القَوْمُ بَيْنَ أَيْدِيكُم مِثْلَهَا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾».

ولكن سند هذا الخبر ضعيف، فلا يُدري عمن أخذه قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن كان معنى الأثر صحيحًا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَدْ جَاءَ فِي الْآثَارِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ، هِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ. وأورد أثر قتادة المتقدم، وكذا أثرًا ضعيف الإسناد من طريق الربيع بن أنس مرفوعًا، ولكنه عقب ذلك بحديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين، وفيه قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» وَفِي رِوَايَةٍ «**حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**»(٢).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ج: المعنى، والله أعلم، والذين أنكروا آياتنا وجحدوها وزعموا أنها كذبٌ واختلاط سنقربهم مما يريدون في الدنيا درجة بعد درجة، ونعطيهم مما يحبون شيئًا بعد شيءٍ ونقربهم من العقاب- وهم لا يشعرون أنهم يقتربون منه – شيئًا بعد الشيء ثم نوقعهم في أليم العقاب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين كذبوا بأدلتنا وأعلامِنا، فجحدوها ولم يتذكروا بها،

---

(١) الطبري (١٥٤٧١).
(٢) البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧).

سنمهله بغِرَّته ونزين له سوء عمله، حتى يحسب أنه فيما هو عليه من تكذيبه بآيات الله إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغايةَ التي كُتِبَتْ له من المَهَل، ثم يأخذه بأعماله السيئة، فيجازيه بها من العقوبة ما قد أعدَّ له. وذلك استدراج الله إياه.

وأصل "الاستدراج" اغترارُ المستدرَج بلطف من [استدرجه]، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسنٌ، حتى يورِّطه مكروهًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾؛ وَلِهَذَا قَالَ تعَالَى: ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ ﴾ أَيْ: وَسَأُمْلِي لَهُمْ، أُطَوِّلُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ أَيْ: قوي شديد.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أَنَّهُ سَيَسْتَدْرِجُهُمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ. وَالِاسْتِدْرَاجُ هُوَ الْأَخْذُ بِالتَّدْرِيجِ، مَنْزِلَةً بَعْدَ مَنْزِلَةٍ.

وَالدَّرْجُ: لَفُّ الشَّيْءِ، يُقَالُ: أَدْرَجْتُهُ وَدَرَّجْتُهُ.

وَمِنْهُ أُدْرِجَ الْمَيِّتُ فِي أَكْفَانِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الدَّرَجَةِ، فَالِاسْتِدْرَاجُ أَنْ يَحُطَّ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ إِلَى الْمَقْصُودِ.

قَالَ الضَّحَّاكُ: كُلَّمَا جَدَّدُوا لَنَا مَعْصِيَةً جَدَّدْنَا لَهُمْ نِعْمَةً.

وَقِيلَ لِذِي النُّونِ: ما أقصى ما يخدع به العبد؟ قَالَ: بِالْأَلْطَافِ وَالْكَرَامَاتِ، لِذَلِكَ قَالَ ▌: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ نُسْبِغُ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَنُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ، وَأَنْشَدُوا:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صفو الليالي يحدث الكدر

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾.

ج: معنى ذلك، والله تعالى أعلم، أن الله ﷻ أخبر أنه يؤخر المكذبين الجاحدين ويتركهم فيما هم فيه من التمرد والعصيان، فيقترفوا الجرائم والكبائر والمعاصي التي يستحقون بها أليم العقاب، وهو في كل ذلك ليس بغافل عنهم، بل يُدبِّر لهم ويكيد لهم ويمكر بهم، فمكره بهم أليم، وكيده لهم شديد.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأؤخر هؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا. [وأصل "الإملاء" من قولهم: "مضى عليه مليٌّ، ومِلاوَة ومُلاوَة]، ومَلاوة" = بالكسر والضم والفتح = "من الدهر"، وهي الحين، ومنه قيل: انتظرتُك مليًّا.

ليبلغوا بمعصيتهم ربهم، المقدارَ الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب ثم يقبضهم إليه. (إِنَّ كَيْدِى). والكيد: هو المكر. وقوله: (مَتِينٌ)، يعني: قويٌّ شديدٌ، ومنه قول الشاعر:

عدلن عدول الناس وأقبح يَبْتَلِي ... أَفَانِينَ مِنْ أُلْهُوبِ شَدٍّ مُمَاتِنِ

يعني: سيرًا شديدًا باقيًا لا ينقطع.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

ج: أرى، والله تعالى أعلم، أن الوقف على قوله: ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ حسنٌ كما أشار القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ، فعليه المعنى، والله أعلم: أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآياتنا والجاحدين لها والذين وصفوا رسول الله ﷺ كذبًا وزورًا أنه مجنون، أولم يتفكر هؤلاء في هذا الرسول الذي بعث فيهم وهو منهم، وقد كان فيهم صادقًا أمينًا عاقلًا رشيدًا سديدًا؟ وكذا أولم يتفكروا فيما يقوله هذا النبي ﷺ وفيما يدعوا إليه؟!!

إنه لا يقول إلا حقًّا ولا يُخبر إلا صدقًا، وما هو إلا نذير ينذركم العذاب ويحذركم النار ﴿مُّبِينٌ﴾ مظهر موضح العواقب الأمور التي أنتم عليها مقبلون، وقد أبان لكم وأوضح ما أُعد لكم من أليم العقاب إن أنتم بقيتم على كفركم وشرككم وتكذيبكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أولم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جنَّة به ولا خَبَل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟

ويعني بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ما هو إلا نذيرٌ ينذركم عقاب الله على كفركم به، إن لم تنيبوا إلى الإيمان به.

ويعني بقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾، قد أبان لكم، أيها الناس، إنذاره ما أنذركم به من بأس الله على كفركم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا (مَا بِصَاحِبِهِم) يَعْنِي مُحَمَّدًا -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ (مِّن جِنَّةٍ) أَيْ: لَيْسَ بِهِ جُنُونٌ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا دَعَا إِلَى حَقٍّ، (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) أَيْ: ظَاهِرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ وَلُبٌّ يَعْقِلُ بِهِ وَيَعِي بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ)، وَقَالَ تَعَالَى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) يَقُولُ إِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ، لَيْسَ فِيهِ تَعَصُّبٌ وَلَا عِنَادٌ، (مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ) أَيْ: مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ، (ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) فِي هَذَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللهِ: أَبِهِ جُنُونٌ أَمْ لَا؟ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، بَانَ لَكُمْ وَظَهَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي فيما جاءهم به محمد ﷺ. والوقف على ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾ حسن. ثم قال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ ردّ لقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقيل: نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ قام ليلة على الصّفا يدعو قريشًا، فخِذًا فخذًا؛ فيقول: «يابَنِي فُلان». يحذرهم بأس الله وعقابه.

فقال قائلهم: إن صاحبهم هذا لمجنون، بات يصّوت حتى الصباح.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله الجاحدون لنبوة رسول الله ﷺ أولم ينظروا بعين الاعتبار والتفكر والتدبر إلى ما في السموات والأرض من آيات، إلى سلطان الله ﷻ في السموات والأرض، وأن كل ما فيها مسخرٌ له ﷻ وكل ما فيها يدبره الله ﷻ، وكل ما فيها دالٌّ على وحدانيته ؟

أولم يتفكر هؤلاء الغافلون الجاحدون في مصائرهم التي هم إليها صائرون فقد يأتيهم الموت فجأة وهم لا يشعرون؟

فبأي حديث بعد هذا القرآن الذي تلاه عليهم رسول الله ﷺ مُذكِّرًا ومحذرًا يؤمنون إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن بتلاوة هذا الرسول الكريم؟

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله، في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمنْ لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْلِ من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذرُوا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)، يقول: فبأيّ تخويفٍ وتحذير ترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبِهِ الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه، يصدِّقون، إن لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى؟

س: اذكر بعض الأدلة على مشروعية واستحباب النظر إلى آيات الله ﷻ والاستدلال بها على وحدانيته ﷻ وعلى قدرته؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا

يُؤۡمِنُونَ). قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾. قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ). قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ).

س: في الآية الكريمة: ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ ﴾ ردٌّ على القدرية وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن القدرية ينفون أن يكون اللهُ ﷻ أضل أحدًا والآية تثبت أن الذي يضله الله فلن يهتدي، فتثبت أن الله ﷻ يُضلُّ كما قال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾.

ج: هذه الآية الكريمة فيها مواساة لرسول الله ﷺ وتصبير له، وكذا مواساةٌ لأهل الإيمان وتصبيرٌ لهم، وذلك حتى لا يحزنوا ولا يأسفوا ولا تذهب أنفسهم حسرات على أهل الكفر المعرضين عن الإيمان، فيخبر الله ﷻ رسولَه ﷺ وأهل الإيمان وغيرهم أن أمر الهداية موكولٌ إلى الله ﷻ، إن شاء هدى الناس وإن شاء أضلهم، ومن يضلُّه الله ﷻ فلن يستطيع أحدٌ قط أن يهديه مهما جاءته من الآيات ومهما رأى من البينات، وهؤلاء الذين أراد الله أن يضلهم وأضلهم كما أراد يتركهم ربنا فيما هم فيه من الكبر والعناد والظلم والعتو والفجور يتحيرون ويترددون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها، لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبرُوا وتدبَّروا فأبصروا رُشْدهم؛ ولكن الله أضلَّهم، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلا ومن أضلَّه عن الرشاد فلا هادي له إليه، ولكن الله يدعهم في تَمَاديهم في كفرهم، وتمرُّدهم في شركهم، يترددون، ليستوجبوا الغايةَ التي كتبها الله لهم من عُقوبته وأليم نكاله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئًا ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وكما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾.

ج: من الآيات في معناها قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

س: من السائلون عن الساعة؟

ج: سأل عن الساعة أقوام كثيرون.

فقد سأل عنها مشركو قريش، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وسأل عنها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ (١) إذ جاء في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ففي الحديث: «.... **فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟** قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**...»».

وفي الصحيحين أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يومًا

---

(١) مسلم (حديث ٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

بارزًا للناس فأتاه رجل فقال....يا رسول الله متى الساعة؟ قال: « **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** »(١).

وسأل عنها الأعرابيُّ رسول الله ﷺ فقال: متى السَّاعَةُ؟ قال لهُ رسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَعْدَدْتَ لَها؟**» حُبَّ الله ورَسُولِهِ. قالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبتَ**».

وفي رواية في الصحيح كذلك عن أنس بن مالك. قال: جاء رجُلٌ إلى رسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟**» قَالَ حُبَّ الله وَرَسُولِهِ. قال: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» قَالَ أَنَس: فَمَا فَرِحنَا، بَعْدَ الإسلام، فَرحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النبيِّ ﷺ: « **فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ** ». قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسُولَهُ. وأبا بكر وعمر. فأرجو أن أكون معهم. وإنْ لم أعمَلْ بأعمَالهم(٢).

وسأل عنها عموم الناس: قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: (يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ).

ج: المعنى –والله تعالى أعلم- يسألك الناس عن وقت قيام الساعة متى وقت قيامها فأخبر هؤلاء السائلين عن الساعة أنه لا علم لك بوقت قيامها، فإن العلم بذلك موكولٌ إلى الله ﷻ لا يعلمه أحد سواه، ولا يظهرها في وقتها الذي قَدَّر الله وقوعها فيه إلا الله ﷻ.

(١) البخاري (حديث ٥٠) ومسلم (حديث ٩).
(٢) البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

الساعة لا يعلمها إلا الله

س: اذكر بعض الأدلة على استئثار الله ﷻ بعلم الساعة، وأن لا يعلمها أحد سواه لا مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل ولا غير ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

قوله ﷺ: لما سئل عن الساعة قال: « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ »(١).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

أي ثقل على أهل السموات والأرض العلم بها وبوقت وقوعها، وذلك لاستئثار الله ﷻ بالعلم بها.

الثاني: كَبُرت على أهل السموات والأرض، وشق عليهم قيامها، فما من أحدٍ إلا ويصيبه من ضررٍ يوم القيامة.

بعض علامات الساعة الصغرى والكبرى

س: هل لمجئ الساعة مقدمات وعلامات؟

ج: نعم لمجيء الساعة مقدمات وعلامات، وأشراط صغرى وكبرى.

فمن الأشراط الصغرى:

على سبيل المثال لا الحصر- كثرة التبرج، وذهاب الصالحين، وانتشار الجهل،

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

ورفع العلم، ونقض عرى الإسلام عروة عروة وتفشي الزنا وانتشاره حتى في الطرقات، وأن تلد الأمة ربتها، وأن يُرى الحفاة العراة العالة رعاء البُهم يتطاولون في البنيان وأن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة، وكثرة المال وكثرة الزلازل والفتن، وكثرة القتل، وتقارب الأسواق، وفشو الكذب والتباهي في المساجد، وكثرة الشرط المؤذين للعباد،وانحسار الفرات على كنز من ذهب، وخروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، ورجل يُقال له الجهجاه، وتكليم الحجر والشجر للإنسان، بل والسباع كذلك، وكذا يخبره سوطه بالذي أحدث أهله من بعده إلى غير ذلك.

أما الأشراط الكبرى:

فمنها الدجال ونزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض تكلِّم الناس ونار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب وريح لينة تقبض أرواح أهل الإيمان، والله أعلم.

وكل ذلك قد بسطته –مع تخريجه والحكم على أسانيده في كتابي «الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة» لمن أراد ذلك والمزيد منه. والله أعلم.

|

س: ما معنى الحديث الوارد عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال رسول الله ﷺ وعنده غلام من الأنصار يُقال له محمد: « ن يَعِشْ هَـذَا الْغُلَامُ فَعَسَى أَلَّا يُدْرِكَهُ الهَرَم حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، وهل هذا الحديث صحيح؟ ومن أخرجه؟

ج: نعم، الحديث صحيح، وقد أخرجه مسلم(١) واللفظ له، في صحيحه، وله طرق أُخر بمعناه وقوله: «حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» محمول على ما ورد في رواية عائشة: «إِنَّ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»(٢).

فيكون قوله: « حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » موضح بقوله: «حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ».

---

(١) مسلم (حديث ٢٥٩٣).

(٢) مسلم (٢٩٥٢)، والبخاري (٦٥١١).

ويكون الخطاب حينئذٍ موجه لأصحاب رسول الله ﷺ، أي أن المعنى: أن كلكم يا من أنتم متواجدون أمامي ستقوم ساعتكم (أي: ستموتون) إذا بلغ هذا الغلام الهرم (أي الكبر).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني بذلك: موتهم الذي يُفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة.

أما حديث عائشة ﭬ فلفظه [١]: عَنْ عَائِشَةَ، ﭬ، قَالَتْ: كَانَتِ الْأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: «**إِنَّ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ**».

وحديث أنس عند مسلم [٢] أيضًا وفيه: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، وَعِنْدَهُ غُلَامٌ مَنَّ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أن يَعِشْ هَذَا الْغُلَامُ فَعَسَى أَلَّا يُدْرِكَهُ الهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

هذا، وعند مسلم [٣] من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ: «**مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ، وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ**».

وفي «الصحيحين» [٤] من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً صَلَاةَ الْعِشَاءِ، وَهِيَ الَّتِي يَدْعُو النَّاسُ الْعَتَمَةَ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ**».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَهَلَ النَّاسُ فِي مَقَالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِلْكَ، فِيمَا يَتَحَدَّثُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، عَنْ مِائَةِ سَنَةٍ، وَإِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ**» يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَنْخَرِمَ ذَلِكَ الْقَرْنُ.

---

(١) مسلم (٢٩٥٢).
(٢) مسلم (٢٩٥٣).
(٣) مسلم (٢٥٣٨).
(٤) البخاري حديث (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧) واللفظ له.

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن في الآية الكريمة تقديم وتأخير، قالوا: فالمعنى يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم.

أي: يسألونك عن الساعة كأنهم أصدقاء لك تربطك بهم مودةٌ وقرابةٌ ومحبة، ولقرابتك بهم ولمودتك لهم ومحبتك لهم ستخبرهم بها وتخصهم بالعلم بها.

الثاني: يسألونك كأنك لقربك من ربك ﷻ- سألته كثيرًا عنها فأخبرك بها وأسرَّ إليك بوقت قيامها.

الثالث: يسألونك عنها كأنك عالم بها لطيف بها (تعلم بالضبط وقت قيامها).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَفِيهِ أَنَّهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ هَذَا الَّذِي لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى عِلْمِهِ، أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي حَقِّهِمْ، وَهُوَ الِاسْتِعْدَادُ لِوُقُوعِ ذَلِكَ، وَالتَّهَيُّؤُ لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا تَعْيِينَ وَقْتِهِ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَهَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُهُمْ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ، وَالْعَاقِبُ والمُقَفَّي، وَالْحَاشِرُ الَّذِي تُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ، مَعَ قَوْلِهِ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**»(١) وَقَرَنَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا. وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، قَدْ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل يا رسول الله لهؤلاء السائلين عن الساعة والذين يظنون أنك على علم بها ويسألونك كأنك حفيٌّ عنها، قل لهم: إنما العلم

(١) مسلم (٢٩٥٠، ٢٩٥١)، والبخاري (٤٩٣٦، ٦٥٠٤).

بوقت قيام الساعة عند الله لا يعلمها إلا هو ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن علمها عند الله، بل يظنون أن من البشر من عنده علمٌ بها، أو أن بعض الخلق عندهم علمٌ به.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل يا رسول للسائلين عن الساعة والذين يظنون أنك على علم بوقت قيامها: إنني فضلًا عن عدم معرفتي بوقت قيام الساعة لا أملك لنفسي جلب خيرٍ أو دفع ضُرٍّ عنها إلا إذا أعانني الله على فعل الخير، وصرف عني الضُّر، وإن لم يعيني الله على دفع الضر وفعل الخير فإني لا أستطيع ذلك.

وأيضًا فإنني لو كانت أعلم ما سيكون لأعددت له عدةً وعملت ما سيكون فيه الخير وازددت من ذلك واتقيت ما سيكون فيه الشر واجتنبته، وكإيضاح لهذا الأخير أقول إن من ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

۞ لو كنت أني أنني في حروبي سأنتصر لأقدمت على الحرب ولو كنت أعلم أنني لن أنتصر لن أقوم عليها ولن أُعرض نفسي للهزيمة.

۞ ولو كنت أعلم أنني سأربح في هذه التجارة لاتجرت فيها، وإلا لصرفت نفسي عنها.

۞ ولو كنت أعلم أن هذا الطعام يضرني أكلُه ما أكلته.

ولو كنت أعلم أن السنة المقبلة مُجدبةٌ لأعددت لها ولعرفت الغلاء من الرخص واستعددت له في الرخص.

وأورد الحافظ ابن كثيرًا خ أثرًا عن مجاهد:

وتعقبه ابن كثير مُضعفًا له ألا وهو: (لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملًا صالحًا).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ عَمَلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ دِيمة. وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ، فَجَمِيعُ عَمَلِهِ كَانَ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى اللهِ، ﷻ، فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ،

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ المرادُ أَنْ يُرْشِدَ غَيْرَهُ إِلَى الِاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

أما قوله: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فمعناه، والله أعلم: ما أنا إلا نذيرٌ لأهل الإيمان أحذرهم عقوبة المخالفة، وبشير لهم أُبشرهم بفسيح الجنان إن هم أطاعوا الرحمن ع.

|

س: كيف قيل ها هنا: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، ومعلوم أن رسولنا محمدًا ﷺ نذير وبشير للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم؟

ج: الجواب على ذلك، والله أعلم بالصواب- أن أهل الإيمان لما كانوا هم المنتفعون بالنذارة وبالبشارة وكانوا هم المستفيدين من مبعث النبي ﷺ، فمن ثَمَّ قال: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

وإلا فالإنذار للجميع قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وأحيانًا يُخصُّ به العصاة لمزيدٍ من الزجر، كما أن البشارة أحيانًا تخص بأهل الإيمان لحثهم على الخير، كما في الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا﴾.

|

(٤١٨) أحمر
أسود

قَالَ تَعَالَىٰ:

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا
لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ
أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ
ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا
يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ
أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ
سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ
يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ
يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ
١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ
١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ
أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ
وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨

الكلمة	معناها
﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾	ليألفها ويغشاها ويسكن بها.
﴿تَغَشَّىٰهَا﴾	معنى تغشاها: غطاها وتدثرها لقضاء حاجته منها، والمراد –هنا–: جامعها.
﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾	استمرت بالحمل الخفيف فقامت به وقعدت استمر حملها شكّت فيه أحملت أم لا.
﴿أَثۡقَلَت﴾	صار الحمل ثقيلًا في بطنها واقتربت ولادتها.
﴿ءَاتَيۡتَنَا﴾	رزقتنا.
﴿صَٰلِحٗا﴾	مولودًا صالحًا سالمًا من العيوب، وقيل: غلامًا.
﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾	الذين يشكرونك على نعمك– حامدين شاكرين على ما وهبتنا من الولد.
﴿سَوَآءٌ﴾	يستوي.
﴿صَٰمِتُونَ﴾	ساكتون.
﴿تَدۡعُونَ﴾	تعبدون.
﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	من غير الله.
﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾	فاسألوهم– فاطلبوا منهم النفع وكشف الضر.
﴿كِيدُونِ﴾	تآمروا أنتم وهم عليَّ.
﴿تُنظِرُونِ﴾	تُؤخرون– تؤخرون عقوبتي.
﴿وَلِـِّۧيَ﴾	نصيري.

س: من المراد بالنفس الواحدة، ومن المراد بزوجها؟

ج: المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، وذلك على رأي جمهور المفسرين أما زوجها فقد قال الجمهور إنها حواء عليها السلام.

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾.

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.

|

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– فلما جامعها حملت الحمل وكان خفيفًا فاستمرت به وقامت وقعدت ولم تتأثر به، وأيضًا كانت شاكَّة في الحمل عند بدايته لا تدري أحملت أم لم تحمل.

|

بحث حول: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾؟

ج: المراد– الله تعالى أعلم– لما ثقل الحمل الذي في بطن حواء عليها السلام وكبر دعت هي وآدم عليهما السلام دعوا الله عز وجل وجلَّ ربهما: لئن رزقتنا بغلامٍ سويٍّ لتقدمن شكرًا لك يا ربنا على ما أعطيتنا.

|

س: ما المراد بالصلاح في قول آدم وحواء عليهما السلام: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنه صالح الخلقة تام الخلقة ليس بناقص.

الثاني: أنهما أرادا غلامًا.

الثالث: أنهما خشيًا أن يكون المولد بهيمة.

الرابع: ان المراد الصلاح في الدين.

وأظهر هذه الأقوال وأشهرها القول الأول.

أما القول الأخير فلا أرى له وجهًا هنا لأنه لا يُتبين صلاح المولود فور ولادته.

إلا أن الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعَوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء، صالحًا ليكونان لله من الشاكرين.

و"الصلاح" قد يشمل معاني كثيرة: منها "الصلاح" في استواء الخلق، ومنها "الصلاح" في الدين، و"الصلاح" في العقل والتدبير.

وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني "الصلاح" دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يُعَمَّ كما عمَّه الله، فيقال: إنهما قالا (لئن آتيتنا صالحًا) بجميع معاني "الصلاح".

|

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: والذي عليه الأكثرون: فلما منَّ الله عَزَّوَجَلَّ على آدم وحواء عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بالولد السويِّ السليم من العيوب تام الخِلقة ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ أي جعل آدم وحواء لله عَزَّوَجَلَّ شريكًا في المولود الذي ولد، وذلك بأنهما أطاعا إبليس لما حثهما على تسمية المولود بـ(عبد الحارث) والحارث اسم من أسماء الشيطان، وذلك أن آدم وحواء عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ كان لا يعيش لهما ولد، أو بمعنى آخر- لا يولد لهما ولدٌ إلا مات فأتاهما الشيطان فقال لهما سمياه عبد الحارث حتى يعيش، فسمياه بذلك فأشركا في الاسم، ولم يكن شركًا في العبادة وبنحو هذا جاءت جملة من الآثار، المرفوع منها إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إسناده ضعف، وهو ما أخرجه الطبري (١).

من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: كانت حواء لا يعيش له ولدٌ فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه «عبد الحارث» فعاش لها ولدٌ فسمته (عبد الحارث) وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان

---

(١) الطبري (١٥٥٢٤) وسنده ضعيف.

وقد أخرجه غير الطبري أيضًا(١) وهو ضعيف لعدة أسباب:

أولها: الكلام في عمر بن إبراهيم وخاصة في روايته عن قتادة فهو متكلمٌ فيه وفي روايته عن قتادة.

ثانيًا: عنعنة قتادة وهو مدلس.

ثالثًا: رواية الحسن عن سمرة متكلم فيها.

رابعًا: إعلال هذا الحديث بالوقف، فقد روي موقوفًا على سمرة من وجوهٍ أصح من الوجه المرفوع.

خامسًا: تفسير الحسن للآية بتفسير آخر، ولو كان هذا الخبر عنده مرفوعًا إلى النبي ﷺ ما عدل عنه إلى غيره.

۞ وأورد الطبري أثرًا صحيح الإسناد عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: سمي آدم عليه السلام ابنه (عبد الحارث) وهذا موقوف على سمرة رضي الله عنه.

۞ وآثارًا على ابن عباس رضي الله عنهما لا يخلو أثرٌ منها مقال منها أثر من طريق ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حوّاء تلد لآدم، فتعبِّدهم لله، وتسميه "عبيد الله" و"عبد الله" ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليسُ وآدمَ، فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش! فولدت له رجلا فسماه "عبد الحارث"، ففيه أنزل الله ع: (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ)، إلى قوله: (جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا)، إلى آخر الآية.

وهذا الآثر ضعيف من وجوه:

منها الكلام في ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي ضعيف على الراجح، وكذا عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس، وكذا الكلام في رواية داود عن عكرمة.

۞ وأورد الطبري أثرًا آخر من طريق محمد بن سعد بالسلسلة الضعيفة (سلسلة العوفيين) عن ابن عباس قوله في آدم عليه السلام: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فشكّت: أحبلت أم لا، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ الآية، فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما

(١) وسيأتي إن شاء الله.

يكون؟ أبهيمة يكون أم لا؟ وزيَّن لهما الباطل، إنه غويٌّ مبين.

وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي، لم يخرج سويًّا، ومات كما مات الأولان! فسميا ولدهما «عبد الحارث»، فذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾، الآية.

وكما أشرت فسلسلة العوفيين التي روى بها السند ضعيف جدًّا.

۞ وكذا أورد سندًا آخر من طريق ابن جريج قال: قال ابن عباس: لما ولد له أول ولد، أتاه إبليس فقال: إني سأنصح لك في شأن ولدك هذا، تسميه "عبد الحارث"! فقال آدم: أعوذ بالله من طاعتك! =قال ابن عباس: وكان اسمه في السماء "الحارث"= قال آدم: أعوذ بالله من طاعتك، إني أطعتك في أكل الشجرة، فأخرجتني من الجنة، فلن أطيعك. فمات ولده، ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر، فقال: أطعني وإلا مات كما مات الأول! فعصاه، فمات، فقال: لا أزال أقتلهم حتى تسميه "عبد الحارث". فلم يزل به حتى سماه "عبد الحارث"، فذلك قوله: (جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ)، أشركه في طاعته في غير عبادة، ولم يشرك بالله، ولكن أطاعه.

وهذا ضعيف جدًّا أيضًا للإعضال الذي بين ابن جريج وابن عباس.

وأورد ابن أبي حاتم أثرًا في سنده مقالٌ أيضا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: (فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ) قَالَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا) آدَمُ (حَمَلَتْ) فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ –لَعَنَهُ اللهُ –فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ لَتطيعُنِّي أَوْ لأجعلنَّ قَرْنَي لَهُ أَيْلٍ فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقُّهُ، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ –يُخَوِّفُهُمَا –فسمِّياه "عَبْدَ الْحَارِثِ" فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتِ الثَّانِيَةَ، فَأَتَاهُمَا أَيْضًا فَقَالَ: أَنَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ، لتفعلُنَّ أَوْ لأفعلَنَّ –يُخَوِّفُهُمَا – فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتِ الثَّالِثَةَ فَأَتَاهُمَا أَيْضًا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ "عَبْدَ الْحَارِثِ"، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: (جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ). وفي شريك وخصيف مقال:

وأورد ابن أبي حاتم أيضًا إسنادًا آخر فيه كلام أيضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ أَتَاهَا الشَّيْطَانُ فَقَالَ:

أَتُطِيعِينِي وَيَسْلَمْ لَكِ وَلَدُكِ؟ سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَلَمْ تَفْعَلْ فَوَلَدَتْ فَمَاتَ، ثُمَّ حَمَلَتْ فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ حَمَلَتِ الثَّالِثَ فَجَاءَهَا فَقَالَ: إِنْ تُطِيعِينِي يَسْلَمْ، وَإِلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا.

وهذا الأسانيد الكثيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما وإن كان كلٌّ منها لا يخلو من مقال إلا أنها – فيما يبدو لي والله أعلم- تصح بمجموعها عنه رضي الله عنه، وخاصةً وأن أصحاب ابن عباس قد تلقوها عنه وأخذوها منه.

والحافظ ابن كثير رحمه الله وإن كان قد تبنى القول الثاني إلا أنه قال:

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه؛ كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسّدي وغير واحد من السلف، وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة.

وأورد الطبري أثرًا صحيحًا عن قتادة من وجهين:(فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ)، ذكر لنا أنه كان لا يعيش لهما ولد، فأتاهما الشيطان، فقال لهما: سمياه "عبد الحارث"! وكان من وحي الشيطان وأمره، وكان شركًا في طاعةٍ، ولم يكن شركًا في عبادةٍ.

وآثارًا أُخر أوردها الطبري في هذا الصدد عن مجاهد وسعيد بن جبير والسدي تحمل هذا المعنى.

۞ فهذا هو القول الأول حاصله أن اللذين جعلا له شركاء فيما آتاهما آدم وحواء عليهما السلام.

وكان ذلك بأنهما سميا ولدها عبد الحارث والشرك المذكور إنما هو شرك في الطاعة لا في العبادة.

وقال القرطبي رحمه الله:

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَانَ شركا في التسمية والصفة، لا في العباد وَالرُّبُوبِيَّةِ. وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: إِنَّهُمَا لَمْ يَذْهَبَا إِلَى أَنَّ الْحَارِثَ رَبُّهُمَا بِتَسْمِيَتِهِمَا وَلَدَهُمَا عَبْدَ الحارث، لَكِنَّهُمَا قَصَدَا إِلَى أَنَّ الْحَارِثَ كَانَ سَبَبَ نَجَاةِ الْوَلَدِ فَسَمَّيَاهُ بِهِ كَمَا يُسَمِّي الرَّجُلُ نَفْسَهُ عَبْدَ ضَيْفِهِ عَلَى جِهَةِ الْخُضُوعِ لَهُ، لَا عَلَى أَنَّ الضَّيْفَ رَبُّهُ، كَمَا قَالَ

حَاتِم:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا وَمَا فِيَّ إِلَّا تِيكَ مِنْ شِيمَةِ الْعَبْدِ

وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّ هَذَا رَاجِعٌ إِلَى جِنْسِ الْآدَمِيِّينَ وَالتَّبْيِينِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الَّذِي يُعَوَّلُ عَلَيْهِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ يَعْنِي الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى الْكَافِرَيْنِ، ويعنى به الجنسان. وَدَلَّ عَلَى هَذَا ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ يُشْرِكَانِ. وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ مِنْ هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ وَشَكْلٍ وَاحِدٍ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أَيْ مِنْ جِنْسِهَا﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ يَعْنِي الْجِنْسَيْنِ.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ لَا يَكُونُ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ ذِكْرٌ فِي الْآيَةِ، فَإِذَا آتَاهُمَا الْوَلَدَ صَالِحًا سَلِيمًا سَوِيًّا كَمَا أَرَادَاهُ صَرَفَاهُ عَنِ الْفِطْرَةِ إِلَى الشِّرْكِ، فَهَذَا فِعْلُ الْمُشْرِكِينَ. قَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**- فِي رِوَايَةٍ (**عَلَى هذه**) **الملة- أبواه يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ**». قَالَ عِكْرِمَةُ: لَمْ يَخُصَّ بِهَا آدَمَ، وَلَكِنْ جَعَلَهَا عَامَّةً لِجَمِيعِ الْخَلْقِ بَعْدَ آدَمَ. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: وَهَذَا أَعْجَبُ إِلَى أَهْلِ النَّظَرِ، لِمَا فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمُضَافِ مِنَ الْعَظَائِمِ بِنَبِيِّ اللهِ آدَمَ.

القــول الثــاني: في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أن هذا ليس مُنزلًا على آدم وحواء إنما هما رجل وامرأة من أهل الشرك من بني آدم.

وهذا القول مشهورٌ عن الحسن البصري خ فقد ورد عنه وجوهٍ تصح بمجموعها أنه قال: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا ونصَّروا[١].

أخرج هذه الوجوه الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وصاغ الطبري هذا القول بما هو أعم فقال:

وقال آخرون: بل المعنيُّ بذلك: رجلٌ وامرأة من أهل الكفر من بني آدم، جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد.

(١) يعني: الوارد في الحديث كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجسانه.

وقالوا: معنى الكلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، أي: هـذا الرجـل الكـافر، (حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت)، دعوتما الله ربكما.

قالوا: وهذا مما ابتدئ به الكلام على وجه الخطاب، ثم رُدَّ إلى الخبر عن الغائب، كما قيل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: ٢٢] وقد بينا نظائر ذلك بشواهده فيما مضى قبل.

إلا أن الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار القول الأول فقال:

وأولى القولين بالصواب:

قول من قال: عني بقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ في الاسم، لا في العبادة، وأن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك.

أما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد تقلد القول الثاني وانتصر له ووجَّه الوارد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ونحوه، بأن هذا يظهر عليه أنه مأخوذ من أهل الكتاب فقال الحافظ ابن كثير: وَهَذِهِ الْآثَارُ يَظْهَرُ عَلَيْهَا -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّهَا مِنْ آثَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا حَدَّثكم أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**»(١).

ثُمَّ أَخْبَارُهُمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: فَمِنْهَا: مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ. وَمِنْهَا مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ، بِمَا دُلَّ عَلَى خِلَافِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَيْضًا. وَمِنْهَا: مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ، فَهُوَ الْمَأْذُونُ فِي رِوَايَتِهِ، بِقَوْلِهِ، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حرج**»(٢). وَهُوَ الَّذِي لَا يصدَّق وَلَا يُكَذَّبُ، لِقَوْلِهِ: «**فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**». وَهَذَا الْأَثَرُ: هَلْ هُوَ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي أَوِ الثَّالِثِ؟ فِيهِ نَظَرٌ. فَأَمَّا مَنْ حَدَّثَ بِهِ مِنْ صَحَابِي أَوْ تَابِعِيٍّ، فَإِنَّهُ يَرَاهُ مِنَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ.

ثم أبرز ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأيه فقال:

وَأَمَّا نَحْنُ فَعَلَى مَذْهَبِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فِي هَذَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا

(١) انظر البخاري (٤٨٥).
(٢) البخاري (٣٤٦١).

السِّيَاقِ آدَمُ وَحَوَّاءُ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ: (فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ثم قال: فذكر آدم وحواء أولًا كالتوطئة لما بعدهم من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ الآية .

ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمي بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

وأقول، وبالله التوفيق –القائل مصطفى– ومناقشةً لما ذُكر، إن الإشكال الذي أورده العلماءُ القائلون بالقول الثاني الذي حاصله أن اللذين: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ هما رجلٌ وامرأة ومن سلك مسلكهما من أهل الشرك، من بني آدم ليسا بآدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مرده إلى الآتي:

١ – كيف يتصور أن يشرك أبونا آدم وأمنا حواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد خدعهما إبليس وأخرجهما من الجنة: «والْمُؤْمِنُ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»(١) كما جاء في الحديث.

٢–إن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بصيغة الجمع، وهذا أولى أن يعود على المشركين من بني آدم لا على الاثنين آدم وحواء.

ثم إن هؤلاء العلماء القائلين بهذا القول أجابوا على الحديث الوارد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حديث سمرة المرفوع) في هذا الصدد بأنه ضعيف.

وأجابوا على الآثار بأن غلبة الظن عندهم أنها مأخوذة من الإسرائيليات والإسرائيليات منها ما يصدق ومنها ما يكذب وحملوا هذا الوجه على أنه من الإسرائيليات التي ينبغي أن تُكذَّب.

۞ وأجابوا على ظاهر الآية بأنه حدث تحول في الخطاب بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ هذا حاصل ما ذكروه في هذا الصدد، فأقول، وبالله التوفيق– مناقشًا هذا القول:

١ – أما عن كون آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قد أشركا، فالشرك هنا كما قال جمهور العلماء

(١) البخاري حديث (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

القائلين بالقول الأول شرك الطاعة وليس شركًا في العبادة، أعني أنهما أطاعا الشيطان لما أوعز إليهما أن يسميا المولود (بعبد الحارث).

فبهذا حصل الانفكاك عن الشرك المذكور شرك العبادة.

٢- أما عن ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ فإن الضمائر قد تتناوب فأحيانًا يأتي الحديث عن الاثنين، وكذا قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ وإنما هو يدان.

ويمكن الجواب هنا أيضًا بوجه ثانٍ حاصله أن هذا الذي صدر من أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن أمنا حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ، ولكونه يصدر أيضًا من كثيرٍ من ذريتهما، لذا عُبر عنه بلفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾.

ثم يُجاب بوجه ثالثٍ حاصله أن الله عَزَّوَجَلَّ نزَّه نفسه ليس عما صُنع من التسمية بـ(عبد الحارث) فقط، بل عن كل صور الشرك، وعن كل المعبودات التي تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

ووجه رابع حاصله أنه حدث تحولٌ في الخطاب من بعد قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ واتجه الخطاب للذرية في قوله: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، والله أعلم.

۞ أما عن ضعف حديث سمرة المرفوع، فَنَعمْ حديث سمرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الصدد ضعيف كما بيناه، لكن لم يكن بناء القول على الحديث فحسب إنما على غيره من الآثار عن الصحابة والتابعين فضلًا عن ظاهر الآية الكريمة.

۞ أما عن كون الآثار مأخوذة من الإسرائيليات، فأقول: لا يستطاع الجزم بذلك ها هنا فقد نقلها أكثر من صحابي وتلقاها أكثر التابعين المفسرين لهذه الآية من غير نكير، فلو سُلِّم أنها من الإسرائيليات- وهذا بعيدٌ ها هنا- فليست كل الإسرائيليات بمردودة، وسبق أن ظاهر الآية لا يتنافى مع هذا التفسير، والله تعالى أعلى وأعلم.

وفي الختام أقول- وبالله التوفيق- إن قولًا قاله بعض أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولم يُعلم لهم فيه مخالفٌ، وكذا قاله جمهور التابعين رحمهم الله، ثم هو غير معارضٍ لظاهر الآية الكريمة لهُوَ قولٌ أقوى من غيره من الأقوال، فعليه فالقول الأول

المنقول عن سمرة وابن عباس ﭫ، وعن غيرهما والذي تبناه الطبري خ أصح، والله تعالى أعلى وأعلم.

س: كيف قيل: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، وإنما هو شريك واحد؟

ج: أجاب على ذلك الطبري بقوله:

فإن قال قائل: فإن آدم وحواء إنما سميا ابنهما «عبد الحارث»، و«الحارث» واحد، وقوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾ جماعة، فكيف وصفهما جل ثناؤه وبأنهما ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، وإنما أشركا واحدًا!.

قيل: قد دللنا فيما مضى على أن العرب تخرج الخبر عن الواحد مخرج الخبر عن الجماعة، إذا لم تقصد واحدًا بعينه ولم تسمِّه، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وإنما كان القائل ذلك واحدًا، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الجماعة، إذ لم يقصد قصده. وذلك مستفيض في كلام العرب وأشعارها.

|

س: إذا ذهب شخصٌ إلى أن النفس الواحدة: آدم ﵇، وزوجها حواء فكيف الإجابة على ما ورد بصيغة الجمع في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

ج: أجاب على ذلك بعض أهل العلم بما حاصله أن المراد فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الأوثان والأصنام، وأنه قد حدث تحوُّلٌ في الخطاب بعد قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ وانقضي الكلام ثم استؤنف قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

|

تبكيت من اشركوا بالله وبيان جهلهم وعدم انتفاعهم بشركهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أيتخذ هؤلاء المشركون من الأصنام والأوثان وسائر المعبودات شركاء لله ﷻ، وهي لا تستطيع أن تخلق شيئًا بل هي مخلوقة؟

قال الطبري ﵀:

يقول تعالى ذكره: أيشركون في عبادة الله، فيعبدون معه ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾، والله يخلقها وينشئها؟ وإنما العبادة الخالصة للخالق لا للمخلوق.

وقيل: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فأخرج مكنيِّهم مخرج مكنيّ بني آدم، ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا ﴾، فأخرج ذكرهم ب ﴿مَا ﴾ لا ب "من" مخرج الخبر عن غير بني آدم، لأن الذي كانوا يعبدونه إنما كان حجرًا أو خشبًا أو نحاسًا، أو بعض الأشياء التي يخبر عنها ب "ما" لا ب "من"، فقيل لذلك: ﴿مَا ﴾، ثم قيل: ﴿وَهُمْ﴾، فأخرجت كنايتهم مُخْرَج كناية بني آدم، لأن الخبر عنها بتعظيم المشركين إياها، نظير الخبر عن تعظيم الناس بعضهم بعضًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ مَرْبُوبَةٌ مَصْنُوعَةٌ، لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْتَصِرُ لِعَابِدِيهَا، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا بِسَمْعِهِمْ وَبَصَرِهِمْ وَبَطْشِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أَيْ: أَتُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَتْ آلِهَتُهُمْ كُلُّهَا، مَا اسْتَطَاعُوا خَلْقَ ذُبَابَةٍ، بَلْ لَوِ أستلبتهم الذُّبَابَةُ شَيْئًا مِنْ حَقِيرِ الْمَطَاعِمِ وَطَارَتْ، لَمَا اسْتَطَاعُوا إِنْقَاذَ ذَلِكَ مِنْهَا، فَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَحَالُهُ، كَيْفَ يُعْبَدُ لِيَرْزُقَ وَيُسْتَنْصَرُ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أَيْ: بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَصْنُوعُونَ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ أَيَعْبُدُونَ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ. ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أَيِ الْأَصْنَامُ مَخْلُوقَةٌ. وَقَالَ: ﴿يُخْلَقُونَ ﴾ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ لِأَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْأَصْنَامَ تَضُرُّ وَتَنْفَعُ، فَأُجْرِيَتْ مَجْرَى النَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

ج: المعنى، الله تعالى أعلم، ولا تستطيع هذه الآلهة المعبودة من دون الله نصر أنفسها ولا نصر عابديها. كما قال الله ﻷ: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أيشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله ما لا يخلق شيئًا من خلق الله، ولا يستطيع أن ينصرهم إن أراد الله بهم سوءًا، أو أحلّ بهم عقوبة، ولا هو قادر إن أراد به سوءًا نصر نفسه ولا دفع ضر عنها؟ وإنما العابد يعبد ما يعبده لاجتلاب نفع منه أو لدفع ضر منه عن نفسه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله لا تنفعهم ولا تضرهم، بل لا تجتلب إلى نفسها نفعًا ولا تدفع عنها ضرًّا، فهي من نفع غير أنفسها أو دفع الضر عنها أبعدُ؟ يعجِّب ﻷ خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم الله غيره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا) أَيْ: لِعَابِدِيهِمْ (وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) يَعْنِي: وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، كَمَا كَانَ الْخَلِيلُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ ويهينُها غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) وَقَالَ تَعَالَى: (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وإن دعوكم أيها الناس هذه الأصنام والآلهة المعبودة من دون الله ﻷ إلى السداد والرشاد ما فهموا مرادكم ولا ابتعوكم، فيستوي دعاؤكم لهم ونداؤكم لهم من سكوتكم فلا يفهمون كلامًا ولا سكوتًا، فكيف تعبدون ما لا يفهم ولا يعقل؟ وذلك كما قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ

تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾.

وكما قال أيضًا: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾.

قال الطبري خ في تأويل الآية الكريمة:

يقول تعالى ذكره في وصفه وعيبه ما يشرك هؤلاء المشركون في عبادتهم ربَّهم إياه: ومن صفته أنكم، أيها الناس، إن تدعوهم إلى الطريق المستقيم، والأمر الصحيح السديد لا يتبعوكم، لأنها ليست تعقل شيئًا، فتترك من الطرق ما كان عن القصد منعدلا جائرًا، وتركب ما كان مستقيمًا سديدًا.

وإنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بذلك من صفتها، تنبيهَهم على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم. يقول جل ثناؤه: فكيف يهديكم إلى الرشاد مَنْ إن دُعي إلى الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه، ولم يفهم رشادًا من ضلال، وكان سواءً دعاءُ داعيه إلى الرشاد وسكوته، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له. يقول: فكيف يُعبد من كانت هذه صفته، أم كيف يُشْكِل عظيمُ جهل من اتخذ ما هذه صفته إلهًا؟ وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضارّ من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه.

وقيل: (سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ)، فعطف بقوله: (صَٰمِتُونَ)، وهو اسم على قوله: (أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ)، وهو فعل ماض، ولم يقل: أم صمتم، كما قال الشاعر:

سَــوَاءٌ عَلَيْــكَ النَّفْــرُ أَمْ بِــتَّ لَيْلَــةً ... بِأَهْـلِ الْقِبَـابِ مِـنْ نُمَيْـرِ بْـنِ عَـامِرِ

وقد ينشد: "أم أَنْتَ بَائِتٌ".

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُــهُ: (وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ) يَعْنِي: أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهَا، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مَنْ دَعَاهَا وَمَنْ دَحَاهَا، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: (يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا)؟

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهَا عَبِيدٌ مِثْلَ عَابِدِيهَا، أَيْ: مَخْلُوقَاتٌ مثلهم، بل الأناسي أكمل منها، لأنها تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَبْطِشُ، وَتِلْكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

س: وضح معنى الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

ج: المعنى والله تعالى أعلم، إن الآلهة التي تعبدونها يا أهل الشرك غير الله ﷻ إنما هي مخلوقة ومملوكة لله ﷻ كما أنكم مملوكون لله ﷻ فسألوها واطلبوا منها كشف الضر أو جلب النفع حتى تتبينوا أنها لا تقدر على جلب خير أو دفع ضرٌ.

وليس قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ ﴾ أمرًا بالدعاء إنما هو توبيخٌ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، موبِّخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ) أيها المشركون، آلهةً (مِن دُونِ ٱللَّهِ)، وتعبدونها، شركًا منكم وكفرًا بالله (عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ)، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك. فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سُئل سمع مسألة سائله وأعطى وأفضل، ومن إذا شكي إليه من شيء سمع، فضرّ من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضرّ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ) حَاجَّهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. (تَدۡعُونَ) تَعْبُدُونَ. وَقِيلَ: تَدْعُونَهَا آلِهَةً. (مِن دُونِ ٱللَّهِ) أَيْ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ. وَسُمِّيَتِ الْأَوْثَانُ عباد الأنها مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ مُسَخَّرَةٌ. الْحَسَنُ: الْمَعْنَى أَنَّ الْأَصْنَامَ مخلوقة أمثالكم. وَلَمَّا اعْتَقَدَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَضُرُّ وَتَنْفَعُ أَجْرَاهَا مَجْرَى النَّاسِ فَقَالَ: (فَٱدۡعُوهُمۡ) وَلَمْ يَقُلْ فَادْعُوهُنَّ. وَقَالَ: «عِبَادٌ»، وَقَالَ: (إِنَّ ٱلَّذِينَ) وَلَمْ يَقُلْ إِنَّ الَّتِي. وَمَعْنَى(فَٱدۡعُوهُمۡ) أَيْ فَاطْلُبُوا منهم النفع والضر. (فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) أن عبادة الأصنام تنفع.

وقال ابْنُ عَبَّاس: مَعْنَى (فَٱدۡعُوهُمۡ) فَاعْبُدُوهُمْ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناها:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه، معرِّفهم جهل ما هم عليه مقيمون: ألأصنامكم هذه، أيها القوم (أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ)، فيسعون معكم ولكم في حوائجكم، ويتصرفون بها في منافعكم (أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ)، فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشرّ ومكروهٍ (أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ)، فيعرفونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه (أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا)، فيخبروكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه؟

يقول جل ثناؤه: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتُها، والمعظَّم من الأشياء إنما يعظَّم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟

وقوله: (قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ)، قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا شركاءكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾، أنتم وهي ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾، يقول: فلا تؤخرون بالكيد والمكر، ولكن عجِّلوا بذلك. يُعْلِمه جل ثناؤه بذلك أنهم لن يضروه، وأنه قد عصمه منهم، ويُعَرِّف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصرة من بغى أولياءهم بسوء.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

ج: قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أَيِ: اسْتَنْصِرُوا بِهَا عَلَيَّ، فَلَا تُؤَخِّرُونِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَاجْهَدُوا جُهْدَكُمْ! ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] أَيِ: اللهُ حَسْبِي وَكَافِيَّ، وَهُوَ نَصِيرِي وَعَلَيْهِ مُتَّكَلِي، وَإِلَيْهِ أَلْجَأُ، وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ صَالِحٍ بَعْدِي. وَهَذَا كَمَا قَالَ هُودٌ،

عليه السلام، لَمَّا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وَكَقَوْلِ الْخَلِيلِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٨] الْآيَاتِ، وَكَقَوْلِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

س: وضح معنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أن نصيري ومُعيني والذي يتولاني ويحفظني هو الله عز وجل الذي أنزل القرآن وهو ينصر الصالحين ويحفظهم ويُعينهم، ينصر ويحفظ أهل الصلاح والاستقامة على أمر الله عز وجل.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد، للمشركين من عبدة الأوثان ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ﴾، نصيري ومعيني وظهيري عليكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عليّ بالحق، وهو الذي يتولى من صلح عمله بطاعته من خلقه.

س: لماذا كرّر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾.

ج: ذلك لتأكيد انتفاء النفع الوارد من قبل الآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، ومؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذاك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

وقال القرطبي رحمه الله: كَرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والآلهة التي تعبدونها وتسألونها من دون الله ﷻ لا تستيطع جلب النفع لكم ولا دفع الضر عنكم، وفضلًا عن ذلك فإنها لا تستطيع جلب خيرٍ لنفسها ولا دفع ضرٍّ عن نفسها، فمن لا يملك لنفسه نفعًا ولا يستطيع دفع ضرٍّ عنها، يملكه لغيره؟!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا أيضًا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه أن يقول للمشركين.

يقول له تعالى ذكره: قل لهم: إن الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم، أيها المشركون، من دون الله من الآلهة، لا يستطيعون نصركم، ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرون على نصره أنفسهم.

فأي هذين أولى بالعبادة وأحق بالألوهية؟ أمن ينصر وليه ويمنع نفسه ممن أراده، أم من لا يستطيع نصر وليه ويعجز عن منع نفسه ممن أراده وبغاه بمكروه؟

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وترى هذه الآلهة المعبودة من دون الله كالأصنام والأوثان قد صوِّرت وكأنها تنظر إليك بعينها ولكنها في حقيقة الأمر لا ترى شيئًا ولا تعي شيئًا.

هذا، وقد قيل إن قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ ﴾ أي وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يرون الحق كما أنهم يستمعون الحق ولا يفهمونه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل للمشركين: وإن تدعوا، أيها المشركون، آلهتكم إلى الهدى =وهو الاستقامة إلى السداد ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ ﴾، يقول: لا يسمعوا دعاءكم ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

وهذا خطاب من الله نبيَّه ﷺ. يقول: وترى، يا محمد، آلهتهم ينظرون إليك وهم

لا يبصرون = ولذلك وحّد. ولو كان أمر النبي ﷺ بخطاب المشركين، لقال: "وترونهم ينظرون إليكم".

وأورد الطبري قول السّدي في الآية وأن المراد بقوله: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾: قال هؤلاء المشركون.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾؟ وهل يجوز أن يكون شيء ينظر إلى شيء ولا يراه؟

قيل: إن العرب تقول للشيء إذا قابل شيئًا أو حاذاه: "هو ينظر إلى كذا"، ويقال: "منزل فلان ينظر إلى منزلي" إذا قابله. وحكي عنها: "إذا أتيتَ موضع كذا وكذا، فنظر إليك الجبل، فخذ يمينًا أو شمالا". وحدثت عن أبي عبيد قال: قال الكسائي: "الحائط ينظر إليك" إذا كان قريبًا منك حيث تراه، ومنه قول الشاعر: إِذَا نَظَرْتَ بِلادَ بَنِي تَمِيمٍ بِعَيْنٍ أَوْ بِلادَ بَنِي صُبَاحِ يريد: تقابل نبتُها وعُشْبها وتحاذَى.

قال أبو جعفر: فمعنى الكلام: وترى، يا محمد، آلهة هؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، يقابلونك ويحاذونك، وهم لا يبصرونك، لأنه لا أبصار لهم. وقيل: "وتراهم"، ولم يقل: "وتراها"، لأنها صور مصوَّرة على صور بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾

إِنَّمَا قَالَ: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ أَيْ: يُقَابِلُونَكَ بِعُيُونٍ مُصَوَّرَةٍ كَأَنَّهَا نَاظِرَةٌ، وَهِيَ جَمَادٌ؛ وَلِهَذَا عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ يَعْقِلُ؛ لِأَنَّهَا عَلَى صُوَرٍ مُصَوَّرَةٍ كَالْإِنْسَانِ، فَقَالَ: (وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ) فَعَبَّرَ عَنْهَا بِضَمِيرِ مَنْ يَعْقِلُ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْمُرَادُ بِهَذَا الْمُشْرِكُونَ وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ نَحْوُهُ.

وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَقَالَهُ قَتَادَةُ.

قَالَ تَعَالَى:

خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا
يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠
إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم
مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ
٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ
وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ
٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ
وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦

الكلمة	معناها
﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾	الزم جانب العفو واسلكه- خذ ما تيسر من كريم أخلاق الناس وتجاوز عن إساءتهم.
﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾	المعروف.
﴿يَنزَغَنَّكَ﴾	يُغضبنك – يوسوس لك- يحملنك على فعل ما لا يليق بك (وقت الغضب) يُفسدن بينك وبين غيرك .
﴿نَزۡغٞ﴾	غضب- وسوسة- فسادٌ- وقيعة.
﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾	فالتجئ إلى الله- فتعوذ بالله – فاستجر بالله.
﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾	جعلوا بينهم وبين الشرك والمعاصي وقاية، وذلك بخوفهم من الله وتوحيدهم له.

الكلمة	معناها

(٤٣٩) أحمر
أسود

﴿مَسَّهُمْ﴾	أصابهم- حلَّ بهم.
﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾	الغضب- زلةٌ من الشيطان- لمةٌ من الشيطان - استزلال من الشيطان.
﴿تَذَكَّرُواْ﴾	عرفوا أنهم على خطأ- استدركوا- رجعوا عما وقعوا فيه.
﴿مُّبْصِرُونَ﴾	يرون هدى الله ﷻ ويطيعونه ويهتدون بهداه وينتهون عن معصيته
﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾	يزيدونهم من الضلال- يزيدونهم وقوعًا في الضلال والعصيان والمنكر.
﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾	لا ينتهون (أي: إخوان الشيطان) عن المعاصي ولا يتركونها، لا ينتهون (أي: الشياطين) لا تقصر في إغواء بني آدم ولا ترحمهم بل يستمرون في إضلالهم إضلالًا بعد إضلال.
﴿بِـَٔايَةٍ﴾	بمعجزة- بخارقةٍ للعادة، وقيل: بآية من القرآن.
﴿لَوْلَا﴾	هلَّا.
﴿ٱجْتَبَيْتَهَا﴾	اخترعتها- أتيت بها من تلقاء نفسك.
﴿بَصَآئِرُ﴾	آيات القرآن بصائر يستبصر بها العباد.
﴿وَأَنصِتُواْ﴾	استمعوا بتفهم- أصغوا له، والإنصات: الاستماع والإصغاء.
﴿تَضَرُّعًا﴾	تخشعًا- تواضعًا- رغبة فيما عنده.
﴿وَخِيفَةً﴾	خوفًا- إشفاقًا.
﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾	غير مجاهر- في خفاء.
﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾	البكور- البُكَر (من الفجر إلى طلوع الشمس).
﴿وَٱلْأَصَالِ﴾	العشيات قيل: (ما بين العصر إلى المغرب).
﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾	ينزهونه- يعظمونه.

س: ما سبب نزول قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

ج: أخرج البخاري(١) من حديث عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ قال ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس.

معنى قوله تعالى: (خُذِ ٱلۡعَفۡوَ)

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾.

ج: العفو له معانٍ منها:

الزيادة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ أي الزائد عن الحاجة(٢).

المحو والإزالة، ومنه قول الشاعر:

إذا عفا الأثر.....أي: إذا مُحيَ أثر الإبل أو الدواب...

الترك ومنه «أَعْفُوا اللِّحَي» إلى غير ذلك من المعاني.

أما قول تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ من أخلاق الناس، وهو الفضل وما لا يجهدهم وهذا يتضمن أمورًا ويحتملها، منها.

اقبل من الناس ما جادت به نفوسهم وسمحت به أخلاقهم، فاقبل من الكريم عن من حُرموا ذلك أو شيئًا من ذلك.

- فالزم جانب العفو والتجاوز عن المقصرين والمخطئين.
- وكذلك اقبل من النا ما أبدوه من الاعذار ولا تتحسس ولا تتجسس.

الثاني: قابل الإساءة بإحسانٍ، وهذا يتضمن أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك والرفق بالجاهل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

(الثالث: لا تكلف الناس بما لا يطيقون ولا يحتملون، بل انظر إلى قدراتهم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٤٣، ٤٦٤٤).
(٢) نُسِخَ ذلك بأنصبة الزكوات.

وعقولهم وأفكارهم وأقوالهم وطبائعهم، وخذ من ذلك الطيب وتجاوز عن القصور.

الرابع: خذ العفو أي: الزائد من أموال الناس، وقد قيل إن هذا كان قبل نزول آية الصدقة، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ ثم لما نزلت آية الصدقة أمر النبي ﷺ بان يأخذ الزكاة المفروضة، ثم لا يأخذ من الناس إلا ما جادت به نفوسهم بعد ذلك.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بعد أن ذكر جملة من الأقوال: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم = وقال: أُمر بذلك نبيّ الله ﷺ في المشركين.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الله جل ثناؤه أتبع ذلك تعليمَه نبيَّه ﷺ محاجَّته المشركين في الكلام، وذلك قوله: (قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ)، وعقَّبه بقوله: (وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا) [الأعراف: ٢٠٢، ٢٠٣]، فما بين ذلك بأن يكون من تأديبه نبيَّه ﷺ في عشرتهم به، أشبهُ وأولى من الاعتراض بأمره بأخذ الصدقة من المسلمين.

۞ وقبلها أورد الطبري قول ابن زيد بسندٍ صحيح عنه في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: أمره فأعرض عنهم عشر سنين بمكة.

قال: ثم أمره بالغلظة عليهم، وأن يقعد لهم كل مَرْصَد، وأن يحصرهم، **ثم قال:** (فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ)، [سورة التوبة: ٥، ١١] الآية، كلها.

وقرأ:(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ)[التوبة: ٧٣ - التحريم: ٩]

قال: وأمر المؤمنين بالغلظة عليهم، فقال: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً)، [التوبة: ١٢٣] بعدما كان أمرهم بالعفو.

وقرأ قول الله: (قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ)، [الجاثية: ١٤] ثم لم يقبل منهم بعد ذلك إلا الإسلام أو القتل، فنسخت هذه الآية العفو.

وقال السعدي في تفسيره:

هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بِرِّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه.

س: هل الآية الكريمة ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ منسوخة؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى ذلك فقال بعضهم نسختها الزكوات المفروضة، فعلى تفسيرهم للعفو بأنه الفائض من المال، كان النبي ﷺ أمر بإخراجه في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم إن ذلك نسخ بالزَّكوات المفروضة.

وقال بعضهم: نسختها آية السيف، ونسخها أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣].

وذهب فريق كبير من أهل العلم إلى أنها ليست منسوخة وإنما هي في التعامل مع الخلق عمومًا إلَّا من ورد النص بالشدة عليه والغِلظة عليه، قالوا: وقد قال ع: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: أفمنسوخ ذلك؟

قيل: لا دلالة عندنا على أنه منسوخ، إذ كان جائزًا أن يكون = وإن كان الله أنزله على نبيه ﷺ في تعريفه عشرةَ من لم يُؤْمَر بقتاله من المشركين = مرادًا به تأديبُ نبيّ الله والمسلمين جميعًا في عشرة الناس، وأمرهم بأخذ عفو أخلاقهم، فيكون وإن كان من أجلهم نزل تعليمًا من الله خلقه صفةَ عشرة بعضهم بعضًا، إذا لم يجب استعمال الغلظة والشدة في بعضهم، فإذا وجب استعمال ذلك فيهم، استعمل الواجب، فيكون قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾، أمرًا بأخذه ما لم يجب غيرُ العفو، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك. فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة، لما قد بينا ذلك في نظائره في غير موضع من كتبنا.

|

س: اذكر بعض الأدلة المجوزة للشدة بل والآمرة بها- على الجُناةِ والعُصاة.

ج: من ذلك ما يلي: قوله تعالى لذي القرنين: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

وقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩، ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ

ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

إلى غير ذلك من الآيات.

وسليمان عليه السلام يقول: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

من ذلك قول النبي ﷺ: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ»(١).

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لابن اللتبية – لما أتاه بمال وقال: هذا لكم وهذا أُهدي إليَّ –: «فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ؟!»(٢).

ومن ذلك قول أبي بكر الصديق لعروة بن مسعود الثقفي في صلح الحديبية: «اذْهَبْ فَامْصُص بَظْرَ اللَّاتِ»(٣).

وقول حمزة رضي الله عنه لسباع: «يَا سِبَاعُ، يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ الْبُظُورِ، أَتُحَادُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»(٤).

ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦)، والنسائي في «عمل اليوم الليلة» (ص ٥٤٠) بإسنادٍ صحيح عن الحسن عن عتي بن خمرة عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «**من رأيتموه يتعزَّى بعزاء الجاهلية فأعضُّوه ولا تكنوا**».

قلت: ومعنى التعزي بعزاء الجاهلية المُناداة والاستغاثة بالنعرات الجاهلية كقول القائل: يا للمهاجرين ويا للأنصار، ويا قبيلة فلا وفلان. ومعنى فأعضوه بهن أبيه: أمَّا الهنُّ: فهو عضو الرجل وأداة الجماع منه. ومعنى فأعضوه: أي قولوا له: عضنَّ هَن أبيك.

(٢) صحيح: وقد تقدم وهو في «الصحيحين»، وانظر كذلك مسلم (ص ١٤٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وقال الحافظ: والبظر قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات اسم لأحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عُروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبه المسلمين إلى الفرار، وفيه جواز النطق بما يستبشع منا لألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك.

(٤) أخرج البخاري (٤٠٧٢) من حديث وحشي بن حرب قال: «أَلَا تُخْبِرُنَا بِقَتْلِ حَمْزَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ طُعَيْمَةَ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الخِيَارِ بِبَدْرٍ، فَقَالَ لِي مَوْلَايَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بِعَمِّي فَأَنْتَ حُرٌّ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ، وَعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بِحِيَالِ أُحُدٍ، بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَادٍ، خَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ إِلَى القِتَالِ، فَلَمَّا أَنِ اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ، خَرَجَ سِبَاعٌ فَقَالَ: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟ قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا سِبَاعُ، يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ البُظُورِ، أَتُحَادُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ؟ قَالَ: ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ، فَكَانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ». الحديث.

وفي «صحيح مسلم[(١)]» أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُم المسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا**» قال: فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعهن، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سبًا سيئًا، وقال: أُخبرك عن رسول الله ﷺ وتقولك والله لنمنعهن؟!

س: ما المراد بـ (العرف) في قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾؟

ج: أكثر أهل العلم على أن المراد بالعرف هنا المعروف بعمومه.

قال الطبري خ: بعد أن أورد آثارًا في أن العرف هو المعروف:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف =وهو المعروف في كلام العرب، مصدر في معنى: "المعروف".

يقال: "أوليته عُرْفًا، وعارفًا، وعارفةً" كل ذلك بمعنى: "المعروف".

فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن "المعروف" صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض.

هذا، وقد أورد الطبري أحاديث ضعيفة الإسناد في هذا الصدد أعرضت عن ذكرها ها هنا.

س: هل يجوز النظر إلى الأعراف السائدة بين الناس في الشيء، الذي لا نص فيه من الكتاب والسُّنة؟ اذكر الأدلة على ذلك.

ج: إذا لم يكن في المسألة نص من كتاب الله ﷻ ولا من سنة رسول الله ﷺ ولم يكن في المسألة إجماع، جاز النظر إلى الأعراف السائدة وإعمالها فيما لا يُخالف شرع الله ﷻ، وقد جاءت نصوص نؤيد هذا المعنى منها:

قوله تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

---

(١) مسلم (ص ٣٢٧).

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣]

والإقساط يكون بمقارنتها بمثيلاتها.

وقول النبي ﷺ لهند لما قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يُعطيني ما يكفيني وولد، قال: «لاَ حَرَجَ عَلَيْكِ أَنْ تُطْعِمِيهِمْ بِالْمَعْرُوفِ»(١).

وقول النبي ﷺ في شأن بروع ينت واشق: «لَهَا مَهْرُ مِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ وَكْسٍ ولَا شطَطٍ»(٢).

وقوله ﷺ: «إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا، وَلَهُ مِثْلُهُ، بِمَا اكْتَسَبَ....» فقوله غير مُفسدة يكون مقارنةً بما يحدث من أمثالها وما حولها(٣).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم: لا تؤاخذ الجاهل إذا جهل عليك، ولكن اصبر وتجاوز، وهذا أمر ندب وإرشاد، وإلَّا فالقصاص جائز.

وكذا إذا ارتكب هذا الجاهل ما يستوجب حدًّا فلا يُتجاوز عنه، وكذا إذا أكل مال شخصٍ أو غير ذلك مما يجوزه الشرع في حالة الاشتداد وأداء الحقوق إلى أهلها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾، فإنه أمر من الله تعالى نبيّه ﷺ أن يعرض عمن جهل. وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيَّه، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجبَ عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حَرْبٌ.

س: هذه الآية الكريمة تُليت على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في موطنٍ من المواطن. اذكر هذا الموطن.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم (ص ١٣٣٩) واللفظ له.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء.

(٣) البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٠٢٤).

ج: هذا يتضح مما أخرجه البخاري[١] رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَتَسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ لِعُيَيْنَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ، قَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ، وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ، حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ، فَقَالَ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، «فَوَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وإما يُغضبك الشيطان ويوقعنك في الخطأ ويحملك على فعل ما لا يليق ويُفسد بينك وبين إخوانك فالتجئ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ واستجر بالله واعتصم به (فإن الله سميع) لما يصدر منك وما أُوذيت به وسميع لكل مقال (عليم) بما يذهب عنك الشيطان، وعليم بك وبنواياك.

وقد ورد في هذا الباب ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن صُرَدٍ[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ**» فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: «**تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ**».

---

(١) البخاري (٢٦٤٢).

* تنبيه: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: فاستعمال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذه الآية واستدلال الحر بها يدل على أنها مُحكَمة لا منسوخة. وكذلك استعملها الحسن بن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ على ما يأتي بيانه. وإذا كان الجَفَاء على السلطان تعمُّدًا واستخفافًا بحقه فله تعزيره. وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصَّفح والعفو؛ كما فعل الخليفة العدل.

(٢) البخاري (مع الفتح ١٠/ ٤٦٥)، ومسلم (١٦/ ١٦٣).

وفي بعض الروايات: «لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ».

قال الطبري -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدُّك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان ﴿سَمِيعٌ﴾ لجهل الجاهل عليك، ولاستعاذتك به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال الطبري أيضًا:

وأصل «النزغ» الفساد يُقال: «نزغ الشيطان بين القوم»، إذا أفسد بينهم، وحمّل بعضهم على بعض. ويُقال منه: «نزغ ينزَغ»، و«نغز ينغز».

طرق للتعامل مع شياطين الإنس والجن

س: لهذه الآية الكريمة: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والتي قبلها ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ نظائر في كتاب الله ﷻ توضح كيفية التعامل مع العدو الإنسي والعدو الجني الشيطاني. وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن الآية الكريمة الأولى حثنا الله ﷻ فيها على العفو والصفح عن الناس ومقابلة السيئة بإحسان، وكذا الإعراض عن الجاهلين، والآية الثانية حثتنا على الالتجاء إلى الله ﷻ الاستجارة به من الشيطان عندما يُصيبنا شيءٌ من وسوسته، فالعدو الإنسي قد يُداري بطيب القول والفعل وأنواع الاستمالة، أما العدو الشيطاني فلا يرضى من العبد إلاَّ بالكفر والعياذ بالله.

أما الآيات التي في معنى هذه الآية، فقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ

صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، أي: هذه الوصية ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦] وقال في هذه السورة الكريمة أيضًا: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي "الْأَعْرَافِ" وَ "الْمُؤْمِنُونَ" وَ "حم السَّجْدَةِ"، لَا رَابِعَ لَهُنَّ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُرْشِدُ فِيهِنَّ إِلَى مُعَامَلَةِ الْعَاصِي مِنَ الْإِنْسِ بِالْمَعْرُوفِ وَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُفُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّمَرُّدِ بِإِذْنِهِ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ: (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت: ٣٤] ثُمَّ يُرْشِدُ تَعَالَى إِلَى الِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجَانِّ، فَإِنَّهُ لَا يَكُفُّهُ عَنْكَ الْإِحْسَانُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هَلَاكَكَ وَدَمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

بعض مواطن الاستعاذة

س: اذكر بعض المواطن التي يُستعاذ فيها بالله عَزَّوَجَلَّ من الشيطان الرجيم.

ج: هناك الكثير من المواطن التي ورد فيها الحث على الاستعاذة، كم أنه ورد الأمر بالاستعاذة عمومًا فقد قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١-٥].

وثَمَّ أدلة أُخر:

أما المواطن والحالات التي يُستعاذ بالله من الشيطان الرجيم فهي عمومًا المواطن والحالات التي يحضر فيها الشيطان إما للتشويش على العابد في عبادته وإما تسلطًا من الشيطان على العبد كي يمده في الغيِّ ويوقعه في المعاصي وغير ذلك، فنستعيذ بالله عند تلاوة القرآن، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، وهذا عند التلاوة عمومًا، وكذا داخل الصلاة. وكذا نستعيذ

بالله عند وسوسة الشيطان في الصلاة لما ورد من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يُلَبِّسُهَا عَلَيَّ، فقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فتعوذ مِنْهُ وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»(١) قَالَ: فَفَعَلْتُ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي.

ونستعيذ بالله إذا وقعنا في الغضب، للحديث المتقدم قريبًا: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ»(٢).

ونستعيذ بالله عند جهل الجاهل كذلك، وعند نزغات الشياطين، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ **[فصلت: ٣٦]**، وكذا نستعيذ بالله عند نهيق الحمار ونباح الكلب ودخول الخلاء....إلى غير ذلك من المواطن، وقد أوردتُ كثيرًا من ذلك عند تفسير سورة الناس فراجعه إن شئت.

قال القرطبي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرح حديث «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمان».

حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: «**ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**» وَالصَّرِيحُ الْخَالِصُ. وَهَذَا لَيْسَ عَلَى ظَاهِرِهِ، إِذْ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ الْوَسْوَسَةُ نَفْسُهَا هِيَ الْإِيمَانَ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ الْيَقِينُ، وَإِنَّمَا الْإِشَارَةُ إِلَى مَا وَجَدُوهُ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُعَاقَبُوا عَلَى مَا وَقَعَ فِي أَنْفُسِهِمْ. فَكَأَنَّهُ قَالَ جَزَعُكُمْ مِنْ هَذَا هُوَ مَحْضُ الْإِيمَانِ وَخَالِصُهُ، لِصِحَّةِ إِيمَانِكُمْ، وَعِلْمِكُمْ بِفَسَادِهَا. فَسَمَّى الْوَسْوَسَةَ إِيمَانًا لَمَّا كَانَ دَفْعُهَا وَالْإِعْرَاضُ عَنْهَا والرد لها وعدم قبولها وَالْجَزَعُ مِنْهَا صَادِرًا عَنِ الْإِيمَانِ. وَأَمَّا أَمْرُهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ فَلِكَوْنِ تِلْكَ الْوَسَاوِسِ مِنْ آثَارِ الشَّيْطَانِ. وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالِانْتِهَاءِ فَعَنِ الرُّكُونِ إِلَيْهَا وَالِالْتِفَاتِ نَحْوَهَا. فَمَنْ كَانَ صَحِيحَ الْإِيمَانِ وَاسْتَعْمَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ وَنَبِيُّهُ نَفَعَهُ وَانْتَفَعَ بِهِ. وَأَمَّا مَنْ خَالَجَتْهُ الشُّبْهَةُ وَغَلَبَ عَلَيْهِ الْحِسُّ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الِانْفِكَاكِ عَنْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ مُشَافَهَتِهِ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ، كَمَا قَالَ ﷺ لِلَّذِي خَالَطَتْهُ شُبْهَةُ الْإِبِلِ الْجُرْبِ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا عَدْوَى**». وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: فَمَا بَالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ أَجْرَبَهَا؟ فَقَالَ ﷺ: «**فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ**» فَاسْتَأْصَلَ الشُّبْهَةَ مِنْ أَصْلِهَا. فَلَمَّا يَئِسَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَصْحَابِ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (مع النووي ١٤/١٨٩).

(٢) البخاري (١٠/٤٦٥)، ومسلم (١٦/١٦٣).

مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِغْرَاءِ وَالْإِضْلَالِ أَخَذَ يُشَوِّشُ عَلَيْهِمْ أَوْقَاتَهُمْ بِتِلْكَ الْأُلْقِيَاتِ. وَالْوَسَاوِسِ: التُّرَّهَاتُ، فَنَفَرَتْ عَنْهَا قُلُوبُهُمْ وَعَظُمَ عَلَيْهِمْ وُقُوعُهَا عِنْدَهُمْ فَجَاءُوا -كَمَا فِي الصَّحِيحِ- فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: «**أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ**»؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «**ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**» رَغْمًا لِلشَّيْطَانِ حَسَبَ مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ **[الحجر: ٤٢]**.

فَالْخَوَاطِرُ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُسْتَقِرَّةٍ وَلَا اجْتَلَبَتْهَا الشُّبْهَةُ فَهِيَ الَّتِي تُدْفَعُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَعَلَى مِثْلِهَا يُطْلَقُ اسْمُ الْوَسْوَسَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- إن أهل التقوى، الذين اتقوا الشرك واتقوا المعاصي، شأنهم إذا أصابهم من الشيطان شيءٌ، إذا أغضبهم الشيطان أو أَلَمَّ بهم أو أصابهم بصرع أو أوقعهم في ذنب ﴿تَذَكَّرُوا﴾ عقاب الله ﷻ فانتهوا عما أوقعهم فيه الشيطان ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ لطريق الهداية، ولطريق التوبة والإنابة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، الله من خلقه، فخافوا عقابه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يقول: إذا ألَمَّ بهم لَمَمٌ من الشيطان، من غضب أو غيره مما يصدّ عن واجب حق الله عليهم، تذكروا عقاب الله وثوابه، ووعده ووعيده، وأبصروا الحق فعملوا به، وانتهوا إلى طاعة الله فيما فرض عليهم، وتركوا فيه طاعة الشيطان.

وقال أيضًا:

وأما قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، فإنه يعني: فإذا هم مُبصرون هُدَى الله وبيانه وطاعته فيه، فمُنتهون عما دعاهم إليه طائف الشيطان.

وقال الحافظ ابن كثير:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ زَجَرَ،

أَنَّهُمْ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أَيْ: أَصَابَهُمْ "طَيْفٌ" وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿طَٓئِفٌ﴾، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ حَدِيثٌ، وَهُمَا قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، فَقِيلَ: بِمَعْنًى وَاحِدٍ. وَقِيلَ: بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ الشَّيْطَانِ بِالصَّرَعِ وَنَحْوِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْهَمِّ بِالذَّنْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْبِ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أَيْ: عِقَابَ اللهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، فَتَابُوا وَأَنَابُوا، وَاسْتَعَاذُوا بِاللهِ وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ. ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ أَيْ: قَدِ اسْتَقَامُوا وَصَحَوْا مِمَّا كَانُوا فِيهِ.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

ج: المعنى والله تعالى أعلم، وبعد أن ذكر الله ﷻ أهل التقوى والإيمان وأنهم إذا أوقعهم الشيطان في زللٍ أو غضبٍ أو نحو ذلك تعوذوا وبالله ﷻ منه وتابوا وأقلعوا وندموا على ما صنعوا، أما إخوان الشياطين وأولياء الشياطين وأتباع الشياطين، فالشياطين تزيدهم ضلالًا بعد ضلالٍ وعصيانًا بعد عصيانٍ وكُفرًا بعد كُفرٍ وازعاجًا بعد إزعاج وسفهًا وجهلًا بعد سفهٍ وجهلٍ.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ فللعلماء فيه وجهان:

أحدهما: أنه عائد على إخوان الشياطين من بني آدم، فمعناه وثم إن بني آدم لما مدتهم الشياطين في الغي فإنهم لا يقصرون عن فعل المعاصي ولا ينتهون عن فعلها بل هم فيها مستمرون.

الثاني: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ عائد على الشياطين، فالشياطين لا تقصر في الإغواء ولا ترحم، بل توقع الشخص في الكفر بعد الكفر والضلال بعد الضلال والفواحش بعد الفواحش، والعصيان بعد العصيان فلا تقصر ولا تفتر، وكما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الطبري -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

يقول تعالى ذكره: وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي. يعني بقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، يزيدونهم، ثم لا ينقصون عما نقص عنه الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان. وإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقي الإيمان والكفر، بأن فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفَّتهم رهبته عن معاصيه، وردّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم زلّةً = وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًّا إلى غيهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهو أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيده أبدًا، لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مدِّه منه.

وقال الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أَيْ وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] وَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُسْتَمِعُونَ لَهُمُ، الْقَابِلُونَ لِأَوَامِرِهِمْ ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ أي تساعدهم الشياطين على الْمَعَاصِي وَتُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ وَتُحَسِّنُهَا لَهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْمَدُّ الزِّيَادَةُ يَعْنِي يَزِيدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ يَعْنِي الْجَهْلَ وَالسَّفَهَ.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قِيلَ معناه إن الشياطين تمد الإنس لَا تُقْصِرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابن عباس فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الآية، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قِيلَ: الْمَعْنَى وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ وَهُمُ الْفُجَّارُ مِنْ ضُلَّالِ الْإِنْسِ تَمُدُّهُمُ الشَّيَاطِينُ فِي الْغَيِّ. وَقِيلَ لِلْفُجَّارِ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ لِأَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ مِنْهُمْ. وَقَدْ سبق فهذه الْآيَةِ ذِكْرُ الشَّيْطَانِ. هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَالْحَسَنِ وَالضَّحَّاكِ وَمَعْنَى ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ أَيْ لَا يَتُوبُونَ وَلَا

يَرْجِعُونَ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَالْمَعْنَى: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَكُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ، لِأَنَّ الْكُفَّارَ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَسَّهُ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَنَبَّهَ عَنْ قُرْبٍ، فَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَيَمُدُّهُمُ الشَّيْطَانُ. و(لَا يُقْصِرُونَ) قِيلَ: يَرْجِعُ إِلَى الْكُفَّارِ عَلَى الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا. وَقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الشَّيْطَانِ. قَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَى ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ عَنْهُمْ وَلَا يَرْحَمُونَهُمْ. وَالْإِقْصَارُ: الِانْتِهَاءُ عَنِ الشَّيْءِ، أَيْ لَا تُقْصِرُ الشَّيَاطِينُ فِي مَدِّهِمُ الْكُفَّارَ بِالْغَيِّ. وَقَوْلُهُ:(فِي الْغَيِّ) يَجُوزُ أَنْ يكون متصلا بقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ ويجوز أن يكون مُتصلًا بالإخوان. والغيّ: الجهل.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

ج: أولًا: لأهل العلم قولان في قوله تعالى: ﴿بِآيَةٍ﴾:

أحدهما: أن الآية المعجزة والخارقة.

الثاني: أن الآية هي التي تُتلى من كتاب الله ﷻ. أما قولهم: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي اخترتها واصطفيتها وأتيت بها من قِبَل نفسك (أي: من عندك).

فعلى المعنى الأول لقوله ﴿بِآيَةٍ﴾:

يقول الله ما حاصله: وإذا لم تأتهم يا رسول الله بالمعجزة التي طلبوها قالوا لك: هلَّا أتيتنا بها من عند نفسك، وهلَّا اخترت لنا معجزة من بين المعجزات فجئتنا بها حتى نصدقك، قل إنما الأمر فيه الله ﷻ يفعل ما يريد، وإن كنتم تريدون مُعجزة عظيمة هي أعظم الآيات على الإطلاق فهذا القرآن ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تستبصرون بها، وهدىً يهدي به الله من يشاء إلى الطريق المستقيم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يرحم الله به عباده المؤمنين بما يُنيره لهم من الطريق، وبما يُخرجهم به من الظلمات إلى النور ومن الكُفر إلى الإيمان.

وهذا المعنى كالوارد في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

أما المعنى الثاني: (أن الآية هي آية من الكتاب العزيز) فالمعنى: وإذا تأخرت عليك آية من الآيات أو تأخر نزول الوحي قال أهل الشرك لولا جئتنا بها من قِبَل نفسك، واخترتها من بين سائر كلامك فصُغتها بالصياغة التي تريدها. ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ لست بمُختلقٍ لآية ولا بِمُفترٍ لها.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا لم تأت، يا محمد، هؤلاء المشركين بآية من الله (قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ)، يقول: قالوا: هلا اخترتها واصطفيتها.

من قول الله تعالى: (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ)، [آل عمران: ١٧٩] يعني: يختار ويصطفي. وقد بينا ذلك في مواضعه بشواهده.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: هلا افتعلتها من قِبَل نفسك واختلقتها؟ بمعنى: هلا اجتبيتها اختلاقًا؟ كما تقول العرب: "لقد اختار فلان هذا الأمر وتخيره اختلاقًا.

ثم أورد أقوال بعض أهل العلم في ذلك ثم قال:

وقال آخرون: معنى ذلك هلَّا أخذتها من ربك وتقبلتها منه؟

ثم قال:

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، تأويلُ من قال تأويله: هلا أحدثتها من نفسك! لدلالة قول الله: (قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ)، فبيَّن ذلك أن الله إنما أمر نبيه ﷺ، بأن يجيبهم بالخبر عن نفسه أنه إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحيه إليه، لا أنه يحدث من قبل نفسه قولا وينشئه فيدعو الناس إليه.

وحكي عن الفراء أنه كان يقول: «اجتبيت الكلام» و«اختلقته»، و«ارتجلته»: إذا افتعلته من قِبَل نفسك.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:

يقول تعالى ذكره لنبيه مُحمد ﷺ: قل، مُحمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: «هلَّا

(٤٥٦) أحمر
أسود

أحدثتها من قبل نفسك!» إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله، لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحي إليَّ من عنده، فإنما أتبع ما يوحي إليَّ من ربي، لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أُطيع، ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، يقول: هذا القرآن والوحي الذي أتلوه عليكم، ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، يقول: حجج عليكم، وبيان لكم من ربكم.

واحدتها «بصيرة»، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وإنما ذكر ﴿هَٰذَا﴾ ووحَّد في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، لما وصفت من أنه مُرادٌ به القرآن والوحي.

وقوله: ﴿وَهُدٗى﴾، يقول: وبيان يهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ رحم الله به عباده المؤمنين فأنقذهم به من الضلالة والهلكة، ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، يقول: هو بصائر من الله وهُدىً ورحمة لمن آمن، يقول: لمن صدَّق بالقرآن أنه تنزيل الله ووحيه، وعمل بما فيه، دون من كذب به وجحده وكفر به، بل هو على الذين لا يؤمنون به عمًى وخزي.

وقال ابن كثير –رَحِمَهُ ٱللَّهُ–:

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ) أَيْ: مُعْجِزَةٍ، وَخَارِقٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ) [الشُّعَرَاءِ: ٤] يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَلَا تُجْهِدُ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ مِنَ اللهِ حَتَّى نَرَاهَا وَنُؤْمِنَ بِهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ: (قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ) أَيْ: أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ فَأَمْتَثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ، فَإِنْ بَعَثَ آيَةً قَبِلْتُهَا، وَإِنَّ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءَ إِيَّاهَا؛ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُعْجِزَاتِ، وَأَبْيَنُ الدَّلَالَاتِ، وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ، فَقَالَ: (هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ).

أ

حول الاستماع والإنصات للقرآن الكريم

س: وضِّح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناها.

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به، المصدقين بكتابه، الذين القرآنُ لهم هدى ورحمة: (وَإِذَا قُرِئَ)، عليكم، أيها المؤمنون، (ٱلْقُرْءَانُ)، (فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ)، يقول: أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه (وَأَنصِتُوا۟)، إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)، يقول: ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه.

قال السعدي في تفسيره:

هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات(١).

والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرا كثيرا وعلما غزيرا، وإيمانا مستمرا متجددا، وهدى متزايدا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة، وغيرها.

---

(١) انظر ما سيأتي قريبًا، ففي قوله بالتعميم نظر.

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ سبب نزول؟

ج: أورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة أسانيد تُفيد أن الآية نزلت في الصلاة لا يخلوا سندٌ منها من مقال.

منها: ما أورده من طريق المُسيب بن رافع قال كان عبد الله (وهو ابن مسعود) يقول: كنا يُسلم بعضنا على بعضٍ في الصلاة (سلام على فلان) و(سلام على فلان) قال فجاء القرآن: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾.

قلت (مصطفى): وفي سند هذا الأثر أبو بكر بن عياش فيه بعض الكلام وكذا شيخه عاصم بن بهدلة، وكذا لم يسمع المُسيب بن رافع من ابن مسعود.

وأورد أثرًا آخر من طريق الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتىً من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئًا قرأة فنزلت: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾، وسنده ضعيف مُرسل.

وأخرج الطبري بسندٍ صحيح عن قتادة قوله: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾، قال كانوا يتكلمون في صلاتهم بحوائجهم أوَّل ما فرضت عليهم، فأنزل الله ما تسمعون: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾.

ولكنه مُرسل كما ترى فقتادة تابعي ومراسيله من أضعف المراسيل.

س: هل الإنصات عند قراءة القرآن يكون في كل وقتٍ وحين أم أنه في أحوال مخصوصة؟

ج: أكثر أهل العلم على أن الاستماع والإنصات يكون في الصلاة أي أنه الاستماع والإنصات للقرآن الذي يُتلى في الصلاة.

ومن العلماء من زاد أيضًا والقرآن الذي يُتلى أثناء خطبة الجمعة.

أخرج الطبري بسندٍ صحيح عن طلحة بن عُبيد الله بن كريز قال: رأيت عبيد بن عُمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان، والقاصّ يقص، فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظر إليَّ، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدت، فنظرا

إليّ، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظر إليّ فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾.

وأخرج بسندٍ صحيح عن مجاهد أيضًا قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: في الصلاة.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد قال في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال هذا إذا قام الإمام للصلاة: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾.

وثم آثارٌ أُخر أوردها الطبري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

وأخرج الطبري بسندٍ رجاله ثقات عن يُسير بن جابر قال: صلى ابن مسعود، فسمع ناسًا يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفقهوا! أما آن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، كما أمركم الله.

س: ما مدى صحة هذه اللفظة التي أخرجها مسلم في «صحيحه»: «.....وإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا؟»

ج: هذه اللفظة ذكره مسلم[(١)] في صحيحه عقب روايته لحديث أبي موسى مرفوعًا وفيه: «.....ثُمَّ لْيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذْ قَالَ (غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)، فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ فَإِذَا كَبَّرَ وَرَكَعَ فَكَبِّرُوا وَارْكَعُوا، فَإِنَّ الْإِمَامَ يَرْكَعُ قَبْلَكُمْ، وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ....» الحديث ثم أشار مسلم إلى زيادة: «وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا.....».

قلت (مصطفى): وهذه الزيادة أعلها عدد من أهل العلم، والذي أراه أنها معلولة ولا تثبت، وإن كان معناها تشهد له الآية الكريمة، والله أعلم.

س: أهل الكفر كانوا يُشوشون على القرآن عند تلاوته. دلّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ **[فصلت: ٢٦]**.

أي: أعرضوا عن هذه القرآن وانصرفوا عنه وشوشوا عليه وتكلموا عند

(١) مسلم (حديث ٤٠٤).

تلاوته لعلكم تصرفون الناس عنه، كذا يوصي الكفار بعضهم بعضًا بذلك.

ذكر الله ﷻ تضرعا وخيفة وفي الخفاء

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، واذكر الله ﷻ أيها المسلم في نفسك ولا تجهر بذلك، ذكرًا متضمنًا التهليل والتكبير والحمد والتسبيح والتمجيد، وغير ذلك من صور الذكر، وكذا الذكر المتضمن الدعاء أي: ادعه في نفسك، ﴿تَضَرُّعٗا﴾ تخشعًا وتواضعًا وإلحاحًا وإشفاقًا ورغبةً،وخوفًا منه ومن تقصيرك في حقه سبحانه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، اذكر الله ﷻ على النحو المذكور، ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أي في وقت الغدوات، وهي من الفجر إلى طلوع الشمس، ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ وهي أوقات العشي، قيل إنها ما بين العصر إل المغرب، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ اللاهين عن ذكر الله المنشغلين بغيره عنه.

والآية كقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وقال الحافظ ابن كثير –رَحِمَهُ اللَّهُ–:

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: (وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ) [ق:٣٩] وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ.

وَقَالَ هَاهُنَا (بِٱلۡغُدُوِّ)-وَهُوَ أَوَائِلُ النَّهَارِ: (وَٱلۡأٓصَالِ) جَمْعُ أَصِيلٍ، كَمَا أَنَّ الْأَيْمَانَ جَمْعُ يَمِينٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ) أَيِ: اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ رهبة ورغبة، وبالقول لا جهرًا؛ ولهذا قَالَ: (وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ) وَهَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ لَا يَكُونُ

نِدَاءً وَلَا جَهْرًا بَلِيغًا؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة:١٨٦] (١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ (٢) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالدُّعَاءِ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تدعون أصمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**».

وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإِسْرَاء:١١٠] فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَبُّوهُ، وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ، وَسَبُّوا مَنْ جَاءَ بِهِ؛ فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَلَّا يَجْهَرَ بِهِ، لِئَلَّا يَنَالَ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ، وَلَا يُخَافِتَ بِهِ عَنْ أَصْحَابِهِ فَلَا يُسْمِعُهُمْ، وَلْيَتَّخِذْ سَبِيلًا بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْإِسْرَارِ. وَكَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

هذا، وقد ذهب الطبري مذهبًا آخر في تفسيره الآية الكريمة، ولكن أراه بعيدًا في هذا المقام، حيث أنه حمل الآية الكريمة على المُصلي الذي يستمع القرآن من إمامه، ومن ثَمَّ تعقبه غير واحدٍ من العلماء منهم الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، فأورد هاهنا قول الطبري وتعقب ابن كثير له –رحمهما الله– عَزَّ وَجَلَّ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَاذْكُرْ﴾ أيُّها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة ﴿رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، يقول: اتعظ بما في آي القرآن، واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعكه ﴿تَضَرُّعًا﴾، يقول: افعل ذلك تخشعًا لله وتواضعًا له. ﴿وَخِيفَةً﴾، يقول: وخوفًا من الله أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاظ به والاعتبار، وغفلة عما بين الله فيه من حدوده. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، يقول: ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهار. يقول: ليكن ذكر الله عند استماعك القرآن في دعاء إن دعوت غير جهار، ولكن

---

(١) ضعيف الإسناد.

(٢) البخاري (مع الفتح: ١١/١٨٧)، ومسلم (مع النووي: ١٧/٢٥).

في خفاء من القول.

وتعقب هذا الحافظُ ابن كثير بقوله:

وَقَدْ زعم ابن جرير وقبله عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ إِنَّ المراد بها أَمْرُ السَّامِعِ لِلْقُرْآنِ فِي حَالِ اسْتِمَاعِهِ بِالذِّكْرِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ. وَهَذَا بعِيدٌ مُنَافٍ لِلْإِنْصَاتِ المأمور به، ثم إن الْمُرَادُ بِذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ كَمَا تَقَدَّمَ أَوِ في الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْصَاتَ إِذْ ذَاكَ أَفْضَلُ مِنَ الذِّكْرِ بِاللِّسَانِ، سَوَاءً كَانَ سِرًّا أَوْ جَهْرًا، فَهَذَا الَّذِي قَالَاهُ لَمْ يُتَابَعَا عَلَيْهِ، بَلِ الْمُرَادُ الْحَضُّ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ مِنَ الْعِبَادِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، لِئَلَّا يَكُونُوا مِنَ الْغَافِلِينَ، وَلِهَذَا مَدَحَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، فَقَالَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦] وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بِهِمْ فِي كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ.

وَلِهَذَا شُرِعَ لَنَا السُّجُودُ هَاهُنَا لَمَّا ذُكِرَ سُجُودُهُمْ لِلَّهِ ﷻ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «أَلَا تُصَفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا يُتِمُّونَ الصفوف الأول فالأول وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»(١).

س: اذكر بعض الأدلة على الإسرار بالذِّكر.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾.

قوله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»(٢).

وقوله ﷺ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»(٣).

وفي حديث السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظله: «.......وَرَجُلٌ

(١) أخرجه مسلم (حديث ٤٣٠) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) البخاري (مع الفتح ١٣/ ٣٨٤)، ومسلم (مع النووي ١٧/ ٢).
(٣) البخاري (مع الفتح ١١/ ١٨٧)، ومسلم (مع النووي ١٧/ ٢٥).

ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه»(١).

س: ما مدى صحة ما نُسب إلى النحاس من قوله: ولم يختلف في معنى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ أنه في الدعاء؟

ج: إذا كان يُفهم من كلامه أن الآية في الدعاء فحسب فقد خولف من ذلك: أما إذا كان يقصد أن الدعاء داخلٌ في الآية الكريمة فالمعنى صحيح. والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

ج: المعنى، ولا تكن من اللاهين عن ذِكر الله ﷻ المنشغلين بغيره عنه، ولا تكن من التاركين لدُعائه وسؤاله ورجائه.

كذا، ولا تكن من الغافلين عن التدبير والتفهم لكتاب الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ)، فإنه يقول: ولا تكن من اللاهين إذا قرئ القرآن عن عظاته وعبره، وما فيه من عجائبه، ولكن تدبر ذلك وتفهمه، وأشعره قلبك بذكر الله، وخضوعٍ له، وخوفٍ من قدرة الله عليك، إن أنت غفلت عن ذلك.

التشبه بالملائكة

س: هل التشبه بالملائكة فيما يشتركون فيه مع البشر محمود؟

ج: نعم، محمودٌ؛ لقوله ﷺ: «أَلَا تُصَفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا».

وكذا تشبهنا بهم في إحسان العبادة وإتقانها فإن الله جلَّ ذكره، وبعد أن أمره بذكره بالغدو والآصال، ونهانا عن الغفلة قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ففي هذا إشارة إلى التواضع لله وإحسان عبادته والسجود له كما أن الملائكة يتواضعون ويُحسنون العبادة ويسجدون. والله أعلم.

---

(١) البخاري (مع الفتح ٢/١٤٢)، ومسلم (مع النووي ٧/١٢٠).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ج: المعنى، الله تعالى أعلم: اذكر الله ﷻ أيها المسلم ولا تستكبر عن ذكره ولا عن دعائه ولا عن مسألته، فإن الملائكة الذين هم عند الله ﷻ لا يستكبرون عن عبادة الله ولا عن ذكره بل هم يُسبحونه ويسجدون له، فتشبهوا بهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لا تستكبر، أيها المستمع المنصت للقرآن، عن عبادة ربك، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع، وذلك هو "العبادة"(وَيُسَبِّحُونَهُۥ)، يقول: ويعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم (وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ)، يقول: ولله يصلون وهو سجودهم فصلوا أنتم أيضًا له، وعظموه بالعبادة، كما يفعله من عنده من ملائكته.

س: هل يشرع السجود عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩﴾.

ج: نعم يُشرع ذلك فقد نُقل الإجماع على ذلك.

قال ابن كثير –رَحِمَهُ ٱللَّهُ–:

وهذه أول سجدةٍ في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع.